

والغزو الفكري

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

د. عبد العزيز شرف
أستاذ الإعلام الإسلامي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الإسلام

وَالغَزْو الفِكريّ

الباب الأول

وسائل الاعلام والغزو الفكري ..



وسائل الاعلام والغزو الفكري ..

نص ميثاق جامعة الدول العربية على أن من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً في شؤون الثقافة والشؤون الاخرى .. (المادة الثانية) وهو ما كان متحققاً ايضاً في بروتوكول الاسكندرية (البند الثاني). اما المعاهدة الثقافية فقد وافق عليها مجلس الجامعة العربية بتاريخ ٢٧ / ١١ / ١٩٤٥ مما يدل على ان الميدان الثاني يمثل باكورة الاهتمام العربي المشترك .. وفي هذه المعاهدة نقرأ ان الدافع الى عقدها هو الرغبة في « توحيد اتجاهات (دولهم) العامة وتوثيق التعاون في الشؤون الثقافية وزيادة التقارب الذهني والتآلف الروحي بين أبناء البلاد العربية والعمل على تعميم التعليم ورفع المستوى الثقافي لشعوبها ».

وفي دستور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم نجد التجسيد لهذا المفهوم في تحديد هدف المنظمة بأنه « التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم ورفع المستوى الثقافي في هذا الوطن حتى يقوم بواجبه في متابعة الحضارة العالمية والمشاركة فيها ».

ومن ذلك يتضح ان المفاهيم الاساسية لضرورة العمل الثقافي العربي

المشترك واضحة في كافة الوثائق الجماعية بدءا من بروتوكول الاسكندرية فميثاق جامعة الدول العربية فالمعاهدة الثقافية فميثاق الوحدة الثقافية العربية فدستور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وفي اعلان المؤتمر الأول للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية الذي اجتمع في عمان عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية من التاسع والعشرين من ذي الحجة ١٣٩٦ هـ الى الثاني من محرم ١٣٩٧ هـ — الموافق للعشرين من ديسمبر / كانون الأول الى الثالث والعشرين منه عام ١٩٧٦ بدعوة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .. نقرأ ما يلي :

« تصميم الأمة العربية على القضاء على جميع اثار الاستلاب الثقافي والغزو الفكري الظاهر والمستتر اللذَيْن تعرضت لهما في الماضي عن طريق الغزوات الاستعمارية ودفع الصور الجديدة من الاستعمار وخاصة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، ويتمثل هذا الاستلاب الثقافي — فيما يتمثل، في :

— محاولة فرض مظاهر الاغتراب اللغوي والفكري والثقافي.
— محاولة طمس معالم الشخصية الثقافية العربية.
— محاولة اغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة للقيم الثقافية الصحيحة.
— العمل على تزييف التاريخ العربي الاسلامي.
— العمل على تغيير البناء الاجتماعي والسكاني.
— العبث بالممتلكات الثقافية وانتهاك المقدسات الدينية » ..

وتأسيساً على هذا الفهم، نحاول في هذه الصفحات دراسة الغزو الفكري ووسائل الاعلام، في الاطار العربي الذي تحددت معالمه في الوثائق والمواثيق الخاصة بجامعة الدول العربية.

ذلك ان التقدم المذهل في وسائل الاتصال أصبح في ذ نه من أكثر المظاهر التي تقلق بال العالم، وبعد ان خبر العالم للمر حل الأولية للتجديد التكنولوجي السريع وما يسمى (بانفجار المعلومات) و (تلوث البيانات) يشعر المراقبون العالمون ببواطن الامور « بقلق على المرحلة التالية التي سيفتح فيها تكامل النظم، ما طرأ من توسعات ضخمة في القدرة على الارسال من آفاق لا حد لها بصفة خاصة. اما النذر التي تكمن في هذا ؟ هل ستتخطى التكنولوجيا القدرة على استخدامها لغايات يمكن قبولها اجتماعياً ومصالح من ستتحقق أولاً؟.. ما الاتجاهات التي يمكن ادراكها ومصالح من تتهدد ؟ هل هناك ما يكفي من المواد التي يمكن نقلها على طريق القنوات المتاحة كلها أو اننا سنقبل على تنوع عظيم فيها بما سيؤدي الى زيادة مفرطة في الارسال، ومن ثم الى افقار تام بدلاً من مزيد من التنوع والإبداع والاستقلال ؟ ماذا يحدث للاختراعات والاتصال بين الناس في مجتمع يتسم بالالات الالكترونية »[1].

واذا كانت العوامل الحضارية تسود في تطور قدرات الاتصال لأي فرد، فإن هناك مجالاً مشتركاً تدور فيه علوم الانسان والاجتماع والاتصال حول هذا الموضوع. بيد ان الاشارة الى الحضارة في هذا الصدد تقتضي معالجة دقيقة، ذلك ان هناك « عناصر من الخصوصية والعمومية في أي حضارة؛ ويقصد بالاولى انها السهولة النسبية للاتصال بين افراد حضارة واحدة تنتقل فيها القيم والحقائق، التي يختلف بعضها باختلاف الحضارات. فبعض التصورات الخاصة بالشؤون الواقعية قد تختلف من حضارة الى اخرى، ومع ذلك فإن التشابه البيولوجي

(١) المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ع ٤٣ ـــ م ١١ ابريل / يونيو ١٩٨١ م ص ٢.

الجوهري لجميع المخلوقات البشرية يؤكد بإمكانية حل مثل هذه الاختلافات ذلك لأن اساس الاتصال بيولوجي »[1] اما الصفات الحضارية الخاصة، فتلك هي التي نعنيها عندما نتحدث عن الغزو الفكري الذي يهددها بدوره عن طريق وسائل الاتصال، في حين ان عموميات الحضارة تعتبر قاسماً مشتركاً بين الشعوب جميعاً، ولذلك فإن مفهوم الاتصال يزيل بالحضارة القول الشائع بأن النسبة الحضارية تقف كحاجز للحوار بين الحضارات المختلفة ومن ثم التفاهم الدولي.

ومن أجل ذلك يذهب المعنيون بأمور الفكر والثقافة الى أننا ونحن نقترب من نهاية القرن العشرين، نقترب من الوقت نفسه من ثقافة عالمية، فباعتبار ان الكوكب الذي نعيش عليه مفتوح تماماً أمامنا وبمتناول علمنا، وبحثنا، فإننا متأكدون من خرق حجاب « الاسرار الأرضية »، بحيث بات علينا بعد الآن ان ننقب عن النجوم وعن نظام الكواكب، فنحن نعرف سكان الأرض جميعاً وبوسعنا فهمهم، كما بوسع الجميع ــ بفضل وسائل الاتصال الحديثة ــ أن يستمعوا الى كل شيء وان يجعلوا غيرهم يستمع اليهم. وقد ولى الزمان الذي كان فيه عالم الأجناس يتحدث عن الأساليب الحياتية الخاصة بالشعوب الغريبة عنا والتي كانت هي نفسها لا تفقه عنها فتيلا. ذلك أنه يقوم في الوقت الحاضر حوار على مستوى كوكبنا وتحت ظل سماء مشتركة: فالطائرات تحلق فوق اقاصي الجبال بينما اتيحت للبدائيين في الطرف الآخر من العالم فرصة الاستماع الى اجهزة الاذاعة المصغرة (الترانزستور) واستخدام آلات التسجيل الممغنطة ولئن كانت أقل الشعوب تطوراً من الوجهة الفنية تجهل كل شيء عن ثقافة الحضارات المعقدة الغابرة، أو عن الثلاثة آلاف عام من الحضارة الصينية، او عن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

حضارات الشرق الأوسط العظيمة، أو عن التاريخين اليوناني والروماني، من حيث انبثاق العلم الحديث، الا أن انتقال هذه الشعوب من ماضيها الى حاضرنا يجري في فترة زمنية قصيرة للغاية، وقد باتت تقاسم العالم المتحضر، وتتطلع الى كل ما يمكن ان توفره لها التقنية واشكال التنظيم الجديدة والى كل ما يعتمد اليوم كأساس مشترك للاتصال.

اننا نعيش في الحاضر عصر اضطرابات هائلة. فقد تفجرت الامبراطوريات الاستعمارية القديمة، والبلدان التي لم يكن لديها سوى اثني عشر مجازاً جامعياً اصبحت امماً. وبالرغم من اتحادها سياسياً منذ فترة وجيزة فإنها تفرض على العالم ان يسمع صوتها باعتبارها امة من الامم »[١].

فهل نحن امام وضع جديد يحتم علينا ان نواجه في آن واحد كل ما يجري في العالم ؟

ان الانسان وهو في سبيله الى البحث والتعرف على ذاته وعلى قانون الحياة الاجتماعية لجأ الى وسائل الاتصال والى ايجاد الصلات الروحية بينه وبين زملائه البشر، وظلت هذه الطريقة وستظل من اعقل المسائل واقصرها أهمية بالنسبة لهذا التعرف[٢]. ولذلك ينظر الى دور الاتصال في التحديث غالباً على ان له اتجاهاً واحداً. ويعتبر علماء الاتصاف بصفة عامة ان البيانات والاتصالات جزء من البيئة الاساسية في عملية النمو الاقتصادي وكنتيجة لحماس المنتمين الى البلاد النامية للتحولات الجديدة

---

(١) مارجريت هيد : الثقافة والالتزام ــ الهوة بين الأجيال ــ ترجمة خير الدين عبد الصمد، دمشق. وزارة الثقافة ١٩٧٦ م، ص ٩.

(٢) فاليري سيمونيفتش كورنيكوف (مديرة معهد الابحاث الاجتماعية بكلية العلوم بموسكو والتي عنيت في كتبها ومقالاتها بالاتصال الانساني ووسائل الاعلام) التصارع بين وسائل الاعلام في المجتمع الصناعي الحديث في المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية. المصدر السابق. ص ٥٤.

في العالم، تؤدي الى نظام اقتصادي دولي جديد. كما ظهرت الدعوة الى بعث نظام عالمي جديد للاعلام[1]. فلا مجال لانكار وجود اختلال توازن في مجال نقل المادة الاعلامية، ويكفي دليلاً على ذلك ان ٨٠٪ من الأنباء الموزعة يومياً في العالم، تتولى انتاجها وكالات عالمية لا يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة. ويمكن القول بوجه عام ان المعلومات والاتصالات خاضعة لسيطرة وسائل الاتصال الغربية، الأمر الذي يطرح تساؤلاً جوهرياً: « لماذا يصعب على البلاد النامية ان تقبل موقفاً ترى فيه نفسها مجرد « مستهلك » لمادة منتجة (المعلومات) لا تسيطر على صناعتها وتوزيعها، مادة هامة ثقافياً واقتصادياً ان لم تكن أكثر من ذلك؟ وهل في شرعة الانصاف ان ينقسم العالم الى فئة قادرة على اسماع صوتها لأنها تملك الوسيلة الى ذلك، وفئة عاجزة عن ذلك ؟ »[2]. هذا في الحقيقة هو لب قضية « الغزو الفكري ».

الاكتشافات النظرية والدراسات التطبيقية وقضية الاعلام والغزو الفكري.

ومن هذا المنطلق نناقش قضية الاعلام والغزو الفكري، والتي تقوم في جوهرها على ان ثمة فكرة تنشأ في وعي الفرد، ومن خلالها يكون هذا الفرد صورة ذهنية له ولغيره.

وتأسيساً على هذا الفهم، فإننا في دراسة هذه القضية الفكرية، نفيد

---

(١) مصطفى السعودي، المندوب الدائم لتونس لدى اليونسكو سابقاً ووزير الاعلام سابقاً، «النظام الاعلامي الجديد وتطبيقاته في المنطقة العربية » في : قضية التخطيط الاعلامي في الوطن العربي، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ١٣٧.

(٢) د. جيهان رشتي : « تدفق الانباء الاجنبية في الاعلام العربي » ترجمة د. عبد العزيز شرف، في : شؤون عربية، عدد ٦٧ تموز / يوليو ١٩٨٢ م. رمضان ١٤٠٢ هـ، ص ١٨٥.

من الاكتشافات النظرية والدراسات التطبيقية التي ألقت الضوء على جوانب الاتصال، والتي تختلف في مضمونها وديناميتها، وما ينشأ عنها من علاقات. وهناك العديد من الدراسات والتحليلات التي لا نستطيع ذكرها كلها هنا، وان كان باستطاعتنا ان نعتمد على ثلاثة أنماط رئيسة للمنهج الاتصالي :

الأول : التداخل بين الموصل اي الذي ينقل المعلومة والمتلقي، واعتماد احدهما على الآخر.

والثاني : الصلة الدائمة التي تجعل وسائل الاتصال تتحرك الى الامام والى الخلف على الدوام.

والثالث : ان هذه الوسائل جزء من شبكة كبيرة من التلاحم والتداخل لا تكف عن الحركة ابداً.

وبسبب تنوع الأنماط النظرية، رغم أهميتها، فإن الصعوبة الكبرى تمثلت عند التطبيق عندما نريد ان نتتبع قنوات الاتصال المختلفة، وخاصة اذا ما اريد التأثير من خلالها »[1].

ولقد اهتم (فوفلاند) واتباعه بالأثر الذي تحدثه وسائل الاتصال، من حيث مضمونها، ومن حيث خصائص الرسالة التي تبعث بها، اي من حيث صدقها وجاذبيتها والاصل منها ونواحي التعصب فيها .. الخ. وقد تمت دراسة ذلك تحت ظروف معملية خاصة. واصبحت منذ ذلك الوقت تعرف باسم الأثر النعاسي اي ان اثرها يأتي متأخراً على سلوك

---

(١) الفونس سيلرمان (مراسل في كولون، وقد صدرت له عدة مؤلفات بالألمانية والفرنسية والانجليزية حول الناحية الاجتماعية لوسائل الاتصال والفنون). وسائل الاتصال والمجتمع في : المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، المصادر السابق ص ٣٨.

الفرد، وهو الأثر الذي اطلق عليه « فيرتون ١٩٥١ م فيما بعد الأثر العكس اي أنه يعكس ما يتوقع ».

ولقد تمت هذه الدراسات في اعقاب الحرب العالمية الثانية، وللحصول على « معلومات أوفى نستطيع الاعتماد على دراسات برلسون ١٩٥٩.

ولكن هذه الدراسات جميعاً كانت المرجع لكل ما تمت دراسته في ميدان الأثر الاجتماعي لوسائل الاتصال، ومن بينها الدراسات التي تمت في أعوام ١٩٦٦، ١٩٦٨، ١٩٧٣، ١٩٧٧، وهي جميعاً تدين بالكثير لعلوم اخرى عديدة مثل خصائص الانسان، والاقتصاد السياسي، وعلم النفس وعلم اللغة، وعلم الظواهر الباثولوجية وغيرها كثير .. فمثلاً كان لعلم التحليل النفسي الفضل في اجراء تجارب بحثية عديدة، وخاصة في الخصائص النفسية للمعرفة مما كان له اكبر الأثر في تحديد اثر وسائل الاتصال ورسائلها على الفرد. بل وفي كيفية اعداد وبناء الرسالة المستهدفة. وقد ظهر هنا بصفة خاصة عند دراسة أثر التلفزيون على الاطفال والشباب وقد قام به العديد من الباحثين من امثال « هايمان » ١٩٦٤ و « زيريس » ١٩٦٣ و « برنوك » .. « هيرناستورن » ١٩٧٢ بأبحاث قيمة.

وسائل الإعلام في التحليل الوظيفي.

فوسائل الاعلام كظاهرة اجتماعية تخضع في التحليل الوظيفي لدراسة نتائجها وآثارها على المجتمع والفرد والنظم الثقافية، والتحليل الوظيفي كما يذهب الى ذلك « رايت » يهتم بدراسة المهام التي تؤديها اي ظاهرة من الظواهر في النظام الاجتماعي، وتأسيساً على هذا الفهم ينظر

الى وسائل الاعلام كظاهرة مؤثرة في النظام الاجتماعي. ويذهب « رايت الى ان هذا الفهم يقود الى نظرية وظيفية في الاتصال الجماهيري تعالج التساؤل المثار حول النتائج المترتبة على معالجة اوجه النشاط الاتصالية الاساسية بوساطة الاتصال الجماهيري وما هو المقصود بأوجه النشاط الاتصالية[1].

يحدد « لاسويل » ثلاثة مستويات كبرى بالنسبة للمتخصصين في الاتصال أو القائمين عليه على النحو التالي[2] :

١ ــ مراقبة البيئة، أو معاينتها، أو تغطيتها.
٢ ــ الترابط بين أجزاء المجتمع في الاستجابة للبيئة.
٣ ــ نقل التراث الاجتماعي من جيل الى آخر.

وبالتعديل الطفيف لهذه الوظائف الثلاث وباضافة وظيفة رابعة هي الترفيه. يعتقد « رايت » انه يحق تصنيفاً للمهام الاتصالية الكبرى ذات الدلالة هنا فمراقبة البيئة أو تغطيتها تشير الى جمع وتوزيع المعلومات والأخبار المتعلقة بأحداث في البيئة سواء خارج المجتمع ــ اي مجتمع ــ او داخله، ومن ثم فإن هذه الوظيفة تعني في الادراك العام معالجة الأخبار وتفسيرها. ذلك ان فعل الارتباط والترابط يعني تفسير المعلومات والأنباء الخاصة بالبيئة وتوصيف السلوك الذي يحدث كرد فعل لهذه الأحداث[3]، ويعرف هذا العمل أو هذه الوظيفة ــ على المستوى العام ــ بالتحرير الاعلامي. وقد اضاف « رايت » الى نموذج « لاسويل » الذي يقول ان بحوث الاتصال الجماهيري تهتم بدراسة :

---

(١) د. محمود عودة، اساليب الاتصال والتغير الاجتماعي ــ دراسة ميدانية في قرية مصرية، القاهرة، دار المعارف ١٩٧١، ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٣) د. جيهان رشتي « الاسس العلمية لنظريات الاعلام، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٧٥، ص ١٨٥.

من يقول ماذا ؟ لمن ؟ كيف ؟ وبأي تأثير ؟ واضافة « رايت » تتمثل في وجود وظائف ظاهرة ووظائف كامنة، لكل مادة اعلامية، يتم نقلها عن طريق وسائل الاتصال بالجماهير، ويقصد بالوظائف الظاهرة النشاط المتعمد أو النتائج المقصودة، بينما يقصد بالوظائف الكامنة النتائج التي تحدث عن غير قصد، كما يذهب « رايت » الى انه لأي اتصال فوائد ايجابية ونتائج سلبية على النظام الاجتماعي الذي يحدث في اطاره، وعلى الجماعات والأفراد والنظم الثقافية.

نتائج وآثار وسائل الاعلام

وذلك يكون السؤال الأساسي عن نتائج أو آثار وسائل الإعلام كما يطرحه « رايت » هو[1] :

ــ ما هي الوظائف الظاهرة (او الكامنة) للأنباء، والافتتاحيات، أو المقالات، والثقافة، والترفيه، التي يتم نقلها عن طريق وسائل الاعلام، على المجتمع والجماعات الفرعية والافراد والنظم الثقافية ؟.

وبدورنا نعتبر هذا التساؤل « مفتاحاً » لدراسة قضيتنا الأساسية ونعني « الغزو الفكري » في اطار تحليل الاستخدامات المختلفة لوسائل الاعلام، تحليلاً وظيفياً، على اعتبار ان الغزو الفكري هنا يمثل ضرراً وظيفياً، غير مرغوب فيه، ذلك أن التحليل الوظيفي يستهدف معرفة نتائج الظواهر الاجتماعية التي تؤثر على اداء تلك النظم الثقافية لعملها الطبيعي أو تعمل على تكيفها أو ادخال تعديلات معينة عليها.

فالاتصال الجماهيري كعملية اجتماعية يمثل ظاهرة متكررة تعمل وفقاً لنمط معين في كثير من المجتمعات الحديثة، وهو لذلك ملائم للتحليل

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٨

الوظيفي وتأسيساً على هذا الفهم نتساءل : ما هي نتائج الاتصال الذي يتجه الى الفرد والجماعات الفرعية، والنظم الاجتماعية والثقافية على الجمهور الكبير، وهو هنا « الجمهور العربي »، المتنوع والمجهول للقائم بالاتصال ؟

ان هذا التساؤل يجعل موضوع الغزو الفكري اكثر اتساعاً بحيث تصعب معالجته تجريبياً ولكن ذلك لا يحول دون تقديم محاولات بحثية مستمرة، نمهد لها بما تقدمه من « فروض » في دراساتنا التأملية النظرية.

ونذكر هنا ان الباحثين « لازار سفيلد » و « مزنون » قد ذهبا الى أن هناك مبالغات كبيرة في تقدير التأثير الاجتماعي لوسائل الاعلام (كظاهرة) على المجتمعات (كنظم)[1].

على أي أساس اصدار هذا الحكم ؟

من الواضح ان وسائل الاعلام تصل الى جماهير غفيرة « ولكن هذه الاعداد الضخمة التي تتعرض لوسائل الاعلام هي مجرد ارقام تعكس مجرد ما يقدم وما يستهلك ولا تسجل تلك الأرقام تأثير وسائل الاعلام. فهي تقول لنا فقط ما يفعله الناس، ولكنها لا تقول لنا شيئاً عن التأثير السيكولوجي والاجتماعي لوسائل الاعلام. فمعرفتنا بعدد الساعات التي يترك فيها الناس الراديو أو التلفزيون مفتوحاً لا يوفر لنا معلومات عن تأثير ما يقال او يعرض على الناس، فمجرد معرفتنا بالعادة أو المضمون الذي يستهلك في مجال الاعلام، ليس دليلاً على تأثير تلك العادة أو ذلك المضمون على السلوك والاتجاهات والتطلعات ».

(١) د. جيهان رشتي ـــ المصدر السابق، ص ١٨٩.

ومن الواضح كذلك ان « النظرة الى الانسان على انه نظام سلوكي امر بسيط جداً، ولكن التعقيد الظاهر في سلوكه على مدار الزمن هو الى درجة كبيرة انعكاس لتركيب البيئة التي يجد نفسه فيها »، على حد تعبير « هربرت أ. سيمون ».

ومهما يكن من أمر مبررات القلق حول تأثير وسائل الاعلام، فإنه يمكن القول ان التحليل الوظيفي على هذا المستوى يحاول أن يقيس تأثير عملية الاتصال بوجه عام كعملية اجتماعية، معتمداً على التخيل أو التصور الحسي، بحيث يمكن النظر الى هذا التصور على انه فروض يمكن أن تخضع للتجريب بهدف تطوير نظرية اتصال جماهيرية.

وتأسيساً على هذا الفهم، يذهب التحليل الوظيفي لنشر الأخبار ونتائجها المنشودة على مستوى المجتمع، من الناحية الايجابية الى ما يلي :

أ ـــ ان سريان المعلومات وتدفقها يوفر عادة انذارات سريعة عن التهديدات والأخطار التي تقع خارج المجتمع، والأخطار الناجمة عن التغييرات التي تطرأ على الظروف الطبيعية او الاخطار التي تترتب على الهجوم المسلح. تستطيع الجماهير التي يتم تحذيرها في الوقت المناسب ان تتجنب الدمار أو الهلاك وتعبئ نفسها لمواجهة المخاطر. وذلك بالاضافة الى ان وسائل الاعلام توفر المعلومات للجماهير الشعبية (وليس للصفوة فحسب)، فالانذار الذي تقوم به وسائل الاعلام للجماهير يحقق وظيفة اضافية وهي تقوية الشعور بالمساواة بين البشر داخل المجتمع الواحد، مما يتيح لكل فرد فرصة مساوية لتلافي الخطر[١] .

---

(١) مركز الأبحاث : منظمة التحرير الفلسطينية : مقالات في الدعاية الصهيونية وحرب اكتوبر، بيروت ١٩٧٤ م، ص ٦.

وفي هذا الاطار تذهب الى ان هذه الوظيفة الانذارية تحرك ايجابياً العوامل التي تزيد من نشاط المجتمع العربي وتعاونه وترفع من روحه المعنوية في مواجهة الظروف الخارجية والداخلية، فتقوي الروابط بين الافراد والجماعات، ويتيسَّر عندئذ تحقيق التقدم الاجتماعي. فالوظيفة الانذارية لوسائل الاعلام اذن تعمل على دعم العوامل المؤثرة في تماسك الجماعات.

ولذلك يذهب علماء الاجتماع الى ان « مواجهة الكوارث » تعد عاملاً من هذه العوامل المؤثرة في تماسك الجماعات، ذلك ان المجتمع قد يواجه ظروفاً قاسية أو يعتدي عليه أبناء مجتمع آخر فيصاب بكارثة في الأموال والأرواح على نحو ما نعرف عن هزيمة العرب في ١٩٤٨ والغزو الاسرائيلي لسيناء ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧.

ولكن مثل هذه الكوارث لم تفت في عضد المجتمع العربي بل بعثت فيه الشجاعة والاقدام، فلم شمله، وعبأ قواه المعنوية والمادية، ولم يلبث ان واجه العدو الصهيوني بعزم لا يلين وصلابة لا تقهر في حرب اكتوبر تشرين ١٩٧٣. ولا يزال المجتمع العربي وقد تضافر افراده يسعى الى تحرير اراضيه.

ذلك ان حرب ١٩٧٣ قد غيرت من التهيؤ النفسي العربي الذي اصبح اكثر تقبلاً لانتصارات عربية في المستقبل، والتهيؤ النفسي الاسرائيلي الذي اصبح اكثر خوفاً وذعراً من الهزائم الاسرائيلية في المستقبل، بالاضافة الى التغيير الايجابي في البناء النفسي العربي، والتغيير السلبي في البناء النفسي الاسرائيلي[1] .

فالتحليل الوظيفي الاعلامي اذن يذهب الى تأكيد وحدة المصالح

---

(١) د. جيهان رشتي، المصدر السابق، ص ١٩٥.

والأهداف والمصير للمجتمع العربي، الذي انصهرت شعوبه في بوتقة التاريخ الطويل المشترك، والاحداث والمؤتمرات التي تعرض لها جعلت احساس شعوبه بالانتماء الى مجتمع واحد وامة واحدة احساساً قوياً متصلاً على الرغم من تعدد الدول والأقسام السياسية التي تنتمي اليها، تربط بينها مصالح واهداف مشتركة ومصير واحد مشترك. فمطامع الاستعمار والعدو الصهيوني لا تهدد جزءاً واحداً من الوطن العربي وانما تهدد المجتمع العربي بأسره.

ب ــ ان سريان المعلومات وتدفقها عن الظروف المحيطة أمر ضروري كما يذهب الى ذلك التحليل الوظيفي الاعلامي، لتحقيق الاحتياجات اليومية للمؤسسات المختلفة في المجتمع.

والمجتمع العربي بطبيعة تكوينه الجغرافي يتطلب تحقيق هذه الوظيفة الاعلامية على النطاق العربي الكبير، الذي يكون وحدة جغرافية تضم عدداً من الأقطار المتجاورة التي لا يفصلها عن بعضها البعض اي حاجز طبيعي كبير، ولكنها تنفصل عن غيرها من البلاد المجاورة بحواجز طبيعية، فجبال طوروس تفصل بين الحدود الشمالية للوطن العربي وبين تركيا، وجبال زاجروس والخليج العربي يفصلان بين العراق وايران، والمحيط الهندي يحد الوطن العربي من الجنوب الشرقي، بينما الصحراء الكبرى تحده من الجنوب، والبحر المتوسط يحده من جهة الشمال، والمحيط الاطلسي من جهة الغرب.

فالتدفق الاعلامي داخل هذا الوطن العربي، والمتعلق بالبيئة العربية انما يمثل وسيلة لتحقيق الحاجات النظامية اليومية للمجتمع العربي كنشاط السوق والملاحة والمواصلات الجوية والنفط وغير ذلك، لأن بيئة المجتمع العربي قد ادى اتساعها الى وجود تنوع في المناخ ومظاهر السطح والنبات والموارد الطبيعية بين اجزائه، الأمر الذي ادى الى وجود تنوع في الغلات والانتاج والأحوال الاقتصادية بين اجزاء الوطن العربي،

وهذا التنوع يعد عامل قوة ودعم لاقتصاديات الوطن العربي، كما يعد سبباً جوهرياً للتدفق الاعلامي حول شؤونه جميعاً.

النتائج المنشودة على الصعيد الفردي

هناك عدد من الوظائف التي تقوم بالتعريف بالظروف المحيطة على الصعيد الفردي، كذلك، **أولاها** : ان التحذير والمنافع الاخرى التي توفرها الأخبار للمجتمع تخدم الفرد ايضاً ما دامت الرفاهية الشخصية متصلة بالرفاهية الاجتماعية؛ فالفرد لا يستطيع ان يشبع حاجاته الأساسية في الحياة الا باندماجه في جماعة تيسر له ما يريد، فهو عضو في اسرة، وطالب في مدرسة، أو موظف في عمل، ويدين بدين معين، وقد يكون عضواً في واحد من الأندية الرياضية أو في هيئة من الهيئات الثقافية، وهو في كل جماعة من هذه الجماعات يؤدي عملاً معيناً محدوداً، ويعتمد على غيره في اعمال اخرى تكمل الحياة التي ينشدها، كما يعتمد على وسائل الاعلام كمصدر اساسي للمعلومات التي تيسر له تبادل الخدمات. وهكذا يمكننا ان نذهب الى ان هذه الوظيفة الاعلامية تؤدي الى تحقيق التساند الاجتماعي، الأمر الذي يؤدي بدوره الى ترابط الأفراد. وكلما تشعبت الخدمات في المجتمع واتسع تقسيم الأعمال ازداد اعتماد الفرد على وسائل الاعلام في الحصول على المعلومات.

وهنا تتضح **الوظيفة الثانية** للأخبار على الصعيد الفردي، ونذكر في هذا الصدد أن الباحث الأمريكي برنارد برلسون قد استغل اضراب جريدة محلية في مدينة نيويورك لكي يدرس ما افتقدته الجماهيرحينما لم تتلق الجريدة التي ارتبطت بها. وتبين له ان من وظائف الجريدة في تلك المدينة انها مصدر للمعلومات عن الأحداث الروتينية.

والوظيفة الثالثة لنقل الأخبار عن طريق وسائل الاعلام هي « اضفاء الهيبة والمكانة » على الافراد الذين يحاولون ان يعرفوا الأحداث وان

يحاطوا علماً بما يجري حولهم. وما دام المجتمع يرى أنه من الضروري ان يحاط المواطنون علماً بما يحدث، فإن مركز الأفراد الذين يعرفون الاحداث داخل الجماعة يزداد قوة ويصبحون قادة رأي في المجالات القومية أو الدولية.

ومن هنا فإن « بيسانز وبيسانز »[1]. قد عرفا المجتمع بأنه « تنظيم من العلاقات الاجتماعية لجماعة من الناس يسهمون في ثقافة معينة، ويتقاسمون الاحساس بالمشابهة » بمعنى ان الاتصال بين افراد المجتمع وتبادل الأفكار بينهم يجعل التشابه بينهم سائداً في السمات الاجتماعية الاساسية، الأمر الذي يجعل السلوك بينهم قائماً على التوقع المعروف سلفاً. ومن ثم تسير حياتهم في نظام يوفر الطمأنينة للجميع وتبعد عنهم كل مظاهر الفرقة والخلاف. وأما « ماكيفر » فقد عرف المجتمع « نسيج العلاقات الاجتماعية التي تتغير باستمرار ». ويذهب « فلقريدو ــ بارينو » الى ان علم الاجتماع ينظر الى المجتمع ككل مترابط ومتكامل، دينا كانت أو دولة أو عملاً [2].

ويقتضي ذلك من وسائل الاعلام العربية، الاتفاق على سياسة موحدة بشأن اضفاء المكانة على النماذج البشرية التي تثري المجتمع العربي وتدعم بناءه، من خلال تأييد هذه النماذج (أفراداً او منظمات) واما بالنسبة لتطبيق الانماط الاجتماعية فإننا نجد عبارات مثل « قوة الصحافة » أو « السلطة الرابعة » أو « الوهج البراق للدعاية » تشير بطبيعتها الى هذه الوظيفة. ذلك ان وسائل الاعلام قد تبدأ عملاً اجتماعياً منظماً

---

(١) د. زيدان عبد الباقي : وسائل واساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والادارية والاعلامية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٣.

(٢) د. جيهان رشتي، المصدر السابق، ص ١٩٦.

حينما تقوم « بفضح الامور المنافية للاخلاق العامة » ولكن لا يجب ان نفترض ان هذه الوظيفة تنحصر في مجرد جعل هذه الانحرافات معروفة على نطاق واسع. ذلك لأن كشف السلوك المنحرف يؤثر بطرق مختلفة. فالعلانية تغلق الفجوة بين « الاتجاهات الخاصة » و « القيم الاخلاقية العامة » ذلك لأن العلانية تفرض ضغطاً لكي يعتنق الفرد قيماً اخلاقية واحدة غير متناقضة وذلك عن طريق عدم اتاحة الفرصة له لان يتجنب باستمرار مواجهة الموضوع. فالعلانية تجعل الجمهور يعيد (من آن لآخر) تأكيد مناصرته لتطبيق القيم الاخلاقية او الانماط الاجتماعية المقبولة في المجتمع الجماهيري، وقد اصبحت هذه الوظيفة الكشفية، بفضل وسائل الاعلام، عملاً جماهيرياً منظماً وثابتاً كجزء اساس من الثقافة، يتيح للمجتمع ان يتخذ حيال الظواهر غير المرغوبة ما يراه من اجراءات بعد البحث والدراسة، بهدف الحيولة دون تكرارها في المستقبل أو معالجة اسبابها ان امكن.

النتائج غير المنشودة المترتبة على نشر الأخبار

واذا كانت هناك نتائج ينشدها من وراء نشر الأخبار عن طريق وسائل الاعلام، فإن لهذا النشر كذلك نتائج غير مرغوب فيها بالنسبة للمجتمع ولأفراده على السواء، لما تحققه من أضرار تعكس صورة من صور الغزو الفكري .

١ ـــ ان الأنباء غير المراقبة حول التهديدات الخطيرة التي تحيط بالعالم قد تهدد البناء الاجتماعي، فالأنباء التي تتصل بالأديولوجيات والحالة الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات أخرى قد تؤدي الى أن يقارن الناس بين أوضاع هذه المجتمعات والأوضاع التي يعيشون في ظلها، مما قد يؤدي الى توترات تختلف في شدتها ومداها ونتائجها. فمن

التأثيرات المنشودة لوسائل الاعلام ما عرف في الخمسينات بثورة التوقعات التي أدت الى اتساع أفق المجتمعات التقليدية، ولكن أوضاع هذه المجتمعات اقتصادياً كانت تحول دون تحقيق مطالبهم الجديدة، فتحولت الظاهرة المرغوب فيها الى ظاهرة غير مرغوب فيها، لأنها أدت بالمجتمعات التقليدية الى الاحساس بالاحباط وعدم الرضا. ويتضح الغزو الفكري في الأنباء التي تتناول النظم والايديولوجيات غير المرغوب فيها، من تهديدها للتكامل الثقافي في المجتمع.

وهذا التكامل الثقافي يعني ان هناك قدراً من الانسجام الداخلي والارتباط الوظيفي بين عناصر الثقافة المختلفة وبالتالي بين عناصر المجتمع المختلفة يضمن للثقافة عدم انحلالها وعدم وجود هذا التكامل — بسبب الغزو الفكري عن طريق وسائل الاعلام أو غيرها — يسبب اضطراباً للفرد ويفقد المجتمع كفاءته وتظهر انواع من الصراع قد تكون خطيرة لما يترتب عليها من فقدان للتكيف داخل الجماعة.

٢ — ومن آثار الغزو الفكري مثلاً أن يكون هناك نظام ديمقراطي يسود الناحية السياسية بينما تكون هناك اوتوقراطية في الناحية الاقتصادية واقطاع واستغلال في الناحية الزراعية، فهذا المظهر يدل على ان هذه الثقافة لم تمتلك التكامل الثقافي الذي تنشده لنفسها كل ثقافة ترجو الاستقرار والثبات.

وليس معنى التكامل الثقافي ان تظل الثقافة على حال واحدة من الجمود والثبات أو أن يكون هذا التكامل الثقافي تاماً كاملاً. ولكن المقصود من التكامل الثقافي ان تكون هناك درجة معينة من الاتزان بين العناصر المختلفة التي تكوِّنُ الثقافة، ومعناه ايضاً ان الثقافة يمكن ان تمر بعملية تغيير وتحويل نتيجة مرونتها في حين تظل قادرة على مواجهة الغزو الفكري، فالثقافة — أي ثقافة — تمتاز بديناميتها وتتعرض للضغوط

المختلفة وللحاجات المتعددة وبذلك تكون عرضة للتغير، لانها نظام يهدف الى تكيف الافراد والجماعات المختلفة، والأفراد والظروف والجماعات عرضة جميعها للتغير.

وتتحدث روث بنديكت عن النمط الثقافي الذي يسود ثقافة من الثقافات. فعندما نفحص ونقارن طرق السلوك المختلفة التي تكون محتوى ثقافة ما، فإننا نجد ان هذه الثقافة تدور حول مركز معين هو النمط الثقافي، وتقول « بنديكت » :

« .. ان الثقافة كالفرد نظام متسق من التفكير والعمل، ونجد داخل كل ثقافة أهدافاً متميزة ليس من الضروري ان تشترك فيها مع غيرها من المجتمعات الأخرى. وطبقاً لهذه الأهداف يعمل كل شعب على تجميع خبراته حتى تتخذ شيئاً فشيئاً شكلاً متسقاً ».

الغزو الفكري وضرب التكامل الثقافي

وتأسيساً على هذا الفهم، نذهب الى ان الغزو الفكري كنتيجة غير مرغوب فيها للأخبار التي تنشرها وتذيعها وسائل الاعلام يستهدف ضرب التكامل الثقافي وما يتضمنه من افكار وقيم وعادات وانماط سلوكية مختلفة، أو هو بعبارة اخرى يهاجم طريقة الحياة التي تحياها جماعة ما في وقت معين وفي مكان معين وبوسائل اعلامية بعينها. وهذه الطريقة الاحيائية تشمل « المجموع المعقد الذي يشمل المعارف والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعادات التي يكتسبها الانسان كعضو في جماعة »[1].

وحينما يتوسل الغزو الفكري بالأخبار، فإنه يثير الرعب والفزع عن

---

(١) د. ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦، ص ٢٧٥.

طريق التحذيرات غير المفسرة، على المستوى المجتمعي. وعلى المستوى الفردي، قد تؤدي الأخبار المتعلقة بالأخطار التي تهدد البيئة أو المجتمع الى رفع حدة القلق بين الجمهور ــ علماً بأنها ذات وظيفة تحذيرية، ذلك ان الغزو الفكري هنا يتوسل بأساليب الحرب النفسية، في معركة العقل.

وقد ادرك الحلفاء قيمة الأخبار في الحرب النفسية، ولم يكن الألمان اقل منهم اداركاً لخطورتها، فمنذ بداية القرن العشرين، قسمت الدول الكبرى العالم الى ثلاث مناطق اعلامية رئيسية، تحتكر كل دولة من الدول الكبرى منطقة بعينها. وعلى هذا الاساس قامت المانيا ــ عن طريق وكالة وولف ــ باحتكار المجال الاعلامي في النمسا والمجر والدول الاسكندنافية والمانيا، كما احتكرت بريطانيا اخبار جميع امبراطوريتها وبلاد الشرق الأقصى، وكانت وكالة انباء « رويترز » تنهض بأعباء تلك المناطق الشاسعة. أما وكالة انباء هافاس الفرنسية فكانت تهيمن على المنطقة الثالثة التي تشمل فرنسا ومستعمراتها وامريكا الجنوبية بالاضافة الى الولايات المتحدة الأمريكية التي نزعت في بداية الأمر، الى التخصص في اخبار الأمريكتين[1].

وقد فطنت هذه القوى الاوروبية المتحاربة الى خطورة الأخبار في نقل الأفكار والأراء ودورها في الحرب النفسية والغزو الفكري.

نقل الثقافة عن طريق وسائل الاعلام

تقوم وسائل الاعلام بدور هام في عملية التنشئة الاجتماعية المعقدة سواء عن عمد، او بدون قصد. ذلك لأن الفرد يستمد في مختلف فترات حياته بعض الأساليب الاجتماعية من وسائل الاعلام، ويكتسب من

(١) راجع مقدمة ابن خلدون، ص ١٨

خلالها ثقافة جماعته ويسلك سلوكاً يأخذ توقعات الآخرين في اعتباره.

وهكذا يمكننا ان نذهب ــ وفقاً للتحليل الوظيفي ــ الى ان المهام المنشودة من وسائل الاعلام ثقافياً هي : بالنسبة للتعريف بالظروف المحيطة عن طريق نشر الأخبار في وسائل الاعلام، هي :

١ ــ ان تساعد على تحقيق الاتصال الثقافي.
٢ ــ ان تعمل على تطوير الثقافة القومية.

وبالنسبة للمهام الظاهرة والكامنة المنشودة من وراء نشر الافتتاحيات والتفسير والتوجيه، يمكن أن تحقق وسائل الاعلام :

١ ــ عرقلة الغزو الفكري.
٢ ــ المساعدة على تحقيق الاجماع الثقافي والمحافظة عليه.

اما نقل التراث الثقافي بواسطة وسائل الاعلام المنشودة الظاهرة والكامنة، فهناك « قوة » اخرى تؤدي مهام غير مرغوب فيها ظاهرة وكامنة كذلك، بحيث يمكن القول تأسيساً على النظرية التعادلية الحكيمية، ان القوتين هنا تتصارعان. ولا نعني بالتعادل هنا المعنى اللغوي الذي يفيد « التساوي » أو « التوسط في الامور » ولكن نعني به « التقابل ». والقوة المعادلة هنا معناها « القوة المقابلة » والمناهضة، فالوظائف الثقافية المنشودة من وسائل الاعلام ظاهرة وكامنة تمثل « قوة مقابلة » لقوة اخرى « مناهضة » تتمثل في الوظائف غير المرغوب فيها، ذلك ان التعادلية تفسر الحياة الايجابية بأنها ضرورة وجود جملة قوى تتقابل وتتوازن مناهضة بعضها في الكون والمجتمع.

وحينما نتحدث عن « النمو الثقافي » فإننا نعتبره قوة مستقلة حرة في الفكر القومي، يجب أن نعادل بها ونقابل القوة الاخرى « الغزو الثقافي » التي تريد ان تبتلع الفكر القومي، وبذلك يقاوم هذا الفكر ويتحرك ويتقدم. فالتعادلية الوظيفية في التفسير الاعلامي اذن هي مقاومة الابتلاع

الذي يتمثل في الغزو الفكري والوظائف الاعلامية غير المرغوب فيها.

وهذه الوظائف « الابتلاعية » لوسائل الاعلام تتحقق على النحو التالي :

١ ــ المهام غير المرغوب فيها من وراء نشر الاخبار في وسائل الاعلام.

ــ اتاحة الفرصة للغزو الثقافي لكي يبتلع النمو الثقافي.

٢ ــ المهام غير المرغوب فيها (ظاهرة وكامنة) من مواد التفسير والرأي.

ــ عرقلة النمو الثقافي، بما يضعفه « كقوة معادلة » للغزو الفكري.

٣ ــ المهام غير المطلوبة (ظاهرة وكامنة) من نقل التراث الثقافي عن طريق وسائل الاعلام :

ــ انها تقلل من تنوع الثقافات الفرعية.

٤ ــ المهام غير المطلوبة (ظاهرة وكامنة) من وظيفة الترفيه في وسائل الاعلام :

ــ اضعاف النواحي الجمالية.

وهكذا يتضح من التحليل الوظيفي للمضمون الثقافي في وسائل الاعلام ان المهام غير المرغوب فيها (ظاهرة وكامنة) تيسر السبيل أمام الغزو الفكري الذي يتسرب من هذه الوسائل الجماهيرية، ويجري بعضه ــ للاسف ــ اختياراً ودون وعي بأثره الهدام وبعواقبه على البناء الثقافي للفكر القومي والهوية الثقافية، ويتضح ذلك من استعراض بعض البرامج الثقافية والتليفزيونية والاذاعية وبعض الأفلام الأجنبية التي تستورد دون مراعاة لأثرها السلبي وتأثيرها في الغزو الفكري للمجتمع العربي.

ومن أجل ذلك فإن السياسة الاعلامية العربية، يجب أن تركز على مقاومة القوة « الابتلاعية » للغزو الفكري، من خلال التركيز في وسائل الاعلام العربية على تطلعات المجتمع العربي وظروفه وقيمه الفكرية الراسخة، ومن ثم، فقد اصبح من الضروري، وخاصة في المجتمع العربي، ان نضع خطة اعلامية طويلة المدى، تلتزم بها الشعوب العربية، وترسم في ضوء الاحتياجات الاعلامية الاساسية للمجتمع العربي وتحدد اهدافها بما يتلاءم مع خططه الثقافية والتعليمية والاجتماعية وتساعد على تحقيق اهدافها، التي تنبع من خصائص الثقافة العربية ومقوماتها، ثم تحدد هذه الخطة كيفية مواجهة الثقافة العربية الحديثة للعصر، والتأكيد على قدرة هذه الثقافة على اطراد الحياة فيها ونموها.

وفي تقديرنا، ان ما انتهت اليه مؤتمرات جامعة الدول العربية من توصيات ودراسات، يمكن اعتبارها اطاراً علمياً لهذه السياسة الاعلامية المقترحة في مواجهة الغزو الفكري، نذكر من هذه التوصيات، ما انتهى اليه « مؤتمر الاصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة » والذي عقد في القاهرة في ٤ ــ ١١ /١٠ / ١٩٧١.

وتؤكد هذه التوصيات على ما ذهبنا اليه من وراء هذه الدراسة السريعة لوسائل الاعلام والغزو الفكري، فقد جاء في مقدمتها، ان « المجتمع العربي يمر ــ على امتداد الوطن الكبير ــ بمرحلة تغير اجتماعي شامل وينتقل من حالة استقرار نسبي الى حالة تحفل بالحركة والخطر، وتعج بشواهد التغير وما تجلبه من اضطراب فهناك مواجهة بين الأمة العربية واعدائها من الاستعماريين والصهيونية.

التحديات والمواجهة

وهناك تحديات تواجهها هذه الأمة في سعيها الى الانتقال الى مرحلة معاصرة للمجتمع اكثر رقياً .. وهناك ما ينعكس على هذه الأمة من آثار

المواجهة بين الايديولوجيات المختلفة .. وهذا الدور الذي يجب أن تنهض به امتنا بين دول العالم الثالث، وفي وجه تغير عالمي جديد تبدو الآن ملامحه ولا تنعقد فيه زعامة العالم لدولة او اثنتين، بل تصبح امور الدنيا ملكاً لكل الشعوب تصرف امورها وفق ما يراه كل من مصلحة له، مع احترام لغيره من كيان وحقوق. فماذا يكون موقف الثقافة العربية، والفكر العربي من هذا كله ؟

يفيد العرب كثيراً — في هذا الموقف — ان يلجأوا الى فضيلة الاحترام والتماسك التي ظهرت في مواقفهم التاريخية الفاصلة، وان يستندوا الى ركيزة القبول الواعي للتطور وان يستثمروا قدرتهم على التسامح والتعايش والانفتاح وحب الحرية والديمقراطية كي يحددوا لأمتهم مكاناً واضحاً في صورة العالم الجديد دون تفريط في حق من حقوقهم فهم اليوم أشد حرصاً :

— على ربط ثقافتهم ربطاً وثيقاً بقضايا عصرهم ومشكلات واقعهم.

— وعلى اقامة المجتمع العربي الحديث الذي يفيد من التقدم العلمي والتكنولوجي الواسع ولا يهمل، مع ذلك، الروح الانسانية ومطالبها.

— وعلى النظر في حاضرهم ومستقبلهم على هدى من النظرة الواعية العصرية الى تاريخهم وتراثهم، وبعث هذا التراث والتدقيق فيه، واختيار ما يصلح للعصر لنشره.

— وعلى الافادة مما تجلى في تاريخهم الطويل من اصالة وقدرة على استيعاب ثقافات الغير والإضافة اليها، ونفع العالم أجمع بالحفاظ عليها ونقلها الى من يحتاجونها، فهم قادرون على قبول الجديد بعد التمرس به، وتمثله تمثلاً يحقق لهم التناسق بين قوميتهم العربية وانسانيتهم.

ــ وعلى الحرص على لغتهم العربية الفصحى التي هي أداة التفاهم الوحيدة بين العرب »[1].

هذا ما جاء في مقدمة توصيات المؤتمر؛ أما التوصيات فتضمنت التالي :

أولاً : ان يمتد مضمون وسائل الاعلام العربية الى تعميق القيم الروحية والدينية. وان تحرص في تقديم الفكر الديني للجماهير العربية على المزيد من التفتح على القضايا الروحية الكبرى التي تشغل المواطن العربي باسلوب يتفق وثقافة العصر.

ثانياً : الاستفادة من وسائل التكنولوجيا الحديثة في زيادة نشر الكتب المبسطة للطفل العربي ورفع مستوى تعليم اللغة العربية في كليات الاعلام والاهتمام باعداد رجال الاعلام من هذه الناحية اعداداً كاملاً، حتى تسعى وسائل الاعلام الى ان تكون لغتها جميعاً : هي العربية الفصحى المشتركة.

ثالثاً : العناية بالتراث الشعبي الفني والرسمي : عن طريق المزاوجة بينهما في البرامج الاعلامية كلما امكن ذلك، وان تعنى وسائل الاعلام بالفنون التشكيلية الى جانب الفنون القولية وفنون الاداء.

رابعاً : الاهتمام في المضمون الاعلامي بالمواقف المشتركة التي تميز الشخصية العربية المعاصرة واظهارها واضحة، استناداً الى التاريخ العربي الصحيح الذي يجب تنقيته من الشوائب التي دسها فيه المغرضون.

خامساً : الاهتمام بتقديم النشاط العلمي في وسائل الاعلام العربية، واظهار مساهمات العلماء العرب في البحث العلمي الحديث.

سادساً : عدم تقديم مادة اعلامية تتعارض مع القيم العربية والاسلامية

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : مؤتمر الاصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة : القاهرة ٤ ــ ١٩٧١/١٠/١١، ص ٥٤.

ويقتضي ذلك تنفيذ توصية مؤتمر الاصالة والتجديد حول دراسة التقاليد والعادات الاجتماعية واظهار الجوانب الصالحة المشتركة التي تميز الشخصية العربية المعاصرة.

سابعاً : الاهتمام بالمضمون الاعلامي بنشاط المثقفين العرب في مجال التأليف الأدبي والعلمي والانتاج الفني.

ثامناً : تنفيذ توصيات مؤتمر الوحدة والتنُّوع في الثقافة العربية والتي تضمنت[1] :

١ ــ استعمال اللغة العربية الفصحى في الأعمال المسرحية حتى نتمكن من الرقي بذوق المشاهدين من جانب، وحتى نستطيع مخاطبتهم في انحاء الوطن العربي كله على اختلاف لهجاتهم العامة من الجانب الآخر.

ونضيف الى ذلك ان على وسائل الاعلام الا تقدم من الأعمال المسرحية الا ما كان منها مكتوباً بالفصحى توخياً لارتباط هذه الأعمال بالافق القومي الشامل للامة العربية.

٢ ــ الاهتمام بالمضمون القومي للأعمال المسرحية (والتمثيليات) التي تقدم في وسائل الاعلام بصفة خاصة واستلهام التاريخ العربي الاسلامي، ومعالجة المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع العربي المعاصر، والمشاركة من جانب كتَّاب المسرح والاذاعة والتلفزيون بجهودهم وابداعهم الفني في دعم الأمة العربية في معاركها المصيرية في فلسطين وغيرها.

---

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : مؤتمر الوحدة والتنوع، القاهرة ١١/٦.

٣ ـــ دعوة كتّاب الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح الى دراسة التقاليد المحلية والتراث القومي والمأثورات الشعبية التي قد تمد هذه الوسائل الاعلامية بأشكال مسرحية وتمثيلية جديدة لها اصالة عربية متميزة تزيد من تأصيل الفن الدرامي في الثقافة العربية الممتدة عبر العصور.

٤ ـــ دعوة اتحاد اذاعات الدول العربية الى دراسة موضوع انشاء محطة اذاعية عربية قوية تعمل على نشر الذوق العربي الأصيل في الفنون الاذاعية وعلى رأسها الموسيقى والغناء.

٥ ـــ دعوة اجهزة الخدمات الاذاعية والتلفزيونية العربية الى انتاج الأعمال الموسيقية والغنائية العربية الأصيلة كالمقامات العراقية والقدود الحلبية والأناشيد التي تلهب الحماس الوطني واتاحة الفرصة لتطور الموسيقى العربية والغناء العربي على ايدي الموسيقيين الدارسين للأصول العلمية للموسيقى العربية.

٦ ـــ اقامة ضوابط على الاغنية العربية (وبخاصة في وسائل الاتصال) من الناحية الخلقية والقومية.

٧ ـــ ان يكون من بين وسائل تدعيم القيم العربية القومية عن طريق الاذاعة والتلفزيون العمل على نشر التراث العربي الصالح وتقريبه الى وجدان المتلقي العربي واستخدام كل الوسائل الفنية التي تجعل من التراث مادة ملائمة للعرض الاذاعي والتلفزيوني.

٨ ـــ تشجيع تبادل المواد الاذاعية والخبرات بين الاذاعات العربية المختلفة لتدعيم التيار الثقافي القومي بين العاملين في البرامج الاذاعية وبين جماهير المتلقين في الوطن العربي.

٩ ـــ وضع معايير واضحة لاستخدام المواد الاجنبية في الاذاعات

العربية وبخاصة التلفزيونية منها حتى لا تقدم الى الجماهير العربية مواد تحمل فيما تتعارض مع القيم الأصيلة للحضارة العربية والاسلامية.

١٠ ــ تشجيع المبادرات والدراسات المختلفة التي بدأت من أجل ربط الشبكات التلفزيونية العربية عن طريق الأقمار الصناعية لخلق وحدة تلفزيونية عربية يمكن أن تساعد على الربط الثقافي القومي، والتعاون في هذا الشأن مع اتحاد اذاعات الدول العربية والاتحاد العربي للمواصلات اللاسلكية ». انتهت التوصيات.

وبعد .. فهذا جميعاً، لا يمثل الا مجرد فروض، يطرحها الكاتب على المعنيين بأمور الفكر العربي، ووسائل الاعلام، لا يدعي فيها انه ناقش كل جوانبها، فجل من لا يخطئ، تحيزاً أو قصوراً في عالم البشر.

الباب الثاني

الاسلام .. والغزو الفكري



الاسلام والغزو الفكري

(١)

نتحدث عن غد الاسلام هنا في هذا المقال :

١ ــ لأنه التاريخ المفتوح الممتد، فلم يعد الزمان مفصولاً الى : ماض وحاضر ومستقبل، بل هو تطور متصل، يكمل غده حاضره وماضيه على مرور الايام، والحياة وحدة متصلة فروعها من جذورها الضاربة في أعماق الماضي البعيد ..

٢ ــ ونتحدث عنه لأنه الزمن الذي سيحياه أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا، ممن نريد لهم حظاً أسعد من حظنا.

٣ ــ ولأن الانسان كلما ضاقت به الهموم، وأحاطت به المحن، وادركه الملل من واقع سيِّئ تمنى الخروج منه الى غد افضل.

٤ ــ ولأن تخطيط الانسان المفكر للغد ــ بقدر استطاعته ــ أمر ممكن، والأمم الكبيرة تخطط للمستقبل، وترسم الصورة التقريبية له. وفي الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ». ومن أجل ذلك قامت وزارات للتخطيط في معظم

الدول اليوم، وعندما أصدرت الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود[1] في فلسطين كانت تعني ما تقول وتريده، وتعرف الصورة التي سوف تؤول اليها حالة الشرق العربي بعد صدور هذا الوعد، وبدء العمل من أجل تنفيذه في ظل الانتداب الانجليزي المشئوم على ارض فلسطين العربية المسلمة، وهي الصورة التي نراها اليوم، صورة العدوان والقتل والتشريد والجوع، وحياة اللاجئين والخيام السوداء، صورة اضطراب حياة المسلمين المعاصرين، حتى لم يعودوا يعرفون شيئاً غير حاضرهم الذي يعيشونه، ولا يفكرون في امر سواه، ولا يتدبرون امر غدهم المرتقب، وقد سأل صحفي أجنبي شخصية عربية كبيرة عن صورة الحياة العربية التي سوف يحياها العرب في نهايات القرن العشرين كما يتخيلها، فكان جوابه : لا أعرف فلقد عشنا نحو عشرين عاماً في مشكلات وأزمات ومجابهة قاسية للأحداث مما لم نعد ننظر معه الى شيء آخر[2]. وسئل كاتب عن توقعاته للعالم العربي في السبعينات، فأجاب : لا أدري لأن الأحداث تعقدت وتشابكت، بشكل يتجاوز قدرة العقل البشري المجرد[3].

٥ ــ ونتحدث عن الغد كذلك، لأننا نحلم، ولا نزال نحلم باليوم الذي نرى الاسلام فيه يتولى القيادة في عالمنا المضطرب المشئوم، ونرى المسلمين وقد عاد لهم ماضيهم المشرق العظيم، ماضي امة كانت تخفق اعلامها في الشرق والغرب، وتسير جيوشها المظفرة من نصر الى نصر، أمة كانت لها السيادة، والكلمة النافذة، في الأرض، فالشمس لا تغيب عن ارضها والسماء مملوءة بألويتها، ويجلس أحد خلفائها، وهو هارون الرشيد في قصره في بغداد عاصمة الاسلام، دار السلام، ثم يرنو الى

---

(١) ١٢ ــ ١٩ فلسطين في ضوء الحق والعدل ــ هنري كتن ــ تعريب وديع فلسطين.

(٢) جريدة السياسة الكويتية عدد الخميس ١٩٧٠/١٠/٢٢ م.

(٣) مجلة النهضة الكويتية عدد الخميس ١٩٧٠/١١/١٤ م.

الأفق، فيرى غمامة تسير في السماء، فيناجيها في عزة المؤمن، وجلال المسلم : « اذهبي فأمطري أين شئت فسوف تأتيني خراجي »[1].

لذلك كله نتحدث عن الغد، غد الاسلام.

(٢)

وتبدل الحاضر الى غد افضل، ليس بالأمر البعيد عن حدود الأمكان وليس بالشيء الذي تعجز عنه قدرة الانسان.

إنه ممكن، ممكن باذن الله، بالعقيدة المؤمنة الصامدة، بالايمان الصادق الوثيق، بالعمل القوي المحكم الدقيق، بالاخلاص والتعاون والحب العميق، بكل خصائص الاسلام وأخلاق الاسلام.

وأمامنا المثل من التاريخ، تاريخنا المجيد العريق.

لقد كان جهاد الرسول الأعظم وأصحابه، من أجل غد الاسلام، عملاً رائعاً عظيماً، لم يحدث مثله في التاريخ، كان معجزة كبرى لم تشهد الانسانية لها نظير، ومع ان الرسول ــ ﷺ ــ كان فرداً، وكان أصحابه قلة صغيرة مؤمنة وعزلا من السلاح، فلقد قاوموا غرور القوة، وغطرسة السيطرة، وجبروت الوثنية وانتصروا، فأسسوا للاسلام دولة فتية قوية مكافحة مجاهدة في سبيل الله، ومع أن هذه الدولة الصغيرة لم تكن تملك السلطان ولا المال ولا السلاح، ولا سبباً من أسباب الحضارة فقد اخذت تنازل أعرق وأقوى امبراطوريتين في العالم آنذاك : الفارسية من الشرق، والرومانية الممتدة في الشمال والغرب الى حيث شاء الله ..

(١) ٢٧٠/٢ صبح الاعشى.

وانتصر المسلمون في معركتهم مع الامبراطورية الفارسية انتصاراً مذهلاً ساحقاً، حيث كانت بلادها امتداداً للجزيرة العربية، ومن قارتها نفسها، ولا حواجز كبرى تفصل بين العرب والفرس[1].

وانتصروا كذلك في معاركهم الكبيرة العديدة مع الامبراطورية الرومانية، وهزموها في كل مكان من أملاكها الواسعة : في الشام ومصر وافريقيا، وفي جزر البحر الأبيض المتوسط أو الرومي، ثم نازلوها في سهول الأناضول، ووقفوا في مواجهة عاصمتهم القسطنطينية على شواطئ البوسفور، ولم يعقهم البحر، فقاد قوادهم الأساطيل الى الدردنيل، لتكمل حلقة الحصار على العاصمة الخائفة المذعورة، ووقفت امامهم قوة الرومان البحرية الضخمة العتيدة، فكانت عاملاً فعالاً في تأخير الفتح، وتعويق الزحف وارجاء النصر. وظلت بيزنطة تعيش دولة بلا امبراطورية، وشعباً يتملكه القلق على مصيره قروناً طوالاً، يعتمد على أسطوله البحري، وتجتمع حوله اوروبا المسيحية المذعورة من الاسلام، ويكيد للاسلام والمسلمين ما شاء له الكيد والتعصب الذميم، ويخطط للمؤامرات الجسام في بلاد الاسلام ما استطاع الى ذلك سبيلاً .. ونحن نعرف أنه كان أحد القوى الكبرى المحركة للأحداث في الحروب الصليبية، وكان وراء التتار يهلل لهم ويؤازرهم، ويزين لهم صنع ما صنعوا من تدمير في العالم الاسلامي[2]. وحسبنا دليل على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمينية المسيحي كان العامل الرئيسي في اقناع مانجو خان (٦٤٦ ـ ٦٥٥ هـ) بارسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م)، وأن هولاكو التتري زوج ابنه

---

(١) علق المسلمون بعد الفتح تاج كسرى على الكعبة ـ ٧٤ صلات بين العرب والفرس والترك.

(٢) ص ٢٥٢ الدعوة الى الاسلام ـ أرنولد وتوماس ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ـ وراجع : المغول بين المسيحية والاسلام ومغول ايران وهما لطه مصطفى بدر.

من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحي[1]. ومع ذلك فقد أكمل المسلمون الحلقة، ودخلوا أوربا من الجنوب الغربي، وعاشوا في الأندلس ثمانية قرون، وهي اطول مدة عاشها شعب فاتح في بلاد بعيدة. ثم مدوا هيمنتهم الى جنوبي ايطاليا حتى بلغوا ضواحي روما ولم يرجعوا عنها الا بعد ان وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع الجزية لهم[2]، ومدوا كذلك سلطانهم الى جنوب وغرب فرنسا، ووقفوا تجاه باريس، وعند قرية « بواتييه »، هُزِمَ القائد العربي المسلم، عبد الرحمن الغافقي وجيشه فقتل في أرض المعركة، وتقهقر الجيش الفاتح عائداً الى معاقله في أرض الأندلس، وذلك في السابع من شعبان عام ١١٤ هـ ــ الثاني من أكتوبر ٧٣٢ م، وتأخر بهذه الهزيمة الفتح الاسلامي لأوروبا من الغرب، كما تأخر الفتح من الشرق لقلب اوربا المسيحية التي كانت تعيش في الظلام.

ويعلق مفكر فرنسي على نتائج معركة بواتييه، التي كانت تسمى بلاط الشهداء، وهو مسيو كلود فارير، فيقول : « كانت فاجعة من أشأم الأحداث التي نكبت بها الانسانية في القرون الوسطى. وكان من آثارها ان غمرت العالم الغربي موجة من التوحش، لم تبدأ بالتبدد الا في عهد النهضة، هذه الفاجعة، التي اريد أن أمقت ذكراها، هي هذا الانتصار البغيض، الذي ظفر به أولئك البرابرة من الافرنج بقيادة شارل مارتل، ففي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو انقذها الاسلام » ..

ويقول الفيلسوف الألماني نيتشه : « حرمتنا المسيحية من خيرات

---

(١) ٢٦٠ المرجع نفسه.

(٢) راجع : حضارة العرب لغوستاف لوبون، والمسلمون في صقلية وجنوبي ايطاليا لاحمد توفيق المدني، والمسلمون في صقلية تأليف ماريو مورينو ــ طبع بيروت.

العبقرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام، لقد داست بالأقدام تلك المدنية العظيمة مدنية الأندلس العربية، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ان تلك المدنية الاسلامية لم تنكر الحياة، ولقد قاتلها الصليبيون وكان أولى بهم أن يسجدوا لها. وما مدنيتنا في هذا القرن الا وانية بجانب مدنية الاسلام » ..

ولم يستأنف الاسلام بعد ذلك مسيرته الكبرى في قلب اوربا الا على يدي السلطان المسلم محمد الفاتح العثماني، الذي احتل القسطنطينية ودك حصونها في اليوم الثلاثين من مايو عام ١٤٥٣ م — ٨٥٧ هـ، ودخلها من باب القديس رومانوس، ممتطياً صهوة جواده في موكب جليل، وسار الى كنيسة سانت صوفيا، فأذن من فوق قبابها للصلاة، وصارت مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الاسلام، وقتل يومئذ الامبراطور قسطنطين، وحاول البابا بيوس الثاني أن يجمع شمل اوربا لقتال المسلمين وطردهم من المدينة، ولكنه فشل في ذلك، وساد الذعر يومئذ شعوب المسيحية جميعاً، ووقفت أمام الاسلام وجهاً لوجه، تعمل بكل طاقاتها لتحسر موجته العالية عنها دون جدوى.

لم يكن اذا من المحال تبدل الحال، حال العرب، بالاسلام، وعلى يدي صاحب الرسالة الأعظم وأيدي خلفائه المجاهدين الصادقين، وكذلك لن يكون تبدل حال المسلمين المعاصرين بالاسلام أمراً عسير الامكان مرة اخرى .. وقد نسرف في اليأس، ونخلد الى الكسل، ونقول : ان ما حدث بالأمس لا يمكن أن يحدث مثله في يوم من الأيام، واقول : كلا ثم كلا، فما حدث كان معجزة للاسلام، والاسلام باق ابداً الى قيام الساعة، وليس من العجيب وقد انبعث مرة أن ينتفض ويستيقظ مرة اخرى غداً أو بعد غد باذن الله.

كان الامام محمد عبده في ظلمات اليأس القاتلة، وهو يرى بلاده المسلمة تحتلها أعظم دولة، وأكبر قوة في عصره، يقول لجمال الدين

الأفغاني : أيها السيد، أرى أن تترك السياسة، وتذهب الى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ونختار من هذه الأمة عشرة غلمان — أي طلاب — فنربيهم على منهجنا، ونوجه وجوههم مقصدنا، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين، لا يمضي بضع سنين الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح، ومن هؤلاء يرجى الفلاح ..

ومغزى كلام الامام أن للتربية الاسلامية طاقتها الكبرى على العمل، من أجل استعادة هذا المجد العريق، ومن أجل الغد المشرق والمستقبل المأمول، وهو ما كرر الدعوة اليه كاتب اسلامي مشهور، هو محمد فريد وجدي، في كتابه « الاسلام في عصر العلم »[1]، وهو عملكم أنتم يا رجال الجامعات الاسلامية في كل مكان من أنحاء الوطن الاسلامي الكبير.

تبدل الحال اذا ممكن بالاسلام، بالاسلام وحده، وتقرير اليقين بامكان الوصول اليه في نفس كل مسلم واجب شرعاً، واليأس من بلوغه كفر بالله، وبالدين الحق، الاسلام، دين القيمة.

---

(١) راجع : الله والعلم الحديث — والقرآن والعلم الحديث، والاسلام والعلم الحديث — والمسلمون والعلم الحديث.. وهي كلها لعبد الرازق نوفل. وكتاب « الانسان ليس وحيداً، تأليف كريس موريسون رئيس أكاديمية العلوم بأمريكا ترجمة محمود صالح الفلكي وهو مطبوع بعنوان « العلم يدعو الى الايمان ». وكتاب « الله يتجلى في عصر العلم » لجون كلوفر، ترجمة الدمرداش سرحان و « الدين والعقل » لسليمان دنيا — و « ايات الله في الافاق » لمحمد احمد العدوي. و « العودة الى الايمان » لهنري لنك ترجمة ثروت عكاشة — و « العقل والدين » لوليم جيمس — و « قضية الالوهية بين الدين والفلسفة »، « الله ذاتا وموضوعا »، و « الله والانسان » لعبد الكريم الخطيب وله كتاب اخر بعنوان « التعريف بالاسلام ». وكتاب « كبرى اليقينيات : وجود الخالق ووظيفة المخلوق » لمحمد سعيد رمضان وكتاب « في سنن الله الكونية » لمحمد احمد الغمراوي. وكتاب « الدين في نظر العقل الصحيح » لمحمد توفيق صدقي — و « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » لمصطفى صبري — و « مع الله في السماء » لأحمد زكي — و « الله » للعقاد.

يقول اقبال شاعر الاسلام في العصر الحديث :

« انك أيها المسلم في العالم كله حق وحدك، وما عداك سراب خادع، ووهم باطل. ان ايمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما سواه في هذا العالم المادي وهم وطلسم ومجاز .. ».

ويقول سارتون[1] المستشرق الأمريكي :

« ان شعوب الشرق الأوسط قد قادت العالم في حقبتين طويلتين أولاهما قبل ايام اليونان طوال الفي سنة، وثانيتهما في العصور الوسطى — يريد عصر حضارة الاسلام — مدة أربعة قرون على الأقل، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد.. ».

(٣)

اذن كيف نصل الى الغد المنشود، الغد الذي نريده ونحلم به ؟

نقول : كان ماضي الاسلام يقوم على العقيدة الآلهية المحمدية يحملها في جوانحهم مسلمون مؤمنون يصنعون المعجزات بإيمانهم.

أما حاضر الاسلام اليوم فلا يقوم على أساس، مسلمون! ولكن أين العقيدة ؟ وعرب! ولكن اين الايمان، وكان العرب في بدء شروق الاسلام مثلنا اليوم، ولذلك قال الله عز وجل فيهم: ﴿ **قالت الاعراب : آمنا، قل : لم تؤمنوا، ولكن قولوا : أسلمنا، ولما يدخل الايمان في**

(١) ٦٩ الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط لسارتون — ترجمة عمر فروخ، طبع بيروت ١٩٥٢.

قلوبكم﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ : « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء ».

ان الغد الذي نريده لا يمكن أن يكون غداً آخر مقطوع الصلة بماضينا، لأن ذلك محال، يأباه ديننا وتراثنا وتاريخنا وفكرنا من جانب، ومحال الوصول عن طريقه الى أهدافنا وغاياتنا من جانب آخر، وفيه ما فيه من تفريق جهود المسلمين ودخولهم في دائرة التبدد بالصراع الطبقي والحرب الاجتماعية بين الناس من جانب ثالث. وقد فشلت ولا تزال تفشل كل المحاولات لبناء غد للاسلام يرتكز على أصول غير اسلامية، ومن الوثنية والعلمانية والمادية الالحادية والوجودية وغيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم.

ولا يوصي مفكرو الاسلام وعلماؤه شعوبهم اليوم الا بشيء واحد في مقدورهم أن يفعلوه، وهو سبيلهم الوحيد الى النجاح لو فعلوه، ذلك هو عودة اليقظة الاسلامية من جديد، تسير بها على ضوء البعث الاسلامي العظيم، الذي صنعناه من قبل، وصنعنا به أعظم حضارة في اعظم حقب التاريخ، الى ما تنشده من غايات رفيعة في الحياة والعيش[2]، وذلك كان محور دعوات أئمة الاسلام وأعلامه في العصر الحديث :

محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية.
محمد عبده والأفغاني وتلاميذهما في مصر.
المهدي الكبير في السودان.
محمد بن علي السنوسي في ليبيا.
عبد القادر الجزائري وابن باديس والبشير الابراهيمي ومالك بن نبي في الجزائر.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.
(٢) راجع. الاسلام في مفترق الطرق لاحمد عروة.

الشوكاني في اليمن.
احمد خان ومحمد علي واقبال في الهند وباكستان.
يعقوب بك في الصين في اوائل القرن العشرين.
مصطفى صبري وزاهد الكوثري في تركيا.
الشيخ شامل في القوقاز.

الكواكبي في سوريا، وكتابه « ام القرى » يرمز الى ضرورة عودة البعث الاسلامي، الذي يستمد مقوماته، من الاسلام والقرآن والدعوة التي أذن بها محمد رسول الله صلوات الله عليه في شعاب مكة، وبلغها الناس كافة ..

طريقنا الى هذا الغد المنشود اذا انما يكمن في الجهاد من أجل تربية اسلامية حقة، يقوم عليها جيل جديد، يسير على بصيرة من الأمر الى فجر النور، الى كبد الحقيقة، الى سنا الأمل، الى مشرق البعث، الذي يود نحو السبعمائة مليون مسلم[1] في شتى انحاء العالم، ان يبصروا في ضوئه طريقهم الى السلام والرفاهية والمجد والعزة والسيادة في الأرض، فالبعث الروحي هو منطلقنا الى الحياة والمجد، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما كان الامام مالك يقول.

(٤)

وما أحب الى نفوسنا ان يعود المسلمون بالاسلام الى قيادة وتوجيه حياتهم بخاصة، والى قيادة وتوجيه الحياة بعامة.

---

(١) منهم نحو مائتي مليون في افريقيا، ونحو خمسمائة مليون في آسيا، ونحو عشرين مليون في اوربا وامريكا، وهو عدد ضخم وهائل، وفي امكانهم ان يصنعوا المعجزات .. ويقدر العقاد عدد المسلمين اليوم بأقل من هذا التقدير (٤٦ ــ ٤٨ ما يقال عن الاسلام) .. وعدد سكان العالم كما قدره الخبراء في عام ١٩٨٩ يبلغ ٣٥٥٢ مليونا، فالمسلمون نحو خمس سكان العالم على هذا التقدير.

والاسلام تلقيناه عن الرسول، عن رب العزة، ونطق به كتاب كريم، ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1].

وهو في أصوله الكبرى دين الأنبياء من قبل، وشريعة التوحيد، التي وصى الله بها أنبياءه ورسله : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا اليك وما وصى به ابراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه**[2] .. ﴾ .

﴿ **ووصى بها ابراهيم نبيه، ويعقوب، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون * أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت، اذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك، ابراهيم واسماعيل واسحاق، الها واحدا، ونحن له مسلمون** ﴾[3].

الاسلام شريعة الله التي ارتضاها لخلقه، واصطفاها لعباده

ــ ﴿ **ان الدين عند الله الاسلام** ﴾[4].

ــ ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾.[5]

ــ ﴿ **أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون** ﴾[6].

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.

(٢) سورة الشورى الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة الآيتان ١٣٢ و١٣٣.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٥) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٣.

هذه الشريعة[1] هي أساس سعادة العباد في الدنيا والآخرة وسبب أمنهم وطمأنينتهم يقول الله عز وجل : ﴿ **ان الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا** ــ اي على الطريق وهو دين الاسلام ــ **تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾[2].

والشريعة في الأصل : مورد الماء العذب الصافي النمير، وهي كذلك الطريق اللاحب، والدين الحق الذي يجب على العقل التزامه والعمل به والسير عليه بالقلب أو بالجوارح، فيستوي فيها ما يتصل بالعقيدة وما يتصل بالسلوك، وما يتصل بالعمل، فلا يعد الانسان مسلماً الا اذا امتثل أمر الله في هذه الجوانب جميعاً وشرع الله ودينه القديم شامل لكل توجيه الهي حكيم في هذه النواحي الثلاث.

ويخطئ المبطلون الذين يزعمون أن الشريعة قاصرة على الأحكام التي تنظم العلاقة بين العبد وربه فحسب[3]، مما هو وحده، في زعمهم الباطل، مجال التشريع السماوي. ويقولون : ان الأحكام التي تشرع لبيان علاقة الانسان ليست من الشريعة في شيء، ومردها الى ولي الأمر الشرعي، وهم في ذلك يهرفون بما لا يعرفون.

ان الاسلام يجمع كل ما يدخل في باب العقيدة والسلوك وباب العمل، مما يؤديه المسلم تقرباً الى الله والصلاة والصيام، أو تبادلاً لمنافع

---

(١) راجع كتاب : ــ نظام الاسلام في العقيدة والعبادة لمحمد المبارك.
ــ الدين الاسلامي في الأصول والعقائد لمحمد علي.
ــ الاسلام عقيدة وشريعة لشلتوت.
ــ العقيدة والشريعة في الاسلام لزيهر ترجمة النجار ومحمد يوسف موسى.
ــ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين لمحمد الغزالي.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٠.

(٣) راجع : ــ الاسلام واصول الحكم. علي عبد الرازق.
ــ منهاج الاسلام في الحكم لمحمد اسد، ترجمة منصور محمد.

بينه وبين الناس كالبيع والشركة والرهن والمزارعة والمضاربة.

وهؤلاء الذين يدعون الى عزلة الاسلام عن الحياة والدولة وواقع الناس، إنما يريدون ان يسير الاسلام الى ما صارت اليه المسيحية، اذ أصبحت امراً يخص الانسان وحده ولا صلة لها بشئون المجتمع أو الدولة .. وهم ولا ريب مدفوعون الى شعاراتهم الباطلة بأيدي أعداء الاسلام من الصليبيين والصهيونيين والشيوعيين ؛ ولهم الخسران والضلال البعيد وبئس شعارهم الذي رددوه، دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وهو أكثر الشعارات بهتاناً وافتراء وتآمراً على الاسلام.

وكيف يصح قولهم هذا والله عز وجل يقول[1] : ﴿ **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، انما أمرهم الى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * من جاء بالحسنة فله عشراً مثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها، وهم لا يظلمون * قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين** ﴾.

ليس الاسلام كالمسيحية ولا غيرها من الأديان، دين رهبنة فحسب، انه حركة اجتماعية دائبة تشمل الاعتقاد والاخلاق والدولة والنظم الاجتماعية، يقول العقاد[2] : « لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة.بين ما لله وما لقيصر، لأن الأمر في الاسلام كله لله، بل لله الأمر جميعاً ».

وأقول : انه على شعارهم الباطل لا يكون هناك معنى لأن يأمر الله عباده بالأمانة وتحمل المسئولية والصدق في المعاملة وبالحفاظ على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم ولا لأن يبيح الله البيع ويحرم الربا، ولا

---

(١) سورة الانعام الآيات ١٥٩ ــ ١٦٣.

(٢) ٢٧ الاسلام في القرن العشرين ــ ط ١٩٥٤.

لأن يلزمنا بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .. والتوحيد هو مع ذلك الدعامة الكبرى للاسلام، يقول محمد فريد وجدي[1] :

« الاسلام ان تسلم وجهك لله، مجرداً نفسك عن علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها، الفقر شعارك والخشوع دثارك، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك، متجرداً له، كيوم ولدتك امك، على الفطرة، لتحقق عبوديتك ... »

هذا هو الاسلام، الدين الذي عاش في ظلاله أسلافنا وسارت تحت لوائه ايامنا واجيالنا، وشهدت حضاراته وانتصاراته ارضنا وسماؤنا : وكان منه ماضينا ومن خيوطه نسج حاضرنا، وفي ظلاله سوف يعيش غد لنا ولن يعيش الا في ظله، ولن نحيا الا بالعودة اليه. وصبغ حياتنا كلها بصبغته.

ولسوف يصنع هذا الغد الوضاء المسلم الحقيقي، المسلم الذي وصفه اقبال بأنه مطلع فجر السعادة في العالم ومؤذن الصباح في الليل المظلم، ومصدر التطور الصالح في التاريخ، حتى يشرق العالم بالنور، ويستيقظ الكون من سباته بالبعث.

المسلم الذي هو معجزة الله في الكون، وصورة الكمال في الوجود، الذي وعده الله بأن يستخلفه في الأرض لأنه زكى روحه بالايمان، وطهر نفسه بالعمل الصالح ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾[2].

---

(١) ٢ : ٣٥٦ الاسلام في عصر العلم.

(٢) سورة النور الآية ٥٥.

وهو الذي سينتصر في الحياة، وسيملك وحده زمام القيادة في العالم، ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[1].

يقول العقاد[2] « اذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به فلا خطر عليه من اقوياء اليوم، ولا من أقوياء الغد المجهول .. »

واقول للعقاد : ليس هناك خطر على الاسلام في يوم من الأيام حتى في عصر سيطرة الغرب وجبروته.

وأقول له كذلك : انه اذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به فإن الصورة التي سنراها في الحياة يومئذ هي عودة الاسلام الى قيادة العالم، وتملك زمام البشر مرة اخرى. لأنه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته، ولا قوة أشد بأساً من قوته. وهذا مرهون بعودة المؤمن الحقيقي الى ساحة النضال من أجل رسالة الاسلام، والمؤمن الذي سوف ينهض العالم على يديه.

يقول الندوي[3] : لا ينهض الاسلام الا برسالته والايمان بها، والاستماتة في سبيلها وهي رسالة واضحة لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية.

ويقول مؤلف كتاب « واجب المسلمين في نشر الاسلام »[4]. لا علاج الا في الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله، وان يقوم كل مسلم بما يستطيع لتحقيق هذه الغاية.

ان الذي وقف في معارك الاسلام الكبرى مؤمناً صامداً صابراً مناضلاً

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧.

(٢) ١٧٩ الاسلام في القرن العشرين ــ ط ١٩٥٤.

(٣) كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

(٤) ص ٩ واجب المسلمين للعلامة زيد بن فياض.

من أجل الحق ودين القيمة ورسالة السماء إنما هو المسلم الحقيقي، وكان هو ومن ماثله النماذج البشرية الرفيعة في تاريخ الانسان والحضارة، وهم الذين روعوا هرقل وفزعوه في حروبهم في الشمال، فلما خرج منها مهزوماً مدحوراً ووصل أنطاكية، وأقبلت فلول جيشه اليه محطمة ذليلة امر بعقد مجلس حربي أعلى، وصاح في كبار قواده : ويلكم اخبروني هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، اليسوا بشراً مثلكم ؟ وردوا عليه :

ــ بلى

فقال لهم :

ــ فأنتم أكثر أم أقل منهم ؟

قالوا :

ــ بل نحن أكثر منهم أضعافاً مضاعفة في كل موطن.

قال لهم :

ــ فما بالكم تنهزمون ؟

فسكتوا، وأجاب قائد من كبار قواده قائلاً : أيها القائد الملك، انتصروا وهزمنا من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم. ومن أجل انا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد، ونغصب، ونظلم ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

هكذا روى ابن الأثير، وبالصواب نطق هذا القائد المجرب. وفي غزو المسلمين لبلاد كسرى، جلس رسول المسلمين في مجلس يزدجرد امبراطور الفرس، واقبل عليه كسرى الامبراطور يسأله : من أنتم، وماذا تريدون ؟ وجاء الجواب واضحاً قوياً جليلاً : ان الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل السماء ..

ان عظمة الاسلام وجلاله وحكمته وسموه وانسانيته ونبل مقصده وشرف غاياته تجعله دين الحياة، وعقيدة الزمن، وشريعة البشرية في كل زمان ومكان وتجعل معتنقيه اقدر على أن يصنعوا للعالم مستقبله المتألق النبيل المنشود.

يقول المودودي[1] : ان فلاح الانسانية وصلاحها في المستقبل انما يتوقف على أن تؤمن بالاسلام، وتفكر بكل ما اخترعت من النظريات الباطلة .. [صورة لقول الأفغاني من قبل : الدين قوام الأمم وفيه سعادتها وفلاحها].

ويقول برناردشو : « اني اكن كل تقدير لدين محمد، لحيويته العجيبة، فهو الدين الوحيد الذي له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وهو صالح لكل العصور .. وقد درست حياة هذا الرجل العجيب محمد وفي رأيي انه يجب أن يسمى البشرية. واعتقد انه لو أُتيح لرجل مثله أن يحكم العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشكلاته باسلوب يؤدي الى السلام والسعادة اللذين يفتقر العالم اليهما .. واستطيع ان أتنبأ بأن العقيدة التي جاء بها محمد ستلقى قبولاً حسناً في اوربا .. وقد بدأت تجد اذناً صاغية فيها اليوم » ..

وأقول انه لو قدر لهذا الكون أن يشهد قيام أمة انسانية على الأرض، فلن تكون هذه الأمة الا مسلمة، ولن يكون قائدها الا القرآن الحكيم، الذي يطبع اخلاق كل مؤمن به على غرار اخلاقه، وسئلت عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ فقالت : كان خلقه القرآن.

وأني لأعجب اشد العجب، ان ارى الكثير من المفكرين العرب يحارون في امر غد الاسلام، وفيما سوف يكون عليه، وفيما سيشهده

---

(١) ٩ حاجة الانسانية الى نظرية صالحة.

فجر المستقبل من شئونه وهو موقف يدل على عدم وضوح الرؤية أمامهم، وعلى سذاجة ما هم عليه من تفكير، وهم ومن ينحون منحاهم واقعون في خطأ جسيم.

ان المسلمين المعاصرين، أو المفكرين منهم :

١ ـــ اما جاهلون بالاسلام أو متجاهلون له، وما اتعس أمثال هؤلاء.

٢ ـــ واما جازمون بأن الاسلام قد انتهى زمنه، وأنه اليوم في غربة وغدا سيكون في اشد منها، وما اشد خطأ هؤلاء، لأن غربة الاسلام في آخر الزمان التي جاء بها الحديث الشريف : هي غربته اليوم بيننا التي سيعقبها انطلاق وبعث، كغربته الأولى حين بدء ظهوره، فقد أعقبها ما أعقبها من البعث الأكبر والانطلاقة العظمى، التي لم يشهد التاريخ ولا الانسانية لها نديداً.

٣ ـــ واما حائرون مترددون لا يعرفون عن الغد شيئاً، وقد قلت ان امرهم يدل على عدم وضوح الرؤية.

٤ ـــ وهناك من يرون ان الاسلام سوف يعود الى الظهور على مسرح الحياة، قوة عالمية ثالثة بين قوتي الشرق والغرب، قوة بين العديد من القوى التي تسيطر على اقدار العالم والحياة.

وكنت انا اذهب الى ذلك منذ نحو ربع قرن في مقالاتي التي نشرتها في مجلة الأزهر عام ١٩٤٦ وما بعده، وفي كتب من أمثال : « الاسلام وحقوق الانسان » و « الاسلام ورسالة الاصلاح والحرية »، « والاسلام دين الانسانية الخالد »، و « من ماضي الاسلام وحاضره ».

ويردد العقاد ذلك الرأي ايضاً في كتابه « الاسلام في القرن العشرين »، المطبوع منذ ستة عشر عاماً، فيقول[1] : ان الاسلام مجموعة من مجاميع الامم الكبرى في القرن العشرين.

(١) ص ١٨١ الاسلام في القرن العشرين للعقاد.

وكذلك ذهب الدكتور محمد البهي في كتابه « الفكر الاسلامي، مشكلات الأسرة والتكافل » المطبوع منذ سنوات قلائل.

واشهد بخطأ هذا الرأي، وبأني كنت به على ضلال من الأمر، وقد خضعت فيه لواقع حياة المسلمين المعاصرين.

ولو كنت جئت الى هنا لاقول لكم اليوم ما قلته بالأمس البعيد، ولأردد أمامكم ما رددته يومئذ من ظهور الاسلام في الغد قوة عالمية ثالثة .. لما جئت الى هذا المكان، ولما تحدثت اليكم من فوق المنبر.

ولكني اقول لكم اليوم الحقيقة ناصعة :

أقولها لكم في يقين قوي : ان الغد وحده للاسلام، والغد للاسلام وحده.

لن يكون الاسلام القوة الثالثة بين قوتي الشرق والغرب، لأنه لن تكون هناك قوة شرق وقوة غرب، بل سيكون الاسلام في الغد القوة الوحيدة في العالم.

لسوف تنهار حضارات الشرق والغرب انهياراً تاماً لا قيام لها معه، وما ذلك بمحال فقد اصبحت الحرب النووية تهدد كل قوة على سطح الأرض بالفناء، بل لو ارادت الدول العظمى السلام لما وجدت السبيل اليه، ان حضارة اليوم تقوم على اساس واه، ودعائم منهارة، ولن تجد الانسانية يومئذ عقيدة تؤمن بها وتؤمن بها مصيرها الا الاسلام، الاسلام وحده : الايمان به سيكون ضرورة بشرية لأن ذلك مسير التاريخ وحتمية انتصار الحضارة، والعلاج الوحيد لكل مشكلات الحياة وهي النتيجة الأخيرة لقدرة الانسان على مواجهة التحديات التي يتحداه بها عصره.

ومن هذا المنطلق أرفض فلسفة الإمام محمد عبده ومدرسته، التي تقوم لايجاد التقاء فكري بين الاسلام وحضارة الغرب. وأرى ان الترويج

والدعم لفكرة هذا الالتقاء خطأ جسيم، لأنه لا هدف يقصد من وراء هذا الالتقاء الا خضوع الاسلام لقوة الغرب وماديته ولحضارته، وهذا هو ما يعمل له المستشرقون والكثير من الأوربيين المثقفين، وأذنابهم من دعاة التبعية والهزيمة بيننا.

واقول : ان الاسلام هو النموذج الكامل الشامل ولا بد ان تعود جميع النماذج اليه، القريبة منه والبعيدة عنه على السواء، أما أن الاسلام هو الذي رجع أو يرجع اليها فهو ولا ريب خطأ وأي خطأ، ان علينا أن نستعيد تراثنا الحضاري والاسلامي من جديد مرة اخرى.

(٥)

ولا يصح بحال أن ننسى أو نتناسى أهداف أوربا التي تعمل لها بيننا وفي مقدمتها العمل من أجل القضاء على الاسلام والمسلمين في العالم.

ان بقاء الاسلام امر تكرهه اوربا كل الكراهية، وكذلك قيام بعث اسلامي جديد شيء ترهبه كل الرهبة، شرقها وغربها وامتداد الشرق والغرب جميعاً، وهي تقدم الخوف منها والحذر من انطلاقه، على كل خوف وكل حذر.

انها مشغولة بأمر الاسلام مشغولية من يشعر بيقظته وترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه كما يقول العقاد[١].

ومن أجل ذلك تجمعت أوربا في الماضي، وتحالف شعوبها المتناقضة المختلفة في سبيل ايقاف هذه اليقظة ومقاومتها بكل ما تستطيع.

---

(١) الاسلام في القرن العشرين ــ العقاد ــ ١٩٥٤.

وكذلك يتحالف اليوم الغرب والشرق الاوربي، وامتدادات الغرب والشرق في كل مكان، للتخطيط للمستقبل القريب والبعيد، تخطيطاً يحول دون قيام تلك اليقظة مرة اخرى[1] ... وسلسلة التاريخ معروفة :

ـــ الحروب الصليبية التي امتدت نحو قرنين من الزمان[2] (١٠٦٦ ـــ ١٢٧٢ م / ٤٨٩ ـــ ٦٦٨ هـ).

ـــ التخطيط لغزو التتار للعالم الاسلامي، ولتدمير مراكز الحضارة الاسلامية في العالم بأيدي التتار، مما نجم عنه سقوط بغداد في يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ ـــ العاشر من فبراير ١٢٥٨ م بتحريض العالم المسيحي[3].

---

(١) يقول إيدن في مذكراته ص ٣٤٣ الطبعة الانجليزية ان امريكا راحت تنفق اموالها في الخمسينات على نطاق مسرف لاعانة الشيوعية والشرق الاوسط وكان غرض امريكا من نشاطها السياسي والثقافي والعلمي في هذه المنطقة طيلة المائة عام الأخيرة هو تمييع المبادئ، والعقائد الروحية والدينية التي يؤمن بها سكان المنطقة (الصفحة الثالثة من جريدة الحياة البيروتية ـــ ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٠ م).

وليس في العالم كله دولة تخشى التحركات الاسلامية بمثل ما تخشاها روسيا لأنها بدون المناطق الاسلامية فيها لا تستطيع اقتصادياً ان تظل دولة كبرى (٣ الحياة ـــ ١٥/١١/١٩٧٠ م).

وعرض الصهيونية العالمية تمييع التراث العربي والاسلامي في المنطقة على الرغم من تمسكها هي بتراثها الديني اليهودي (٣ الحياة ١٥/١١/١٩٧٠).

(٢) صنع الصليبيون من الفظائع ما لا يمكن ان يتصوره انسان، ولما احتلوا بيت المقدس في شعبان ٤٩٢ هـ يوليو ١٠٩٩ م ذبحوا فيه تسعين الفا من المسلمين وكتبوا الى البابا يهنئونه، ويقولون له : ثق انه في ايوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء المسلمين ـــ وحينما دخلوا مدينة طرابلس الشام دمروا فيها وحدها دار كتب بها ما يزيد على ثلاثة آلاف الف كتاب مخطوط.

ـــ راجع الحركة لعبد الفتاح عاشور في جزءين.

(٣) ٢٥٢ الدعوة الى الاسلام ـــ أرنولد وتوماس ـــ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين.

ـ سقوط الأندلس في الحادي والعشرين من المحرم عام ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م [1].

ـ كشف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤ هـ . ١٤٩٨ م، بارشاد ابن ماجد الربان البحري العربي المسلم، وتحول التجارة العالمية مع الهند الى هذا الطريق، وافقار شعوب العالم العربي بفقدانهم للرسوم التي كان يجبونها من هذه التجارة اثناء مرورها من قبل ببلدانهم.

ـ ثم الحملة الفرنسية على الشرق العربي (١٢١٣ هـ . ١٧٩٨ م).

ـ وقيام الاستعمار الأوربي وتدميره العالم الاسلامي، واحتلال الغرب لأراضيه ولأملاكه وامبراطورية المسلمين، ونهبه لكنوزه وثرواته وتراثه وآثار حضارته، وفرضه عليه الحضارة الغربية فرضاً، وازالته لمعالم الحضارة الاسلامية من بلاد الاسلام.

ـ ظهور المسألة الشرقية، وتخطيط الغرب لنهاية الخلافة العثمانية، والامبراطورية الاسلامية التركية.

ـ قيام اسرائيل في الرابع عشر من آيار عام ١٩٤٨، بتدبير من الغرب منذ صدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ م.

كل ذلك سلسلة ضخمة من سلسلات الأحداث والمؤامرات التي صنعها الغرب المسيحي واحلافه من أجل القضاء على الاسلام والمسلمين على امتداد التاريخ.

---

(١) راجع : ـ مأساة الوجود العربي في الاندلس لعبد الكريم التواني ـ نهاية الاندلس، محمد عبدالله عنان.

محاولات مستمرة من أجل الوقوف في وجه التيار الاسلامي وفي وجه شعوبه والمؤمنين به.

تصدّي الإسلام للمؤامرات عبر التاريخ

ولكن ربك لهم بالمرصاد، فعلى مرور الأيام والأجيال لم يخلد الاسلام الى الهوان لميشئة الطغاة ابداً .. بل ظل شامخ الرأس، مرفوع اللواء وضاح الجبين، يبني الحياة ويصنعها، يبدل الهزيمة نصراً، يطلع من ظلام الليل البهيم فجراً وفجراً.

انتصر في معركة حطين الخالدة على جيوش الصليبيين (السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني في ٥٣٨ هـ — الخامس من يوليو ١١٨٧ م)، واستعاد بعدها بيت المقدس من ايديهم، بعد احتلالهم الغاشم لها، احتلالاً دام نحو نصف قرن من الزمان (٤٩٢ — ٥٣٨ هـ . ١٠٩٩ — ١١٤٤ م).

وانتصر في معركة المنصورة المشهورة ٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م، واسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا وهزم جيشه هزيمة مروعة ..

وانتصر في معركة عين جالوت العظيمة على التتار (في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام (٦٥٦ هـ — ١٢٦٠ م).

وفتحت القسطنطينية في الثلاثين من مايو عام ١٤٥٣ م — ٨٥٧ هـ.

وانتشر الاسلام في كل مكان، في الهند والصين، وجزر المحيط الهادي وفي افريقيا وأوربا نفسها، انتشاراً بالغاً.

وأخذت الشعوب تدخل فيه بطريقة جماعية غير مألوفة : في عام ٣٠٩ هـ . ٩٢١ م اتصل ملك الفولجا بالخليفة العباسي المقتدر بالله،

وبعث اليه المقتدر من يرشده الى الاسلام، واسلم هو وشعبه.

وفي عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م عرض أهل البلغار على الخلافة العباسية رغبتهم في دراسة الاسلام ليدخلوا فيه : ولكن باباوات اوربا سبقوا المسلمين اليهم فاعتنقوا المسيحية.

وفي الرابع من شعبان ٦٩٤ هـ التاسع عشر من يونيو ١٢٩٥ م اعتنقت الاسلام شعوب المغول في عهد ملكته غازان خان، وصار هو الدين الرسمي لدولهم ودخل فيه في يوم واحد مائة الف منهم، وباسلامهم اخذ العالم الاسلامي يسترد جانباً من الطمأنينة على حاضره، وبدأ العلماء المسلمون يبنون من جديد مراكز الحضارة الاسلامية التي سبق تدميرها، وأخذ ملوك المغول يرفعون المظالم عن كاهل الرعية، ويكفرون بذلك عما قدموا من سيئات في حق الاسلام وشعوبه. وباسم الاسلام ضم تيمورلنك بلاد الاسلام الى ملكه، وان كانت حروبه دمرت مرة اخرى المراكز الجديدة للثقافة الاسلامية، كما دمر الاتراك في فتوحاتهم ما نشأ من مراكز اخرى، ولكنهم حملوا مشاعل الاسلام الى اوربا، وبلغوا رسالته كما حملها الغزنويون من قبل الى الهند والصين. وفي عام ١٨٧٣ م كانت معركة تركيا الفاصلة مع الغرب المسيحي امام اسوار فينا، حيث ارتدت جيوشها مهزومة بعد وقفتها الطويلة حيالها.

ومع ما اصابها من قبل ومن بعد ذلك من هزائم، فقد بقيت حصناً للاسلام، ودرعاً يحمي حوزة المسلمين. وما موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية، وحسبه ذلك فخراً، عنا ببعيد.

ذهب اليه وفد يهودي من جمعية أحباء صهيون، وعرضوا عليه، بوساطة رئيس وزرائه تحسين باشا عروضاً مغرية، هي :

١ ــ تعهدهم بسداد جميع ديون الخلافة، ومقدارها ١٣٣ مليون ليرة انكليزية ذهبية.

٢ ــ تقديم قرض للخلافة بمبلغ ٣٥ مليون ليرة ذهبية، دون فائدة.

٣ ــ بناء أسطول تجاري للدولة، يتكلف ١٢٠ مليون فرنك فرنسي.
على أن يسمح الخليفة لليهود بانشاء مستعمرة لهم قرب بيت للمقدس وأن يباح دخولهم الى فلسطين للزيارة في أي يوم من أيام السنة.

وكان جواب الخليفة المسلم هو ما نصه :

يا تحسين، قل لهؤلاء اليهود الوقحين ما يلي :

١ ــ ديون الدولة ليست عاراً عليها. فغيرها من الدول مثل فرنسا مدينة، وذلك لا يضيرها.

٢ ــ ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الاسلام.

٣ ــ بيت المقدس افتتحها للاسلام عمر بن الخطاب. ولست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيعها لليهود، ولا لخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بحملها.

٤ ــ وأخيراً : مرهم، فليخرجوا من عندي، ولا يحاولوا بعدها مقابلتي، أو الدخول الى هذا المكان أبداً.

وخرج اليهود ليأتمروا مع الاستعمار على السلطان عبد الحميد فقامت الثورة عليه، وأُقصي عن عرشه، ثم محيت الخلافة من تركيا وكانت الأموال التي أنفقوها بهدف التخلص منه هي السبب الرئيسي لكل ما حدث، ولكنه لقي ربه شريفاً راضياً مرضياً.

ومع ذلك كله، ومع المحن التي نزلت بالاسلام وشعوبه، فلا يزال ذعر أوربا من يقظة المسلمين هو هو حتى اليوم، لم تمحه الأيام. ولم تخفف من شرته الخطوب التي نزلت بالعالم الاسلامي.

وينطق مفكر مسيحي متعصب، هو غوستاف لوبون، بما يصور ما اصاب اوربا، من قبل ومن بعد من فزع، لامتداد نفوذ الاسلام وسلطانه، فيقول :

الحق ان أتباع محمد ظلوا اشد من عرفتهم اوربا من الأعداء ارهاباً عدة قرون، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية الساحقة، ونحن لم نتحرر من نفوذهم الا بالأمس.

ومن قبل وفي القرن الرابع عشر الميلادي صاح الشاعر الايطالي المشهور بترارك (١٣٣٤ ــ ١٣٧٤ م) فقال يرسم صورة لذعر بلاده من الاسلام وفكره الحضاري: يا عجباً !! لقد استطاع شيشرون (١٠٧ ــ ٤٣ ق.م) أن يكون خطيباً بعد ديموستين، واستطاع فرجيل (٨٩ ــ ١٩ ق.م) أن يكون شاعراً بعد هوميروس، (عاش في القرن التاسع قبل الميلاد) فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب، لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب غالباً، وسبقناها أحياناً الا العرب، فبالعبقرية ايطاليا النائمة الخامدة، وكم كان أسف بطريرك قرطبة شديداً لأن كل الشبان المسيحيين في أسبانيا بعد طردهم للعرب من بلادهم كانوا لا يعرفون الا لغة العرب وآدابهم.

وحين وقف فيكتور هوجو شاعر فرنسا في القرن التاسع عشر أمام حضارة الاسلام في الأندلس وقف مبهوراً مأخوذاً بعظمتها ممثلة في قصر الحمراء، مما صوره في قصيدة من روائع شعره ..

ووقف اقبال شاعر الاسلام أمام حضارة المسلمين في صقلية، وغلبه

التأثر، فبكى وقال من قصيدة له : « ابك ايها الرجل دمعاً لامعاً، فهذا هو مدفن الحضارة العربية ».

وتدمير اوربا لمعالم الحضارة الاسلامية، في بلادها وفي خارج بلادها معروف رغبة منها في القضاء على التراث الاسلامي العريق.

هذه هي اوربا الحاقدة على الاسلام وشعوبه، والتي يفزعها رسالة محمد وكتابها السماوي الحكيم، شرقها وغربها في ذلك سواء.

انها ترهب الإسلام وترتعد خوفاً منه، ولهذا تعمل بكل طاقتها لمنع انطلاقه ويقظته، حتى لا يشهد وطنه بعثاً جديداً.

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون * هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1].

ان الاسلام هو نظام الكون، والكون كله صائر اليه في يوم من الأيام، وليس هذا حلماً من الأحلام، بل انه الحقيقة الثابتة الواضحة وضوح الشمس في ريعان النهار.

ولسوف يتألف من الغد والاسلام طاقة جديدة، تعيد الحياة الحرة المبدعة الى الانسانية والانسان، وتبنى السعادة والرفاهية للمجتمع البشري المفزع، ففلاح الانسانية وصلاحها في المستقبل في أن تؤمن بالاسلام وتكفر بكل ما اخترعت من النظريات الباطلة كما يقول المودودي.

ان ذلك ضرورة ملحة للانسانية لتعيد بناء نفسها من جديد ولترتفع بالاسلام الذي ارتفع على المحن، وعلا على الزمن، ورفع الى مستواه

---

(١) سورة الصف الآيتان ٨ و٩، واقرأ الآيتين الكريمتين من سورة التوبة: **﴿ يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون ﴾** (الآيتان ٣٢، ٣٣).

الأسمى المؤمنين به كل دار ووطن، وكان فيه دائماً الحياة للروح والعقل والنفس والبدن.

انه ليس حنيناً الى الماضي، ولا مجرد امل في انبعاث مجد قديم، بل هو مسيرة التاريخ وحتمية وحركة وتطوره وهو الانتخاب الطبيعي الذي تقوم به الحياة، الانتخاب والتخير لأسمى القيم والمثل التي تثق في قدرتها على الوصول بها الى مرفأ السلامة والأمان .. انه وعد الله الصادق بانتصار رسالته، وغلبة وحيه وعزة كتابه، وسيادة دينه في الأرض .. انه الاستجابة الفطرية لنداء العقيدة الصالحة لكل عصر، الصانعة لكل خير القائدة الى كل نصر.

العقيدة التي تشرق كما يشرق الفجر، وتتدفق كما يتدفق الماء على صفحة النهر، وتمنحنا بعطفها وصدقها الأمل والنور والحياة.

العقيدة التي تعلو أبداً على كل الآلام، وعلى أحداث الأيام، وعلى شتى المحن والخطوب الجسام.

ولسوف يظل الاسلام منارة الأجيال والعصور، ويبني للبشرية من جديد في ظلال انبعاث اكبر صروحاً من التقدم والابداع والتجديد، ومن الحق والعدل والسلام والحرية والمساواة، ومن طمأنينة الانسان وسعادته ورفاهيته في الحياة.

لقد مدت المسيحية يديها الى الوثنية المادية والى الوثنيات الاخرى، تستعين بها في محاربة الاسلام، وفي القضاء عليه في بلاده وفي بلاد كانت اسلامية آمنة : مثل القرم والقوقاز وبوخاري وسمرقند وخوارزم، ومثل زنجبار والفلبين وموزمبيق وغيرها. ومن ثم رأينا الصهيونية تجد معاونة، وتلقى مؤازرة من الدول اليسارية وغير اليسارية التي تعادي العرب والاسلام، وهذا كاسترو ينصح السفير الاسرائيلي في بلاده، كما ذكرته صحف كوبا واذاعاتها، وترجمته عنها صحفنا العربية، فيقول له :

على اسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاً اسلامياً دينياً، حتى لا يجعلوا من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني، مما يجعل المستحيل على اسرائيل ان تصون كيانها، لأن الفداء اذا تملكته عقيدة دينية، وبخاصة في المجتمعات الاسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الاخرى، بما فيها الماركسية .. »

وسيعلم الناصح غير الأمين كاسترو أنه هو ومن ينصحهم سوف يبوءان بالخيبة والخسران العظيم، والذل المقيم، باذن الله ..

ان جميع القوى في العالم تقف في مواجهة الاسلام لترصد حركاته، والتعرف الى خطواته، والتسمع الى اخباره، ما خفي منها وما ظهر، ليدبروا المؤامرات له في كل مكان، وتحرص جميع وسائل الاعلام العالمية والصهيونية على تجسيم خطر اية خطوة يخطوها المسلمون، ليلفتوا الأنظار في العالم الصليبي واليهودي والشيوعي إليها، وليعملوا متكاتفين من أجل القضاء عليها، ويجتمع القادة بين الحين والحين للتخطيط لمستقبل الشرق الأوسط في غياب الأسد الهصور عن عرينه، ولكن سوف يفاجأون في يوم من الأيام باذن الله بما لم يكن لهم في الحسبان، وبما لم يدر في خلدهم وتفكيرهم على طول الزمان.

(٦)

ما العقبات التي تقف في وجه البعث الذي ننتظره عدا كل ما ذكرت من عقبات، وما الحواجز التي وضعت حجر عثرة لتحول دون بلوغ المسلمين غاياتهم الجسام ؟[١].

واجيب على هذا السؤال ..

---

(١) راجع : الاسلام والتيارات المعاصرة لعمر بهاء الدين الأميري.

انها عقبات كثيرة، أقامتها الصليبية والصهيونية والماركسية، بعضها ظاهرة وبعضها خفية، وكلها تعمل على اضعاف الايمان من انفسنا بأنفسنا وبديننا وبمقوماتنا، وعلى ترك اليأس الى قلوبنا، وعلى الاستسلام المطلق لمدية عدونا وهو يجهز علينا، حتى لا نتحرك ولا نتململ ولا نقول كلمة، ولا ندع سمعه يتأذى بأنين المذبوح، بل نقول له : فديناك بالروح.

عقبات وما اكثرها، واشد صلابتها وشراستها وضخامة امكانياتها وقدرتها على محاربتنا[1] .. ومع ذلك فمن الايمان ألا يحسب لها مسلم قوي العقيدة حساباً، والا يفتح للقنوط في أعماق نفسه وعقله باباً. أما غير المؤمن بنفسه ودينه وكتابه وماضيه، ولا بحتميَّة انتصار هذا الدين في معارك الحياة، فشأنه وما يريد، وان كنا نتمنى أن يعود الايمان والأمل والثقة الى روحه من جديد[2].

---

(١) راجع : الاسلام تجاه تحديات العصر ــ حسن صعب.

(٢) راجع : الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية للمودودي.

ــ روح الاسلام لمحمد عطية الابراي

ــ من توجيهات الاسلام لشلتوت

ــ روح الاسلام لسيد امير علي ترجمة عمر الديراوي.

ــ روح الدين الاسلامي لطبارة.

ــ نظام الاسلام لمنصور علي رجب.

ــ حقائق الاسلام واباطيل خصومه للعقاد.

ــ ما يقال عن الاسلام له ايضاً (العدد ١٨٩ من كتاب الهلال)

ــ خصائص التصور الاسلامي ومقوماته.

ــ تاريخ المذاهب الاسلامية لابو زهرة.

ــ اثر الترجمة في حضارة العرب لحسن الاشموني.

ــ الاسلام والعرب ــ روم لاندو.

ــ تراث الاسلام ــ كارادوفو.

واولى تلك العقبات :

هذه الحضارة الغربية، بكل فلسفاتها وايديولوجيتها وماديتها وطاقاتها ومذاهبها ووسائلها وابتكاراتها، من الرصاصة الى القنبلة الهيدروجينية، والذرية، والصواريخ .. وغيرها .. وبكل ما يقام من أجل نموها وبقائها من جامعات ومعاهد ومصانع وشركات ومؤسسات وبما يرصد لها من أموال واستثمارات وثروات منهوبة.

هذه الحضارة هي أمر هائل ضخم يحسب حسابه في لغة الأرقام، وهي شيء رهيب مفزع مخيف في نظر المسلم العادي.

ولكنها مع ذلك، وكما تؤكد، أوهى من بيت النمل، واوهن من بيت العنكبوت.

ذلك أنها بناء بدون اساس، وجسم بلا روح، ومادة بلا عقل، وأهواء بلا عقيدة، ولا تنطوي على نزعة انسانية أو خلقية، حتى لنراها يدمر بعضها بعضاً ويحطم جانب منها جانباً آخر، وهي تقف في كل لحظة على ابواب الفناء الذري الذي لا يطمأن معه الى شيء .. واذا كانت هذه الحضارة قد يسرت الحياة أمام الانسان فإنها قد رجعت به القهقرى الى حياة الغاب والى التأخر والوحشية، وبعد ان كان الاسلام قد حرر الانسان من العبودية والخضوع للفرد وللمجتمع عادت به هذه الحضارة من جديد الى انتكاسة الرق وفقدان الحرية، الى سجن الظلم والظلام والخضوع المطلق لحكم القوة والاستغلال.

على ان رأس المال الضخم الذي يدعم هذه الحضارة لا يرهبنا فمن الممكن تدبير الكثير منه، لأن خيرات من بلادنا وكنوزها تمثل قسماً كبيراً منه، وقسم آخر هو ثمرة الفكر والعلم الدؤوب على استغلال كل نعم الله في الوجود، ولا يعجزنا ان نسير في هذا الميدان ننافس فيه غيرنا ممن سبقونا، لأن لنا من العقل ما للغرب من عقل وتفكير، اما القسم

الثالث من رأس المال هذا فهو من صنع الربا والاحتكار، وبسببه يسلط الله الحروب على الأرض لتبتلع هذه الأموال الضخام الحرام، ويرسل عليها الخوف، فهي في السلام في خوف من الحرب كما لو كانت قد أعلنت الحرب سواء بسواء. وما ينفق على صنع مركبة قمرية مثلاً شيء طائل كان يمكن ان يكون وسيلة سعادة ورفاهية للملايين من المحرومين.

وفوق ذلك كله فإن هذه الحضارة الغربية قد نال منها الهرم، وادركتها الشيخوخة واقتربت من حافة الفناء .. يقول اقبال :

مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت، اينعت كالفاكهة وحان قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة للفساد عما قريب . ولقد رأت اوربا بعينيها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والاخلاقية والعلمية، ولسوف تتمخض الانسانية عن عالم جديد وهذا العالم لا يحسن تصميمه الا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمد وابراهيم قيادة العالم.

وما قاله اقبال يقوله كذلك مفكرو العالم وفلاسفته كل يوم. وميزان القوة في العالم يتغير يومياً على امتداد التاريخ، ومن ذا الذي كان يتصور إمكان تصفية قوة المانيا العسكرية، أو الامبراطورية البريطانية العتيدة..

على اني لا أعتقد أن نسبة ما يملكه العالم الاسلامي اليوم الى حضارة الغرب الواهنة اقل من نسبة ما كان في ايدي أسلافنا الى ما كانت تملكه الحضارتان الفارسية والرومانية بعد ظهور الاسلام.

وتعالوا معي الى هذه الحضارة الغربية، أليست هي حضارة القمار والربا والمكيافيلية الشريرة، والايديولوجيات العفنة، والتفرقة العنصرية البغيضة والاستعمار المتخلف الوحشي، حضارة الاباحية الشائعة،

والشهوات العارمة والجنس الآثم، والمادية الملحدة، والعلمانية الكافرة والصهيونية الخبيثة والصليبية العدوانية ؟

وأين هي من القيم الروحية والانسانية الرفيعة التي قامت بها حضارة الاسلام[1] على ان هذه الحضارة الغربية إنما قامت على الفكر الاسلامي وحضارته، فلقد سرقت اوربا حضارتنا وبحوث اسلافنا وكنوز تراثنا المخطوط ومناهج فلاسفتنا وتجاربهم وافكارهم[2] مثل ما سرقت ممالك المسلمين وامبراطوريتهم الكبرى التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وقامت على أنقاض جامعاتنا ومكتباتنا، ومعاملنا ومعارفنا، الحضارة الماثلة أمامنا، يقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » :

« اوربا مدينة للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، فكانوا ممدنين للغرب، وأئمة له في ستة قرون، وعن طريقهم اهتدى الغرب الى تراث الاغريق واكتشف ماضيه فأخذ ينقب عنه، وتقول المستشرقة الألمانية هونكة، كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوربا كان مصدرها البلدان الاسلامية[3].

---

(١) راجع :

ــ مقام العقل عند العرب لقدري طوقان

(٢) راجع :

ــ اثر العرب في الحضارة الأوربية للعقاد.

ــ فضل العرب على اوربا لفؤاد حسين.

ــ مآثر العرب على الحضارة الاوربية لجمال مظهر.

ــ اثر العرب في حضارة اوربا للشوباشي

ــ شمس العرب تسطع على الغرب ــ زيغريد هونكه ــ عربه من الألمانية بيضون ودسوقي طبع بيروت

ــ نحن والحضارة الغربية المودودي

ــ الاسلام والحضارة الغربية محمد محمد حسين.

(٣) ٥٤١ شمس العرب تستطع على الغرب.

ويجب ان نلحظ ان الغربيين قلما يذكرون كلمة الاسلام في كتاباتهم، ويبدلونها دائماً بلفظة العرب، يقولون : حضارة العرب ولا يقولون : حضارة الاسلام، ويقولون : التراث العلمي للعرب، ولا يقولون : للمسلمين .. وذلك لأن كلمة الاسلام، ثقيلة على أفواههم، وهم حاقدون عليه، حاسدون له، خائفون منه، ولا يحبون ان ينسبوا له فخراً أو مجداً، ونحن لا نؤاخذهم، بل نكشف طويتهم. اما المؤاخذة فهي لكتابنا العرب المسلمين الذين يتابعونهم.

ـــ محمد كرد علي يكتب : كتابه « حضارة العرب ».
ـــ العقاد يكتب : اثر العرب في الحضارة الأوربية.
ـــ طوقان يكتب : العلوم عند العرب.
ـــ وهناك كتاب نشرته الجامعة الأمريكية في بيروت عنوانه : نشاط العرب العلمي في مائة سنة.

وما اكثر ما نسمع ونقرأ : الحضارة العربية.

يقول احد كتابنا المعاصرين : وهو محمود عزمي : « الثقافة العربية اسلامية في اصلها، ولم توجد الا بالاسلام، والمخلصون من مسيحيي العرب يعلمون حق العلم ان ثقافتهم في اصولها اسلامية[1] وكذلك الحضارة العربية »[2].

ان الاسلام هو الذي منح حضارته طابعها الأصيل، من الجمع بين العلم والدين لأول مرة في التاريخ ..

ونذكر في هذا الموقف تقريراً سرياً رفعه الى الرئيس الأمريكي جونسون مستشاره الأول روستو عام ١٩٦٤، وجاء فيه :

---

(١) راجع كتاب : الاسلام والعرب تأليف روم لاندو.

(٢) راجع : الحضارة الاسلامية للمودودي. « الاسلام والمدنية العربية ».

« لقد كان الحوار بين المسيحية والاسلام محتدماً على الدوام منذ القرون الوسطى. ومنذ قرن ونصف خضع الاسلام لسيطرة الغرب، أي خضعت الحضارة الاسلامية للحضارة الغربية، والتراث الاسلامي للتراث المسيحي، وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة في المجتمعات الاسلامية حتى بعد انتهاء أشكالها السياسية، بحيث جعلت الوطن العربي يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم، لا يدري كيف يتفاعل معها في علاقاته الداخلية والخارجية على السواء، لقد تحرر من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع التحرر من سيطرته الحضارية، حتى ان معرفته بتاريخه وحضارته وتراثه تعزى الى المثقفين الغربيين — يعني المستشرقين — ان غلبة الحضارة الغربية في الشرق وهي العدو القديم للحضارة الاسلامية قد أورثت العربي المسلم الشعور بالضعة والمهانة والصغار أمام طغيان تلك الحضارة التي يمقتها ويحترمها في نفس الوقت، ولقد استطاعت بعض الدول كتركيا وايران تطوير علاقاتها بالغرب على أساس مصالحها القومية، لكن السياسات العربية ما تزال تعيش على الاحلام الامبراطورية الاسلامية ».

وأقول لروستو: لماذا تفزعون من أحلام الامبراطورية الاسلامية، ان العرب لن يتحرروا من اساركم وأغلال حضارتكم التي تذلونهم اليوم بها الا بعد ان تصبح أحلامهم ايماناً وعقيدة تنطوي عليها جوانحهم، وما ذلك ببعيد، وان كان هو الأمل الذين تحذرون أن يصير دافعاً حياً لشعوب الاسلام.

وثانية هذه العقبات :

الغزو الفكري الصليبي للشرق الاسلامي العربي[1]، ونشوء طبقات

---

(١) راجع : — تجديد الفكر الاسلامي لاقبال « ترجمة عباس محمود ».
— الفكر الاسلامي المعاصر، غازي التوبة.

=

جديدة من ابنائنا أصبحت لا ترى الحياة الا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره، وترى أن فكر بلادها وتراثها عبء ثقيل يجب طرحه والتحرر منه، وألا يبقى له أثر في حياة المسلمين المعاصرين أينما كانوا، ووجدنا في محيطنا من يقول انه لا يقرأ كتاباً عربياً، أو كلمة لكاتب عربي ولكن طه حسين يقول : انني افكر بالفرنسية واكتب بالعربية.

ومن هذا المنطلق الغريب، وهو خضوعنا الكامل للثقافة الغربية وغزوها الفكري لأعماق نفوسنا أصبحنا نجد من يصف الاسلام العظيم بأنه دين رجعي، ومن يتحدث عن قطع يد السارق بأنه عمل بربري، ومن يقول من المبعوثين العرب الى جامعات العالم انه لمْ يستطع الدفاع عن قضية الحدود الاسلامية وعدالتها أمام الشباب الغربي أو الأمريكي ممن يتصورون ذلك عملاً منافياً للانسانية، كأن الانسانية وحدها عندهم هي في مثل عزل نحو خمس السكان في الولايات المتحدة عن الحياة بناء على فلسفة التفرقة العنصرية.

وأصبحنا نجد من يرى ان الثقافة الاسلامية تراث متخلف وفكر غريب، يجب أن ترمى كتبه الصفراء في النار، ومن يقترح للتخلص من هذا التراث ان تكتب لغتنا بالحروف اللاتينية مثل تركيا، أو أن تتخذ اللغة العامية لغة لنا، والهدف من ذلك كله قطع صلتنا بماضينا وحاضرنا جملة، والارتماء في أحضان أعدائنا ليكملوا الاجهاز علينا بمداهم المشحوذة[1].

= — الغزو الفكري، محمد جلال كشك.
— تاريخ الفكر العربي، عمر فروخ.
— الفكر الإسلامي الحديث، محمد المبارك.
— الفكر الاسلامي، محمد البهي.
— الفكر الاسلامي، محمد الشبلي.
— اطوار الثقافة والفكر في ظل العروبة والاسلام، علي الجندي.

(١) راجع كتاب العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والفكري لانور الجندي — وكتاب : المثل الأعلى للحضارة العربية — محمد البهي.

ويحدد بعض المستغربين من العرب زعمهم الباطل أن الاسلام خصم للعلم والعقل، وأنه دين الغيبيات، وسبب ضعف المسلمين اليوم، أنهم يرددون في ذلك كله أقوال أعداء الاسلام من الصليبيين والماركسيين والصهيونيين .. يقول مثلا كليموفتش في كتابه « الاسلام » المطبوع في موسكو عام ١٩٥٦ : « الاسلام في جوهره ما زال ولا يزال عدو للعلم ».

ويقول ماركسي آخر : الاسلام عدو للعلم .. ونود ان نسأل مع العقاد : هل يؤمن عقل الانسان بالدين في هذا العصر، ويرى ديناً أحق بالايمان به من الاسلام ؟، ولماذا لا يؤمن عقل الانسان بالدين ؟ أليس أعظم رجال البحث العلمي في اوربا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الديني العميق ؟

طبقات كثيرة من كتابنا أصبحت تنطق بلسان الثقافة الغربية، وتعبر عنها تعبيراً كاملاً، ومن ثم صارت تعادي الاسلام والفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية، لا ترى بدء النهضة الحديثة في العالم العربي الا بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر والشرق العربي، كأن العرب لم يعرفوا التقدم الا في ظلال الغرب وبعد اتصالهم بثقافته وحضارته.

ويضاعف من خطر هذا الغزو الفكري على الجامعات والمدارس والكليات الأجنبية في بلادنا، وتأثر المبعوثين من شبابنا الى جامعات الغرب بالفكر الأوربي المعادي للاسلام وللعرب، وذلك طيلة قرن ونصف من الزمان، ثم جهل شبابنا الثقافة الاسلامية ومصادرها وتراثها جهلاً تاماً ما يعرفونه عنها من مطالعاتهم لكتب المستشرقين.

ونجد مثل هذه الآراء الغربية مبثوثة في كتابات الكتاب المعاصرين، وعندما نقرأ مقدمة كتاب « في منزل الوحي » لهيكل، أو كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » لطه حسين، أو « مقالات » أمين الخولي، أو « آراء » لطفي

السيد ومنصور فهمي واسماعيل مظهر وأحمد زكي أبو شادي والعقاد في مستهل حياتهم الفكرية : نجد العجب العجيب من طغيان الفكر الغربي في أدبهم. وانحرف بعض كتابنا من العلماء بحسن نية فساروا في هذا المجال كالشيخ محمود أبو رية، ومحمود الشرقاوي، وخالد محمد خالد وغيرهم. ودع عنك كتابات ساطع الحصري وتلاميذه، وجرجي زيدان وسلامة موسى، وامين الريحاني وجبران وميخائيل نعيمة، والبستاني ولويس عوض، وسواهم من دعاة المادية والعلمانية والواقعية والوجودية والهيبية، وغيرها.

وبتأثير هذا الغزو الفكري أصبحت مذاهبنا الأدبية والنقدية والفنية والفكرية، والعلمية صدى للفكر الأوربي وحده، وصقلت الجامعات العربية المدنية هذه المناهج بالأسلوب العربي واحتفت بها، وتبعتها في الاحتفاء بها الجامعات الاسلامية، بل لقد خضعت مناهجنا التربوية والتعليمية للطابع الغربي خضوعاً تاماً، وأصبحت محتاجة الى الترقيع يوماً بعد يوم، حتى قرأنا مؤخراً على لسان عربي كبير ان هذه المناهج صارت مستعصية على الترقيع[1]. ولم تعد صحفنا ومجلاتنا العربية اليوم تحتضن رأياً أو فكراً الا اذا كان تعبيراً كاملاً عن الثقافة الغربية.

والمنصفون من المستشرقين يوأخذوننا على ذلك اليوم، لأنهم لا يجدون لنا طابعاً خاصاً في الفكر والأدب، ومنذ أعوام زار شارل بيلا المستشرق الفرنسي المملكة العربية السعودية، فسأله صحفي :

ـــ ماذا تقرأ، الأدب العربي القديم أم الحديث ؟

فأجابه :

ـــ القديم وحده.

---

(١) في التربية الاسلامية اقرأ : ـــ منهج القرآن في التربية لمحمد شديد.
ـــ التربية الاسلامية لاحمد شلبي.

فقال له الصحفي :
ـــ ولماذا لا تقرأ الأدب الحديث ؟

فأجابه :
ـــ لأنه أدب غربي مكتوب بحروف عربية .. وكثير من أدبنا المعاصر ما هو الا ترجمة حرفية لآداب غربية منشورة في كتب أو دوريات مختلفة.

ولما عاد بعض كتابنا الى دراسة الاسلام في مصادره العربية الاسلامية كهيكل والعقاد ومنصور فهمي وطه حسين وغيرهم، وقفوا مذهولين أمام عظمة الاسلام وقوة تياره وجلال ضوء نهاره، وظهر أثر ذلك فيما كتبوه عن الاسلام والسيرة النبوية[1].

وألفت النظر هنا الى المؤتمرات الاسلامية والى مؤتمرات الأديان كذلك، تعقد في بلاد غير اسلامية، وهي مؤتمرات يهدف الغرب بها الى تضليل الفكر الاسلامي والمحافظين على مثله، والى تفسير الاسلام تفسيراً خاطئاً يجنح به الخضوع التام للفكر الغربي، ولذلك يعقدونها كثيراً في بلاد غير مسيحية مثل البانيا وروسيا وغيرها، لانكار طابعها الغربي المسيحي.

وأمامي مثلاً صحيفة عربية تخصص نحو الصفحة لمؤتمر سمته مؤتمر الفكر الاسلامي الذي عقد لأول مرة في اليابان، ويبحث كما تقول الصحيفة في تعاليم الأديان لخدمة السلام، وتقول : ان الذي مثل لبنان او المؤتمر في الاسلام الدكتور حسن صعب، حسن حسن، ولكن اسمعوا ما يقول ممثلنا الدكتور صعب أو الدكتور حسن :

---

(١) راجع: حياة محمد لهيكل، وراجع: الإعلام الاسلامي والسيرة النبوية تأليف د. محمد عبد المنعم خفاجي و د. عبد العزيز شرف ص ٤١٥.

« لقد ركزت الجهد على التوعية، وربطتها بحقائق الوضع الحضاري الانساني. وتفادي التعويل على تفوق الشرق الروحي، كبديل للتفوق المادي، والسعي لتطوير القيم الروحية.

وهذا كلام واضح في مغزاه كل الوضوح، فهناك توعية، وهي مربوطة بحقائق الوضع الحضاري الانساني، وهناك تطوير للقيم الروحية، أي قيم الاسلام الذي يمثله الدكتور صعب، وهناك انكار لنظرية تفوق الشرق الروحي. شيء جميل .. ويقول الدكتور صعب في بيانه الذي بعث به الى صحفنا العربية ونشرته بحسن نية : لقد أوجد المؤتمر فرصة انفتاح جديد بين أديان الشرق الأوسط وأديان الشرق الأقصى الحلولية، ومعنى ذلك بدء العمل على تفاهم جديد بين الاسلام مثلاً ووثنيات الشرق الأقصى »[1].

الاسلام لأنه الدين الرئيسي للشرق الأوسط، والوثنيات الحلولية في الشرق الأقصى يراد لها أن تتفاهم، تتفاهم على ماذا ؟

ـــ بالطبع على مزج الاسلام بالوثنيات وشعائرها .. هذا مثل من أمثلة الغزو الفكري بمختلف أساليبه ومنطقه ومناهجه في العمل ضد الفكر الاسلامي. ولكن الله من ورائهم محيط.

وبهذه الروح ايضاً دارت مناقشات مؤتمر النهضة العربية الذي دعت اليه جامعة الوفاق البلجيكية حول مستلزمات التكيف مع العصر الحديث.

اما ثالثة العقبات :

التي يظن أنها تقف في سبيل بعث اسلامي جديد، فهي تدمير

---

(١) صحيفة البلاد السعودية ـــ الصفحة الثانية ـــ عدد الأحد ١٩٧١/١١/٨.

الاستعمار الغربي عن طريقه وطريق أذنابه لكل الحياة الاسلامية الفاضلة النقية في مختلف بلاد الاسلام.

لقد أخضعنا لماديته ولمذاهبه الهدامة، ولإلحاده، ولفلسفاته في السلوك والأخلاق والعادات والطعام والشراب واللباس، ولغير ذلك من مجالات الحياة. وخضعنا بتأثير ذلك لأفكار الجنس، ومن بينها : حقوق المرأة، وخروجها من البيت، والاختلاط والرقص، والأزياء الفاضحة والاصطياف على الشواطئ الخليعة والتحلل من أعباء الزواج والأسرة والأولاد، وتفضيل النوادي الليلية على كل شيء، والانطلاق على الشهوات العارمة في كل واد، ولسان الحال مع أبي نواس في بيته المشهور :

وكنت فتى من ابلـــيس فانتهـــى بي الحال حتى صار ابليس من جندي

وذاع وباء الجنس والعري في السينما والمسرح العالميين وفي شتى الاعلانات الصحفية.

وليس الأمر كذلك فحسب. بل فتحت في بلاد الاسلام بيوت للبغاء وحانات للخمور. وانتقل الينا الاقتصاد الغربي الربوي على أطلال المذاهب الاسلامية في الاقتصاد. واتخذت مصارفنا ضرورة منهج المصارف الغربية. لأنها لا يمكن أن تستقل باقتصاد منعزل عن العالم وأخذ بعض علمائنا لذلك يفتون بحل الاقتصاد الربوي للضرورة والمصالح المرسلة. وهم في ذلك جد مخطئين، لأن المسلم الكامل لا بد أن يتمسك بنصوص دينه كلها كاملة غير منقوصة، ولنعد الى عالم فرنسي جاك أوستروي في كتابه « الاسلام أمام التطور الاقتصادي » الذي نشر في باريس عام ١٩٦١ فماذا يقول : يقول في صفحة ١١٢ ما نصه : ان الاسلام يتمتع بإمكانيات هائلة، واذ ما وجد الطريق الصحيح

فإن كثيراً من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده، ثم يرى أنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية.

ونحن نعرف أن تطبيق الاقتصاد الاسلامي في مجتمع عربي يأخذ اليوم كل أساليب الحياة الغربية أمر صعب. إن من الواجب أن يكون للاسلام القيادة والتوجيه في حياتنا في كل جانب، لأنه نظام كامل للحياة لا يمكن تجزئته، ومع ذلك فإلى ان يكون الاسلام وحده هو كل شيء في حياتنا لا نجد أفضل من الاقتصاد الاسلامي والعمل به في بلادنا للتخفيف من مشكلات الحياة الاقتصادية[1].

ان مفاسد الغرب في بلادنا اليوم أكبر من أن تحصى أو تعالج على أساس التلفيق والترقيع. وبقاء هذه المفاسد والمشكلات مستمر ما دام اتجاه العمل في محيطنا الى تطبيق الأسلوب الغربي في كل شيء في حياتنا. ولبقائها واستمرارها أثر كبير في اضعاف قدرة الجيل المسلم المعاصر على تحمل المسئولية والأمانة والواجب، وفي تغيير الموازين التي يوزن بها الانسان العربي في مجتمعاتنا، فبعد أن كان التزام هذا

---

(١) راجع الكتب الآتية :
- نظام الاسلام لمنصور علي رجب.
- الاسلام والمناهج والاشتراكية لمحمد الغزالي.
- ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد لمحمد المبارك.
- الاسلام والتنمية الاقتصادية جاك أوستروي. ترجمة نبيل صبحي الطويل.
- الاسلام وأوضاعنا الاقتصادية لمحمد الغزالي.
- الربا لعلاء الدين خروفه — طبع بغداد.
- الربا والمعاملات في الاسلام لرشيد رضا.
- الربا للمودودي.
- وراجع كتاب :
- الاسلام والعرب تأليف روم لاندو.
- تاريخ الحضارة الاسلامية بار تولد ترجمة حمزة طاهر.

الانسان بالدين هو كل شيء اصبح التزامه بالحياة الغربية هو مظهر التمدن والاتزان والعصرية، ومن قبل كان اللورد كرومر الحاكم الانجليزي في مصر في أوائل هذا القرن يردد كلامه الباطل : « ان المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوروبية لا يصلح لحكم بلاده »، ولذلك جهد بقدر ما استطاع في منع علماء الأزهر من العمل في وزارات الحكومة وحصر مهمتهم في الوعظ والامامة والتدريس في الأزهر.

ولقد فرض الاستعمار الغربي حكماً مسيحياً متعصباً على شعوب اسلامية كثيرة.

فالمسلمون في قبرص والحبشة وغانا ونيجيريا والسنغال ولبنان وهم الغالبية الكبرى للسكان لا بد أن يحكمهم حاكم مسيحي، كما تحتم ذلك قوانين هذه البلاد التي سنها الاستعمار الغربي[1].

وسياسة اضطهاد المسلمين في كل مكان يقف من ورائها الاستعمار، سواء في زنجبار أو الهند أو الفلبين أو الحبشة أم تشاد أو أوغندا، بل سياسية ابادتهم في روسيا والصين والدول التي تدور في فلكهما هي من صنع يديه وبتدبيره ورضائه[2].

ولم تأمن تركيا من مكر الاستعمار الغربي الا بعد أن سارت على السياسة التي فرضها عليها، وهي قطع كل صلة لها بالاسلام وأساساً كما يقول العلامة زيد بن فياض في كتابه « واجب المسلمين في نشر الاسلام » :

١ ــ قطع صلة الدولة بالاسلام والعالم الاسلامي.

---

(١) في نيجيريا نسبة المسلمين الى جميع السكان أكثر من ٧٠٪، وهي في السنغال ٩٠٪، وفي قبرص وغانا ولبنان أكثر من ٦٠٪.

(٢) راجع : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام لمحمد الغزالي.

٢ ــ الغاء الخلافة الاسلامية.
٣ ــ تجميد كل نشاط اسلامي فيها.
٤ ــ استبدال الدستور القائم على الاسلام بدستور مدني[1].

وكانت الخلافة العثمانية آخر معقل يقوم على الأيديولوجية الاسلامية الكاملة اذ كانت تعتمد القاعدة الفكرية للاسلام أساساً للتقنين والتشريع في مختلف مجالات الحياة وكانت مظهراً يبرز الوجود الدولي للاسلام كرسالة، والمسلمين كأمة. وتاريخ المسلمين منذ سقوط الخلافة يتميز بالتبعية والضياع والتخلف فقد أُقصيَ الاسلام كقاعدة للتربية وللتقنين عن مناهج التعليم، وعن دنيا الانسان المسلم تماماً وعلى شتى المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكان آخر خطوة في ذلك الغاء نظام الأسرة الاسلامي واستبداله بقانون الأحوال الشخصية في كثير من أنحاء الوطن الاسلامي .. وهكذا حجر المسلمون على دينهم أن يطبق في مجالات حياتهم.

ورابعة هذه العقبات :

هي نشاط مراكز القوى للتخريب في حياتنا، وفي مقدمتها :

الصهيونية، والماركسية، وحركة التبشير وحركة الاستشراق.

أما الاستشراق :

فقد كان وراء انتقال كنوزنا العلمية الثمينة الى الغرب جامعاته ومكتباته ومتاحفه، ووراء حركة الافتراء على اسلافنا من العلماء وعلى ثقافتنا الاسلامية العربية كذلك، والآراء الكثيرة الزائفة التي يذيعها

---

(١) ص ٣٠ و ٣١ واجب المسلمين في نشر الاسلام.

المستشرقون حول علوم الاسلام وعلمائه وتاريخه وحضارته لا تخفى على عاقل.

وقد صارت مناهج المستشرقين في البحث والدراسة والثقافة هي الأساس الذي توطد في بنياننا الفكري، وهي التي تأثر بها مشاهير كتابنا من أمثال : طه حسين، العقاد، أحمد أمين، الزيات، زكي مبارك، وسواهم فنجد أحمد أمين مثلاً يكتب ضحى الاسلام وظهره كأن الاسلام لا بد ان يصل الى نهايته على يدي احمد امين وكتبه، وقام كثير من علمائنا بترجمة كتب المستشرقين، بما فيها من أباطيل وبهتان وتعصب على الاسلام، ومن بينها كتب جولد زيهر، واصبح بعض علمائنا يقول عن مستشرق : أستاذي العظيم، وذلك مظهر التبعية لا يعلو عليه مظهر.

وأسفت وأنا أقرأ كتاباً يحمل عنوان عبقرية محمد، في الوقت الذي كان امامي كتابان : عبقرية شكسبير، وعبقرية الصافي النجفي.

وفي الصيف الماضي قال لي شاب عربي : اردت التحضير لرسالة الدكتوراه في السربون، ولكن المشرف الذي عين لي وهو مستشرق رفض الموضوعات التي أقدمها له وأرادني على ان أكتب ما ليس للاسلام فأبيت.

وقد صارت أقسام الدراسات الاسلامية والعربية التي يشرف عليها المستشرقون في جامعات أوربا وكندا والولايات المتحدة ذات طابع هجومي على الاسلام ومراكز التجسس عليه، ويندب للتدريس فيها أساتذة من أنحاء العالم الاسلامي وفي مقدمة الموضوعات التي يتطلب اليهم المحاضرة والكتابة حولها، الحركات الاسلامية المعاصرة في مختلف بلدان الاسلام[1].

---

(١) راجع : المسلمون في العالم اليوم، عبد الرحمن زكي.

أما التبشير[1] :

فيقف من ورائه العالم الاسلامي بتوجيه الهيئات الدينية العليا في اوربا، وهو نداء لحركة الاستشراق في الأهداف وفي خدمة الاستعمار القديم والجديد، وفي التجسيس على الاسلام والحركات الاسلامية المعاصرة، وهو كذلك حملة صليبية جديدة على الاسلام، ومحالفة أبدية من الاستعمار لخنقه وصرف اتباعه عنه بكل وسيلة .. يقول المبشر لوراني براون : الخطر الحقيقي يكمن في نظام الاسلام، وفي قدرته على التوسع وحيويته، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوربي[2].

ويقول المبشر زويمر (١٩٥٢) : الهدف من التبشير ليس هو ادخال المسلمين في المسيحية، لأن ذلك في زعمه الباطل هداية وتكريم لهم، إنما هو عنده ان تخرج المسلم عن الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله[3].

ويقول العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام »: التبشير حملة على الاسلام بغزوه في عقر داره، ومن مخططاته تشويه التاريخ الاسلامي وابطاله وقادته والطعن في العقيدة الاسلامية ...

ويقول المبشر جون تاكلي : يجب ان نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح في الاسلام، ضد الاسلام نفسه، بأن نعلم المسلمين ان الصحيح في القرآن غير جديد وان الجديد فيه غير صحيح .. وهكذا صار المبشرون بضلالهم وبهتانهم نقاداً للقرآن الكريم وشارحين له، ولقد وضعت الامكانيات الهائلة تحت أيديهم، ولهم اكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد في العالم، فضلاً عن المستشفيات والمستوصفات الطبية.

---

(١) راجع : الاسلام والنصرانية للامام محمد عبده.

(٢) ٣٣ واجب المسلمين في نشر الاسلام.

(٣) راجع : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام لمحمد الغزالي.

وعندما وضع النظام الأساسي للجامعة الأمريكية في بيروت منذ اكثر من مائة عام اصر واضعوه على تأكيد الطابع التبشيري لها، وعلى أن يكون كل استاذ فيها مبشرا مسيحياً[1].

والغريب ان المبشرين صاروا يدفعون بأذنابهم الى التظاهر بالاسلام والتزوج من المسلمات لاخراج اولادهن عن الاسلام أو لتشريد المرأة المسلمة في كل مكان أو لدفعها الى الرذيلة والاثم هي وأبنائها ..

واما الماركسية :

ومحاولتها التسلل الى عقول المسلمين فهي من اشد الأخطار التي تجابه الاسلام اليوم، وبخاصة أن الغرب المسيحي يفسح لها المجال لتعيث في بلادنا فساداً، بعد ما شاهد صمود الاسلام في مواجهة الاستعمار وحركات التبشير والاستشراق والصهيونية.

وعمل الماركسية في إعلان الحرب على الاسلام، وفي تدمير حصونه في بلادها، وخارج بلادها، وفي تحطيم معنويات المسلمين، معروف لا يحتاج الى بيان.

الماركسية وهي مصطلح ومذهب غربي نجد لها اشتقاقاً لغوياً عربياً يفسر معناها تفسيراً واضحاً دقيقاً، وكأنها من قولنا اركسوا في الضلالة أي سقطوا فيها وتردوا في هوتها السحيقة التي لا نجاة منها والله عز وجل يقول في كتابه الحكيم[2] ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين، والله أركسهم بما كسبوا، أتريدون ان تهدوا من اضل الله ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾.

---

(١) ١٩ واجب المسلمين.

(٢) سورة النساء الآية ٨٨.

ونضال الماركسية ضد الجامعة الاسلامية وضد الدين بعامة والاسلام بخاصة أحد شعائر دعوتها المنحرفة وكان لينين يردد : الدين افيون الشعوب ويقول : نعلن بصراحة اننا ملحدون، ونرى في الأديان خطراً على الحضارة، وكان شعار ماركس ان فكرة الاله من بقايا القرون الوسطى المظلمة. ويقول ستالين عام ١٩٤٤ : نحن ملحدون ونؤمن بأن فكرة الله حماقة. وفي البيان الذي اصدره احد مؤتمراتهم عام ١٩٢٣ أن بداخل اتحاد الجمهوريات الروسية ثلاثين مليوناً من المسلمين يحافظون على عقائد باطلة، وخرافات من العصور الوسطى[١].

وتقرر القيام بالخطط والتدابير الواجب عملها لازالة هذه العقائد الباطلة[٢] .. وتقول برافدا في عددها الصادر في ٢٦ أبريل عام ١٩٤٩ : نحن لا نؤمن بثلاثة أشياء : الله والدين والملكية الخاصة.

هذا هو شعار الغزو الماركسي الذي بدأ يدخل في صفوفنا، وناله كغيره الفشل، ولا سبيل له في مجتمع الاسلام الحريص على القيم والمثل والفضائل والدين، حرصه على أعز ما تملك الانسانية من مقتنيات، وان الاحتشام والاحترام والسخاء وعظمة الاخلاق والقيم والمشاعر الانسانية السامية لا يمكن الحصول عليها ابداً من طريق الالحاد، والتدين هو جزء اساسي من الطبيعة البشرية.

ان علينا نحن المسلمين ان نختار أحد أمرين : الاستقلال أو التبعية « فإذا اخترنا الأول وجب علينا ان نعود الى تراثنا العظيم نستمد منه القوة على مواجهة التحديات التي تعترض طريقنا، فبالاسلام انتصرنا في الماضي، وبه سوف ننتصر باذن الله »[٣].

---

(١) ٢٢ الاسلام والمبادئ المستوردة.

(٢) العلم يدعو الى الايمان — أ — ك — موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي.

(٣) ٢٨٣ ندوة محاضرات رابطة العالم الاسلام ١٣٨٧ هـ.

(٧)

ونسأل أنفسنا اخيراً :

هل يمكن ان تقف هذه العقبات وغيرها في طريق الاسلام ؟ او ان تحول دون بعث اسلامي جديد ![1].

والجواب على ذلك : لا، بكل تأكيد.

نعم : لا، لن تستطيع شياطين الأرض كلها مجتمعة أن تصدنا عن الاسلام، ولا أن تصد الاسلام عن بلوغ أهدافه، أو أن تقف في يوم ما في وجه تياره.

وكم من عقبات وضعت في كل عصور التاريخ في طريقه فانهارت، وكم من مذاهب قامت لصرف المسلمين عنه، أو لتزييف مبادئه في نفوس المؤمنين به، فتحطمت. وكم من قوى كثيرة مدمرة حاربت الاسلام، على امتداد الأيام فهزمها، وتركها مشلولة اليدين، ذاهبة الفكر شاردة اللب، مفزعة أي فزع.

لن ينطفئ نور الاسلام ابداً، وذلك وعد الله الصادق لعباده المؤمنين :

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[2].

ويقول الله تعالى على سبيل التأكيد والجزم والتعميم : ﴿ **كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين** ﴾[3].

---

(١) ينادي فريق من المسلمين ببعث عربي (راجع الحياة عدد ١٩٧٠/١٠/٣ لن يفيدنا بشيء ما في حياتنا .

(٢) سورة الصف الآية ٨.

(٣) سورة المائدة الآية ٦٤.

سيبقى الاسلام[1] قمة سامقة، كوكبا وضاء، نوراً هادياً، معجزة السماء على الأرض، صانعاً للتاريخ والزمن والحضارة، وعاملاً فعالاً في حياة العرب والمسلمين والانسانية قاطبة.

يقول مؤلف كتاب الشرق الأوسط :

ان اول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو الدين. وكان الأفغاني يقول من قبل : الدين قوام الأمم وفيه سعادتها وفلاحها.

ويقول د. عصمت سيف الدولة في كتاب له : الدين جزء من تكوين الأمة العربية بحكم انها تكونت في ظلال الحضارة الاسلامية بالنسبة لها أكثر من مجرد دين اذ هو جزء من نسيج قوميتها[2].

ويقول ولز : الدين الحق الذي يساير المدنية هو الاسلام وحسبك القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع. فهو كتاب علمي اجتماعي تهذيبي خلقي[3]. ويقول الشاطبي في الموافقات : ان القرآن أصل الأصول، وكلية الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة وآية الرسالة. منور الأبصار والبصائر، وانه لا طريق الى الله سواه.

---

(١) راجع :
- الاسلام وحركة التاريخ. انور الجندي.
- عناصر القوة في الاسلام. سيد سابق.
- كيف نفهم الاسلام. وهذا ديننا وهما لمحمد الغزالي.
- الاسلام دين الانسانية للدكتور خفاجي.
- الاسلام دين الانسانية الخالد للدكتور خفاجي ايضاً.
- الدين. والمستقبل لهذا الدين.
- نحو وعي اسلامي جديد لمحمد مبارك.

(٢) ص ٦ اسس الاشتراكية العربية.

(٣) الاسلام روح المدنية للغلاييني. وراجع الاسلام والمدنية الحديثة للمودودي. والاسلام في المعترك الحضاري لعمر الأميري.

ويقول غوستاف لوبون : ان سبب انحطاط الشرق[1] هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة.

وصدق عمر بن الخطاب حين قال لأصحابه : لقد أعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.

وقال الهرمزان الفارسي لعمر وقواده : انما غلبتمونا بالاسلام.

وهذا هو ما أكده الرسول صلوات الله عليه لزعماء قريش في مكة بعد نزول الرسالة حين قال لهم :

ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم[2].

ان الغد سوف يؤدي بنا الى يقظة اسلامية جديدة باذن الله، ولكي تنطلق هذه اليقظة لا بد مما يلي :

أولاً : قيام ثقافة اسلامية قوية، وحركة تربوية مثمرة، تسير عليها مناهج جامعاتنا ومدارسنا، وللتربية والثقافة دورهما الجليل في التوجيه[3]،

---

(١) راجع :
- لماذا تأخر المسلمون لشكيب ارسلان
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى.
- اسباب انحلال المسلمين.
- وسائل تقدم المسلمين للشرباصي.
- نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي لعبد الرحمن الحجي.
- عقائد المفكرين للعقاد.

(٢) ١ : ٣١٦ سيرة ابن هشام - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣) راجع : تحديد الفكر الاسلامي لاقبال ترجمة عباس محمود.

وحسبنا أن نعرف أن جميع المذاهب المعاصرة، يمينية أو يسارية ترتكز على دعامة قوية من التربية والتثقيف وحدهما.

ثانياً : قيام المذاهب والحركات والمجامع والهيئات السياسية والاجتماعية والثقافية في بلادنا على أسس اسلامية خالصة.

ثالثاً : صياغة علومنا الاسلامية واللغوية صياغة جديدة تقربها الى اذهان العصر والشباب.

رابعاً : قيام حركات الشباب في العالم العربي على اسس اسلامية.

خامساً : صبغ وسائل الاعلام كافة في أنحاء العالم الاسلامي بصبغة اسلامية.

سادساً : نشر نفائس تراثنا المخطوطة محققة تحقيقاً علمياً دقيقاً.

سابعاً : انشاء هيئة امم اسلامية[1] تتولى التخطيط الكامل لمستقبل المسلمين وتعد منظمة الدول الاسلامية القائمة اليوم نواة لها.

ثامناً : صبغ حياتنا في شتى نواحيها بالصبغة الاسلامية، وتطبيق التشريع الاسلامي تطبيقاً كاملاً.

تاسعاً : انشاء مجمع اسلامي عالمي يمثل الفكر الاسلامي ويخطط له.

عاشراً : انشاء صندوق للدعاية للاسلام ونشره بأسلوب العصر، وعلى ضوء افكاره ومتطلعاته.

ففي ذلك وغيره من مقومات العمل الاسلامي ما يسير بنا الى الغد المنتظر والمستقبل المأمول.

---

(١) راجع كتاب الشعوب الاسلامية المتحدة لعبد الوارث صوفي.

(٨)

وهنا أقول، بل اردد :

ان الاسلام هو وحده عقيدة الغد، وان الغد وحده هو لعقيدة القرآن.

ان الاسلام هو نظام الكون، والكون كله صائر اليه في يوم من الأيام وليس هذا حلماً من الأحلام، بل انه الحقيقة الثابتة الواضحة وضوح الشمس في ريعان النهار.

ولسوف يتألف من الغد والاسلام طاقة جديدة، تعيد الحياة الحرة المبدعة الى الانسانية والانسان، وتبني السعادة والرفاهية للمجتمع البشري المفزع، ففلاح الانسانية وصلاحها في المستقبل في ان تؤمن بالاسلام، وتكفر بكل ما اخترعت من النظريات الباطلة كما يقول المودودي.

ان ذلك ضرورة ملحة للانسانية لتعيد بناء نفسها من جديد، ولترتفع بالاسلام الذي ارتفع على المحن، وعلا على الزمن، ورفع الى مستواه الاسمى المؤمنين به في كل دار ووطن، وكان فيه دائماً الحياة للروح والعقل والنفس والبدن ..

انه ليس حنيناً الى الماضي، ولا مجرد امل في انبعاث مجد قديم بل هو مسيرة التاريخ وحتمية وحركة تطوره وهو الانتخاب الطبيعي الذي تقوم به الحياة، الانتخاب والتخير لأسمى القيم والمثل التي تثق في قدرتها على الوصول بها الى مرفأ السلام والأمان .. انه وعد الله الصادق بانتصار رسالته، وغلبة وحيه وعزة كتابه، وسيادة دينه في الأرض .. انه الاستجابة الفطرية لنداء العقيدة الصالحة لكل عصر، الصانعة لكل خير، القائدة الى كل نصر.

العقيدة التي تشرق كما يشرق الفجر، وتتدفق كما يتدفق الماء على صفحة النهر، وتمنحنا بعطفها وصدقها الأمل والنور والحياة.

العقيدة التي تعلو أبداً على كل الآلام، وعلى أحداث الأيام، وعلى شتى المحن والخطوب الحسام.

لسوف يظل الاسلام منارة الأجيال والعصور، ويبني للبشرية من جديد في ظلال انبعاث أكبر صروح التقدم والابداع والتجديد، ومن الحق والعدل والسلام والحرية والمساواة، ومن طمأنينة الانسان وسعادته ورفاهيته في الحياة.

الباب الثالث

الاستعمار والاسلام



الاستعمار والاسلام

استعمار بلاد المسلمين والاستيلاء عليها مظهر من مظاهر التعصب المسيحي[1] في القرون الوسطى في اوروبا وابتكار من ابتكارات الكنيسة في ذلك الحين بني على أسس منحرفة، وعلى مبادئ غير سليمة يأباها العقل السليم، وتستنكرها المشاعر النبيلة وتخرج أصحابها عن نطاق الانسانية الراقية الى انسانية زائفة بالحقد والكراهية للاسلام والمسلمين وتتعارض مع الانسانية المسيحية الحقة التي قال بها السيد المسيح عليه السلام وهي المحبة والاحسان والأمل[2]. نعم لقد قيل « وما آفة الأديان الا رجالها » ولكني أقول بعض رجالها فقط، فمن ذلك :

أن البابا أوربان الثاني يصف المسلمين بأنهم « جنس لئيم » يجب أن يخضع للمسيحيين. وأن المسيحيين يجب أن يتوجهوا لمحاربتهم والانتصار عليهم. لأن هذا أمر مقدس من الله وأن يتوشّحوا بالصليب الأحمر الذي يرمز الى الدماء والقتل والفتك والافناء على صدورهم في تحركهم الى هناك. وأن يضعوه على ظهورهم عند عودتهم علامة لانتهاء هذه المهمة الربانية المقدسة[3].

---

(١) بيراشا خرافة العنصرية ص ٢٨٣، ٢٨٤ كندوسية تطور التقدم البشري ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) انجيل لوقا ٦، ٣ / ١٢.

(٣) روبنسون تطور الحضارة ص ١٤٠.

ويصفهم كذلك هذا البابا بأنهم « أنجاس » ويحرض أتباعه من المسيحيين على أن ينتقموا منهم لحيازتهم قبر السيد المسيح عليه السلام وابن الله أعطاهم الشجاعة والقوة لمحاربتهم والتغلب عليهم والاستيلاء على هذا القبر. وهذا أمر ليس بالمستحيل لأن الملك شارلمان ومن بعده ابنه لويس قد تغلب على المسلمين وانتصر عليهم وأقام صرح المسيحية في بلادهم وأنه من العار أن تبقى الأماكن المقدسة في ايدي اناس قذرين يدنسونها ولا يعرفون قدرها ولا يحترمونها[1].

ومن هذا يتضح أن هذا البابا رجل منفعل ومتعصب تعصباً قبيحاً لأن الاسلام لا يعادي المسيحية ولا قبر المسيح وقد قال الاسلام في المسيح عليه السلام وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة، وفي والدته البتول بأن الله طهرها واصطفاها على نساء العالمين وفي الانجيل أنه هدى ونور، وأن تقديس الصليب يراه بعض الكتاب أنه ظهر في القرن الرابع ولم تعرفه المسيحية الحقة الأولى[2] وأن الدين ليس بشارة لامعة فاقعة وإنما هو إيمان دفين في النفس بالتقى والورع وعدم اساءة الغير. وأما قوله بأن المسلمين نجسون فليس هناك دين يقول بالنظافة الجسمية والروحية كالاسلام. لأنه كفى بالمسلم أن يتوضأ خمس مرات في اليوم على الأقل. وكفى به أنه يقول بتطهير السريرة عن طرق العبادة والبعد عن الشرور وأن لا يخشى المؤمن في الحق لومة لائم. أما كون شارلمان انتصر على المسلمين فكان هذا الى حين فقط. وقد عاد المسلمون للاستيلاء على جزيرة صقلية وألقوا الرعب في كل ايطاليا حتى في مدينة روما نفسها. وفي كل جنوب فرنسا حتى أن أهل مدينة آرل وهي ضمن هذا الجنوب بنوا منازلهم محصنة حول المدرج الروماني القديم خوفاً من المسلمين وهجماتهم[3].

---

(١) ماكتيل ص ٥١٨ الى ٥٢١.

(٢) منذ سنة ٣١٣ ميلادية.

(٣) روبنسون ص ٩٧.

أما قبر المسيح عليه السلام الذي يجعل منه هذا البابا ركناً ركيناً لغضبه وانفعاله وكراهيته للمسلمين فلا يحتاج الى كل هذه الضجة العاتية ولا هذه الحروب ولا هذا الغيظ المميت لأن هناك من البحاثة من يقول بعدم وجود رفات صاحبه فيه(1). فهو قبر خالي الوفاض في نظرهم ويا ليت انكشف سر هذه الحقيقة منذ زمان الحروب الصليبية حتى يكفي الله بها رجال أهل الدينين المتنازعين شر القتال. وفهموا قول الاسلام بأن المسيح رفع الى السماء.

ومن ذلك خرافة قسيس فرنسي من مقاطعة بيكاروي هو بطرس الناسك وهو أحد أصفياء البابا أوربان الثاني وعلى شاكلته في عقليته وتصوراته وتوهماته. فلقد أشاع وأذاع وملأ البقاع بأن السيد المسيح عليه السلام أتاه في المنام وهو يفترش أرض احدى الكنائس ليلاً في بيت المقدس وأسر اليه أن الوقت قد حان لاعلان الحرب المقدسة ضد الاسلام والمسلمين في الشرق لتخليص قبره من قبضتهم ولتحرير الأماكن المقدسة بما فيها من كنائس وأديرة ومستشفيات وغير ذلك من مظاهر الدين المسيحي. واتصل بالبابا أوربان الثاني وروى له هذا الحلم فأعجب به وصور له سوء حالة المسيحيين في فلسطين وكان سافر اليها من قبل، وأنه يجب انقاذهم من مخالب المسلمين. فأمره البابا أن يكون داعية الحروب الصليبية وبوق الحرب المقدسة ضدهم ووضعه على رأس الحرب الصليبية الأولى الشعبية(2).

والغريب أن هذه الخرافة لم تظهر في زمان هذا البابا، وابان حياة بطرس الناسك نفسه وإنما بعد مماتهما بمدة طويلة مما يوجب الشك فيها وعدم صدقها(3). وبطرس الناسك هذا الرجل رث المنظر حافي القدمين

(1) بيراشا — خرافة العنصرية ص ٢٧٢.

(2) برهيبة — الحروب الصليبية ص ٥٨، ٥٩ وهو كتاب توجته الاكاديمية الفرنسية.

(3) جيز وتاريخ الحضارة الاوربية ص ١، ٢ وهو عضو الاكاديمية الفرنسية.

يتدثر بثياب فضفاضة من الصوف ويمتطي بغلة كان يتبرك أتباعه بشعر ذقنها[1] وكانوا يتكونون من فلاحين وعمال وعاطلين ومن نساء وأطفال صمموا جميعهم على عبور ألفين من الأميال في رحلة طويلة للوصول الى قبر المسيح عليه السلام وملاقاة الكفار من المسلمين. ولكنهم لاقوا الكوارث والمصائب والذبح في الطريق عندما دخلوا في سيرهم بلاد المجر جزاء أعتدائهم عليهم بالتخريب والسرقات والغدر. هذا غير ما لاقوه كذلك في سيرهم من الجوع والأمراض والسبي والموت[2]. وهذا ما تكرر حدوثه كذلك في بلاد بلغاريا. ولكنهم رغم كل هذا وصلوا القسطنطينية في أول أغسطس سنة ١٠٩٦ ميلادية. وأخذوا عند وصولهم في مهاجمة سكانها ونهب كل ما أمكنهم الاعتداء عليه بل لم يتورعوا من خلع الرصاص الذي يغطي أسطح الكنائس الشرقية فيها أي أنهم كانوا يأتون أفعالاً ضد الدين المسيحي نفسه وضد أماكنه المقدسة وهذا كان تحت امرة السيد / الراهب بطرس الناسك. وما أن عبروا البوسفور حتى هاجوا وماجوا وأخذوا في الاعتداء على أهل الأناضول في آسيا الصغرى بالقتل والنهب كعادتهم الا أن الأتراك أوقفوهم عند حدهم وهزموهم شر هزيمة واضطروهم الى اعادة العبور والخروج من آسيا والالتجاء ثانية الى القسطنطينية[3]. وبهذا رجع الناسك بطرس وأتباعه بعد أن أفنوا افناء الى أوروبا يجرون أذيال الخيبة والفشل ولم يدركوا بغيتهم المقدسة لأنها بنيت في أصلها على خرافة الأحلام والتوهمات النومية.

ومن ذلك أيضاً اتهام المسيحيين للمسلمين بأنهم برابرة وهمج يعيشون عيشة البداوة والرعي والتنقل فهم قوم متأخرون يسيرون على

(١) برهيبة ص ٦٨.
(٢) روبنسون ص ١٤١.
(٣) برهيبة ص ٦٩، ٧٠.

الفطرة ويسهل التغلب عليهم ومن العار أن يسيطروا على الأماكن المقدسة في فلسطين ولهذا يجب محاربتهم وطردهم من هناك[1]. وهذا افتراء بني على الجهل والتعصب لأن مسلمي ذلك الزمان هم أساتذة الأوروبيين وعلوم المسلمين ومعارفهم هي التي كانت تدرس في جامعات أوروبا في القرون الوسطى، فهم أهل حضارة ومتقدمون في صنع آلاتهم التي يستعملونها وفي نظمهم الاجتماعية التي يخضعون لها وفي مظاهرهم الروحية كذلك من علوم وفنون وآداب[2].

ومن ذلك اتهام ملوك المسلمين وحكامهم بالجنون والتوحش وبخاصة الخليفة الحاكم وأنه رجل غليظ القلب لا يعرف الرحمة لأنه اضطهد المسيحيين واعتدى على مقدساتهم ولكن بعض المؤرخين الثقات كالأستاذ برهيبة يذكر العكس[3]، وأن الحاكم كان يناصر المسيحيين ويلبي لهم طلباتهم وأنه كان يعطف كثيراً على مسيحيي سوريا بالذات وفي سنة ١٠٢٠ م أمر باصلاح الكنائس في مصر. ولما مات بطريرك بيت المقدس أمر بأن يحل محله مسيحي من حاشيته وكان مسيحيو الشرق في عهده على ما يرام.

ومن ذلك اعتقادهم الخاطئ بأن الاسلام دين لا يعرف الرحمة وإنما هو دين صراع وحرب. ونموا عن جهل بطبيعة الحال أنه يأخذ بقاعدة وأن جنحوا للسلم فاجنح لها وأنه عندما جاء مسيحيو نجران الى النبي ﷺ قابلهم بالبشر وأذن لهم بدخول مسجده والصلاة فيه وأعطائهم عهد أمان أكده الخلفاء من بعده. (زاد المعاد لابن القيم ٣ ــ ٧٩ ــ

---

(١) برهيبة ص ٤٧.

(٢) روبنسون ص ١٣٨.

(٣) برهيبة ص ٣٧.

٨٠). وأن الاسلام دين محلي[١]، في حين المسيحية دين عالمي[٢] يجب أن ينتشر في الأرض ويفرض نفسه بالقوة في كل مكان. ولكن من الناحية التاريخية لقد أثبت الاسلام أنه لا يقل عن المسيحية في عالميته وانتشاره وسيره بين المؤمنين. ففي سنين قليلة خرج من شبه الجزيرة العربية لينتشر في الأرض بسرعة مذهلة. وآمن به خلق كبير غفير لسماحة مبادئه وانسانيته وتعاليمه الرائعة وإخائه البشري من أسبانيا غرباً الى ايران والصين والفلبين شرقاً ومن فنلندا شمالاً الى خط الاستواء جنوباً. وأن هذه الصفة العالمية متأصلة فيه لأنه أنزل لأهل الأرض قاطبة وهي التي تثير المسيحية والمسيحيين بالنقمة ضد المسلمين. قال الله لنبيه الكريم في القرآن ﴿ **وما أرسلناك الا كافة للناس** ﴾[٣]، وهي التي دعتهم قبل قيام الحروب الصليبية الى وضع الأغنية المسيحية المشهورة بأغنية رولان التي طارت وانتشرت في الآفاق الأوروبية تحض المسيحيين على الحرب المقدسة ضد الاسلام والمسلمين واستعمار أراضيهم[٤]. وأصبح الاتجاه الى بيت المقدس مسلحين من الضروريات المسيحية في ذلك العهد أي منذ أوائل القرن العاشر فقط وان كان الحج في ذاته ليس فرضاً في الديانة نفسها وليس ركناً من اركانها[٥] ومن هنا ندرك أهمية أثر رجال الدين في هذا الصدد فهم أسس الوقيعة بين المسيحيين والمسلمين وما آفة الأديان ــ وكما قلت ــ الا بعض رجالها.

ومن ذلك أيضاً اتهام المسيحيين للمسلمين بقفل الطرق أمامهم لبيت المقدس ومنعهم من الحج. وهذا ليس بصحيح وفرية ضد المسلمين لأن المسلمين كانوا يتقاضون رسوماً على دخول بيت المقدس وهذا أمر جائز وعام

(١) ديمونبين ــ الاسلام والسياسة المعاصرة ص ١١.
(٢) جويو ــ التبشير والمبشرون ص ٨ وهو من أعضاء الأكاديمية الفرنسية.
(٣) سورة سبأ الآية ٢٨.
(٤) روبنسون ص ١٩٨.
(٥) برهيبة ص ٣٢.

في دخول سائر المدن في ذلك الزمان وليس بمعقول أن يحرموا أنفسهم من هذا الدخل. والثابت تاريخياً أن الذين كانوا يقفون ضدهم في طريق الحج هم إخوانهم في الدين أي مسيحيون لا مسلمون هم مسيحيو بلاد المجر وبلغاريا واليونان[1].

هذه هي المبادئ والأسس التي قام عليها الاستعمار الأوروبي في شكله الديني في القرون الوسطى. وهي مبادئ وأسس خاطئة كلها الافتراء والتعصب والنقمة ضد الاسلام والمسلمين[2] — كما بينا — وكما يقول كالفيرلي في ينج ص ١٦٧ ما نصه تأييداً لنا « استعملت الدعاية (المسيحية) ضد الاسلام كل ألوان الكذب لإشعال شعور الشعوب المسيحية ضده حتى يبذل المسيحيون في حربه النفس والمال. ولا شك أن القرون التي اشتعلت فيها الحروب الصليبية تعتبر أعظم فترة يندى لها جبين المسيحية في كل صورها وقد مر على نهاية هذه الحروب خمسمائة سنة من الزمان ولكن هذا العهد الطويل لم يمح الخزي والأكاذيب التي خلفها الصليبيون عن الشرق استمر تيار الدعاية يتدفق ضد المسلمين بالأكاذيب الى جميع أنحاء أوروبا التي أمدت الحروب الصليبية بالمال والعتاد قروناً عديدة ولم تكن الأنباء التي يحملها العائدون من المعركة بأقرب من الصدق ومن أجل ذلك امتلأت عقلية السواد الأعظم من آباء اوروبا بكثير من المعلومات المكذوبة عن الاسلام والمسلمين ولم تتمكن حركة تثقيف الشعوب في العصر الحديث من ازالة هذه الأفكار بعد. والمسلمون اليوم على حق حين يغضبون لما يتردد من أنباء غير صحيحة عنهم وعن دينهم في صحفنا اليومية والشهرية وفي صحفنا الكنسية الأسبوعية بل وفي عظات القساوسة

---

(١) برهيبة ص ٦٩.

(٢) ينج ص ١٦٧ وأيضاً كندرسية ص ١٢٥ و ١٢٦.

المسيحيين وفي اقاصيصنا بل وكتبنا المدرسية كل هذا هو ميراثنا في الغرب من الدعايات الصليبية ».

وعلى هذا النمط وبنفس الروح التعصبية كانت أهداف الاستعمار وهي ظاهرها دينية ولكن في باطنها استعمارية استغلالية ومادية نفعية وانانية غير اخلاقية وبعيدة كل البعد عن الانسانية وتتلخص فيما يأتي :

أول هذه الأهداف هو تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام من قبضة المسلمين وتحريره من سلطتهم فمن العار في نظرهم ان يكون تحت سيادة غير مسيحية.

وثاني هذه الأهداف هو الاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن المقدسة من كنائس واديرة ومستشفيات ومدارس مسيحية وغير ذلك وهدفوا كذلك الى حماية الأقليات المسيحية في فلسطين وهو هدف مصطنع لأن مسيحيي الشرق كانوا على ما يرام مع المسلمين في حياتهم وان مذهبهم الديني مخالف لمذهب الغزاة الأوربيين. وهدفوا ايضاً الى توحيد الفرق الدينية الشرقية المسيحية وهو هدف مصطنع كسابقه لأن هذه الفرق كانت للصليبيين بالمرصاد وشنوا عليهم الكثير من الاعتداءات ومن السلب والنهب بل والسبي احياناً.

في حين كانت الأهداف الحقيقية غير ذلك بالمرة — فليس من المعقول ان يتركوا بلادهم البعيدة وعلى طرق غير آمنة وصعبة الارتياد وفي اجواء متقلبة أثقلت عليهم بالأمراض والحرمان ومشاق الاعتداء عليهم المتواصل في الطريق الذي بلغ أحياناً حد القتل والخطف في سبيل الدين ومظاهره وإنما كانت هناك أهداف أخرى أهم وأكبر في نظرهم منها الهدف السياسي والاستيلاء على بلاد المسلمين وأراضيهم وما عليها من خيرات واقامة دويلات مسيحية تستنزف ثرواتها وتستولي على مصادر النعيم فيها.

ولنضرب على سبيل المثال لا الحصر ما فعلته فرنسا في هذا الصدد وهي الدولة الصليبية الأم والمتصدرة في هذا المجال، فلقد استولت على سوريا وحولتها الى مستعمرة فرنسية لحماً ودماً وفرضت عليها اللغة الفرنسية والتعليم الفرنسي وان الجيش كان يتكون من الجنود الفرنسيين. وخضعت الحياة الدينية للنفوذ الكاثوليكي الفرنسي وهاجرت اليها الأسر الفرنسية بكثرة من اواسط فرنسا وسيطروا فيها، وأصبحت التجارة في أيدي الفرنسيين بعد أن كان السوريون من انجح التجار في بلادهم وفي كثير من ذول اوربا نفسها قبل الحروب الصليبية. كما استولت فرنسا على دوقية اثينا وايضاً على امارة المورة وعلى مملكة قبرص. وعلى مملكة ارمينيا وعلى جزيرة رودس[1].

ومن هذه الأهداف مساعي أبناء الأسر الكبيرة في البلاد الاوربية وهم ممن يمكن تسميتهم بالعاطلين بالوراثة وراء المراكز الكبيرة السامية في مستعمرات الشرق فهذه فتحت الأبواب أمام هذه الطائفة واسعة للظهور والعمل بشكل محترم ومرموق بدلاً عن الحياة التافهة التي يحيونها في العبث والملذات في اوروبا[2] كما فتحت الباب كذلك امام المجرمين واصحاب السوابق الى الهجرة لدفن اجرامهم وسيئاتهم بعيداً عن أوطانهم الأوربية وطمس انحرافهم وجموحهم بعيداً عن محيطهم الخاص والعام في بلادهم الأصلية. وهم في الشرق يبدأون حياة جديدة سوية على حساب أرزاق الشرقيين من المسلمين[3].

وهناك الهدف الاقتصادي وهو هدف عام لا يخص أفراداً بالذات وانما يخص الحكومات التي أسسها المسيحيون في الشرق. واهم مظاهره

---

(١) برهيبة من ص ٣٨٠ الى ٣٨٧.

(٢) روبنسون ص ١٤٠.

(٣) روبنسون ص ١٤١.

الاستيلاء على سبل الانتاج والثروات وبخاصة التجارة فقد انتقلت من أيدي أصحابها من المسلمين الى أيدي المسيحيين الذين ساهموا في الحروب الصليبية وبخاصة أهل ايطاليا من المدن التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط كمدينة جنوة وفينيسيا. وبهذا تعمد المسيحيون نشر الفقر والفاقة والبؤس والعوز بين المسلمين بحرمانهم من أهم مورد من موارد رزقهم وحياتهم الا وهي التجارة بين الشرق والغرب(١).

وهناك غرض نفعي للكنيسة ورجالها من الحروب الصليبية يتلخص في أن أهل هذه الحروب كانوا يتركون ديارهم وثرواتهم وأراضيهم وضياعهم ومتاعهم .. الخ في عهدة الكنائس ويشرف عليها ويديرها القساوسة بدلاً منهم ومن هنا فتح باب للرزق وباب للغنائم وباب لتموين رجال الدين بما يستهدف من ألوان التصرف في هذه الأملاك المتراكمة سنة بعد اخرى لأن هذه الحروب امتدت لقرنين من الزمان الطويل. وكان كثير من ملاكها يموتون ويقضي نحبهم وهم في سفرهم الى الأراضي المقدسة أو عند عودتهم منها(٢).

وغرض أناني آخر للكنيسة ورجالها هو أنهم لما وجدوا ان الاشراف من الفرسان في اوربا في ذلك العهد لهم من القوة ما أضعفت أمامها الكنيسة ورجالها لأنهم كانوا يهاجمون الأديرة والكنائس ويجمعون منها الذهب والفضة والآثار الثمينة كالطنافس والتحف النادرة وكل ما غلى ثمنه وهم لا يملكون مقاومتهم أو التغلب عليهم فكروا في انفسهم وحمايتها من فتوة وقوة الفرسان فمكروا مكرهم واخترعوا لهم قصة قبر المسيح عليه السلام ووجوب استخلاصه من أيدي المسلمين ليحولوا قوة الفرسان الضاربة عنهم والممزقة لهم الى ان تندفع بعيداً عنهم نحو الشرق

---

(١) برهيبة ص ٣٨٧.

(٢) روبنسون ص ١٤١.

ضد الاسلام والمسلمين فكان لهم ما ارادوا ونجحوا في اشعال الفتنة وقيام الحرب المقدسة باسم الدين والدين عنها بريء وعما يمكرون بأنانيتهم[1].

وأمكن للكنيسة ورجال الدين بعد تحويل قوة الفرسان الى الشرق ان يحولوا كذلك ثرواتهم في خدمتهم بشراء الأسلحة للمتحاربين ولبناء محطات يستريح فيها الحجاج في الطريق الى بيت المقدس، ولانشاء مستشفيات لهم كذلك[2] وفي نظير كل ذلك من تضحيات وبخاصة اذا بلغ المحارب الدرجة القصوى في محاربة المسلمين وعدائهم والتعصب ضدهم أن يمنحوه لقب « قديس ». فالقداسة عند الكنيسة ورجالها الى الآن هي ثمن معاداة الاسلام والمسلمين والانتقام منهم كما حدث هذا فعلاً ومثلاً في القديس أنين الذي كان ملكاً للمجر والقديس لويس وهو الملك لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية الفاشلة المشهورة ضد مصر وانهزم فيها وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة[3].

هذه هي المبادئ وهذه هي الأهداف التي قام عليها الاستعمار الاوروبي الصليبي في القرون الوسطى وبناء عليها دعا البابا اوربان الثاني المجمع المقدس في مدينة كليرمون في اواسط فرنسا في مقاطعة الأوفرن، وهي عاصمة هذه المقاطعة وهي منطقة جدب جرداء ترفع عيون اهلها في ضراعة واستجداء الى السماء لفقرها وانتظار المطر للزروع القليلة المتناثرة هنا وهناك بها كاتدرائية رهيبة وبجوارها رخامة بيضاء كتب عليها هنا سكن بسكال وهو فيلسوف المسيحية في اوائل العصر الحديث. وقريب منها يقوم مركز القديس لويس وهو لويس التاسع

---

(١) روبنسون ٩٩ — بابيه والبير الكتاب السياسيون في القرن الثامن عشر ص ٧٣.

(٢) برهيبة ٤٩.

(٣) برهيبة ٢٢٥.

الذي أشرنا اليه بأنه هزم في المنصورة. وبعده بقليل هناك ميدان في وسطه تمثال للقائد ديزكس فاتح الصعيد في مصر ابان حملة نابليون بونابرت. فهي مدينة قديمة اثرية منها خطت الخطوة الاولى للحروب الصليبية نحو الشرق للقضاء على الاسلام والمسلمين.

ذلك لأنه في يوم ١٨ /١١ /١٠٩٥ ميلادية أمر البابا اوربان الثاني بدعوة المجمع المقدس في المدينة العتيقة كليرمون[١] دام عشرة ايام. وحضره أربعة عشر من رؤساء الكنائس ونحو مائتين وخمسين من كبار القساوسة ونحو اربعمائة من رجال الدين الآخرين وقرروا وجوب قيام الحرب المقدسة وحمل السلاح ضد الاسلام والمسلمين لتحرير قبر المسيح عليه السلام وسكان الشرق المسيحيين[٢] وحددوا شكل الصليب الأحمر الذي يجب أن يحمله المحاربون ويكون علامة مميزة لهم في ذهابهم وايابهم الى الأراضي المقدسة. وان الكنيسة ستغفر كل ذنوب من يشترك في هذه الحرب وستشرف على أملاك وأسس من يساهمون فيها. وسيطرد من رضائها ويحرم من بركاتها كل من يعلن الاشتراك فيها ثم يتنكر لهذا بعد ذلك ولا ينفذ اعلانه، وحددوا يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ لبدء مسيرة الحرب والسير بها حتى مدينة القسطنطينية كمكان لتجمع سائر روافد جيوش هذه الحرب وعين البابا اوربان الثاني القسيس اوهيمار دي منتال ممثلاً له فيها وخاصة لأنه قد سبق له الذهاب الى فلسطين ويعرف جيداً مسالك الطرق اليها ومناسك الحج فيها[٣].

ولقد بدأت الحرب الصليبية بنحو ثلاثمائة الف مقاتل من مختلف البلاد الأوربية وخاصة من فرنسا بقيادة كونت رايموند دي تولوز. ومن

---

(١) روبنسون ص ١٤١.

(٢) برهيبة ص ٦٣.

(٣) برهيبة، ص ٦٣، ٦٤.

ألمانيا وخاصة من اللورين تحت قيادة جودفروا دي بويون و خيه بلدوين، وجيش مختلط من الفرنسيين والايطاليين معاً تحت قيادة بيهموند ونتانكريد. ولقد أمكن لبولدوين وبمساعدة المسيحيين من الأرمن الخونة في الشرق أن يستولي على الرها بأعلى الفرات ويفرض نفسه أميراً عليها وحاكماً لها. واستولى بيهموند على انطاكية، في حين استولى رايموند دي تولوز على طرابلس. ولكن أهمهم هو جودفروا دي بويون لأنه أخذ واستولى على بيت المقدس وسمى نفسه « حامي حمى القبر المقدس » ولكن سرعان ما توفي وتولى بعده اخوه بولدوين بعد ان ترك الرها في سنة ١١٠٠ ليوسع حدود مملكته ببيت المقدس وقد فعل ذلك بمساعدة الايطاليين من مدينة جنوة وفينيسيا من الاستيلاء على مدينة عكا ومدينة صيدا[١].

وعندما دخل الصليبيون بيت المقدس عاثوا في الأرض فساداً واعتدوا على حرمات المساجد وداسوها بالنعال وسنابك الخيل، واخذوا في قتل المسلمين وحدانا وزرافات وامتلأت بهم الطرقات غير مميزين بين رجال ونساء وشباب وشيوخ ومرضى وأطفال أبرياء. وسالت دماؤهم كالأنهار حتى بلغ ارتفاع الدماء في بعض بيوت العبادة ارتفاع سيقان الخيول ولامست بطونها. وهذا منتهى التوحش والبربرية الصليبية[٢] والتعصب الكنائسي والاستعمار الديني الأعمى[٣] وربما تكون هذه الحرب الصليبية الأولى قد نجحت في الاستيلاء على قبر المسيح عليه السلام وعلى بلاد المسلمين وفي اثارة مسيحيي الشرق ضدهم كالحال في الأرمن ودامت من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٠٩٩ ميلادية.

---

(١) روبنسون ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) كندرسيه ١٢٥، ١٢٦.

(٣) برهيبة ص ٨٢.

ولكنه نجاح فاشل وتغلب زائل لأن المسلمين لم يهدأ لهم بال وجمعوا أمرهم واستردوا بلاد الرها من المسيحيين في سنة ١١٤٤ بفضل البطل عماد الدين زنكي، فتنسم المسلمون الصعداء وانزاح كابوس الصليبيين المفترين من على صدر العراق والذي كان يهدد الخلافة العباسية في تلك الأصقاع.

وقامت قائمة اوروبا وارسلت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ ـــ ١١٤٩) بقيادة الملك الألماني كنراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع ولكنها باءت بالفشل[١] لأن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي كان لهما بالمرصاد فحاصر مدينة دمشق واستولى عليها وطهرها من الفرنجة، ولكن الفضل كل الفضل في القضاء على الصليبيين يرجع الى بطل الاسلام صلاح الدين الأيوبي الذي افنى الصليبية الثالثة (١١٨٩ ـــ ١١٩٢) والتي كانت تحت قيادة امبراطور المانيا فردريك بربا روسا وملك فرنسا فيليب أغسطس وملك انجلترا ريتشارد الأول قلب الأسد. فقد استولى منهم على بيت المقدس وعلى عكا وانتصر في طبرية وفي حطين مما اضطر الصليبيين أن يعقدوا معه صلحاً في الرملة سنة ١١٩٣ وعادوا من حيث أتوا مدحورين مهزومين وبهذا تنتهي قصة الاستعمار الأوربي لبلاد الاسلام والمسلمين في القرون الوسطى.

وهو استعمار قام كما رأينا على أسس باطلة وأهداف ملتوية ولهذا كانت نتائجه فاشلة وغير انسانية لانها من صنع قوم وصفهم جيزو عضو الاكاديمية الفرنسية[٢] بأنهم « برابرة من التفاهة بمكان وعلى هامش الوجود الانساني وعلى كثير من التوحش والغفلة ». ويتضح فشل هذه النتائج وتفاهتها في الامور الآتية :

---

(١) روبنسون ص ١٤٧.

(٢) جيزو ص ٢١٦.

يتشدق بعض البحاث خطأ بأن هذه الحروب الصليبية ساعدت في تقدم التجارة وازدهارها بين الشرق والغرب. ولكن هذا رأي خاطئ لأن هذه التجارة ابتدأت في التقدم والازدهار فعلاً قبل الحرب الصليبية الأولى في اوروبا، كما أنها تسهم اطلاقاً في تقدم المعارف والنهضة الفكرية في القرون الوسطى في اوروبا، وان هذه النهضة العقلية ابتدأت بدورها قبل الحملة الصليبية الأولى تنقل الفلسفات والمعارف اليونانية والعربية الى اللغة اللاتينية هذا ما كان يسمى بحركة الترجمة التي قامت بخاصة في بعض مدن اسبانيا كطليطلة وقرطبة وبعض مدن ايطاليا كنابولي وفينيسيا في ايطاليا وبالرمز في صقلية. بل ان الحروب الصليبية عاقت هذه النهضة لأنها كانت ستسير بخطى أسرع لو لم تقم الكنيسة بهذه البدعة التعصبية[١] التي وقفت حجرة عثرة في طريق اليقظة الأوربية التي ظهرت قبل قيام الحروب الصليبية[٢].

ويذكرون كذلك ان الحروب الصليبية كانت مهمة من ناحية أنها حمت الكنيسة الشرقية، والقسطنطينية ضد تقدم المسلمين في اوروبا — ولكن هذه الحماية كانت مؤقتة واستمرت فتوحات الاسلام وتقدمه في اوروبا الى القرن الرابع عشر الميلادي وقام الترك بوجه خاص بغزواتهم فيها واستولوا على القسطنطينية وغيرها في الوسط الجنوبي لأوروبا[٣]. ويذكرون كذلك ان هذه الحروب أمكنها وقف زحف تيار الحضارة الاسلامية الى اوروبا وبهذا حمت الحضارة المسيحية من هذا الغزو وهذا غير صحيح لأن هذه الحروب جعلت الأروبيين يلمسون عن واقع أهمية الحضارة الاسلامية من حيث معيشة كثيرين من أهلها في مدن راقية ولهم اساليب في المعاملة ارقى بكثير من التوحش والبداوة والأرياف التي منها

(١) كندرسية ١٢٥، ١٢٦.

(٢) لوكاس ص ٢٦١.

(٣) برهية ٣٥٤.

المحاربون المسيحيون، وفهموا معنى السعادة في الحياة والترف فيها بدلاً من الشقاء ونظام التبعية الى الأرض التي جاءوا منها في اوربا، كما تأثروا بفنون الحرب الراقية والتي قضت عليهم وهزمتهم عند المسلمين واقتبسوا منهم بناء القلاع من الحجارة في شكل تربيعي وفي شكل مستدير وهذا ماثل باق الى الآن في بعض بلاد اوروبا كألمانيا وفرنسا وانجلترا[1] كما أنهم نقلوا عن الشرق معرفة البوصلة والصباغة واستعمال الورق وصناعة البارود[2] وهذا غزو اسلامي عظيم واندحار للمسيحية أمام الاسلام من هذه الناحية الانسانية العريقة، ورغم هذا فكل ما تقدم ذكره كان في نظرنا نواحي ثانوية من الأهمية لهذه الحروب الصليبية وأن الأهمية الكبرى لها تنحصر عندنا في النقاط الثلاث الآتية :

أولاً ــ ان الاستعمار الصليبي هو أصل الاستعمار الحديث الأوروبي لأن العقلية الصليبية لا تزال تسيطر عليه ويكفي أن يذهب الماريشال اللنبي الانجليزي وحامي حمى القبر المقدس في العصر الحديث برفقة جورو الفرنسي. (الأول فتح بيت المقدس في الحرب العالمية الاولى وحكم مصر، والثاني ساهم في فتح المغرب وحكم سوريا) في زيارة الى قبر صلاح الدين الأيوبي وقالا أمامه صائحين معا وفي غير ما خجل : « نحن هنا مرة ثانية يا صلاح الدين » ويريدان بذلك القول انك اذا هزمتنا بوصفنا مسيحيين في الحروب الصليبية ابان القرون الوسطى فنحن رغم مرور الزمن الطويل عندنا عقدة الصليب والتعصب ولم نسكت وانما عملنا على انزال الهزيمة على قومك المسلمين وعلى دينك الاسلام في العصر الحاضر وانتقمنا منهم ومنه من جديد، وهذا يدل على النقمة الدفينة وان العقلية الصليبية لا تزال تتحكم في الاستعمار الحديث.

---

(١) روبنسون ص ١٥٠، ١٥١.

(٢) جيزو ص ٣٤٥.

وان التبشير كما سنرى من مسلتزمات هذا الاستعمار الحديث ولا ينفصل عنه، وتحرك الجيوش الأوروبية تحرك مسيحي يباركه رجال الدين المسيحي الذين يرافقون الجيوش ويتبعونها اينما تسير واينما تستعمر[1].

ثانياً — ان الاستعمار الصليبي قامت به نفس الدول التي تقوم بالاستعمار الحديث. فأصحاب الاستعماريين لم يتغيروا وعلى رأس القائمة قديماً وحديثاً نجد فرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا وأسبانيا[2] ومن تفرع منهم في الدنيا الجديدة أي أمريكا فهي جماع من كل هذه العناصر المسيحية. بل ان هذه العناصر احقر بكثير من العناصر الأوروبية لانها تمثل حثالة اوروبا وحقرائها وفقرائها الذين اتجهوا الى الغرب بحثاً عن استعمار الأراضي الأمريكية وان ما فعلوه اي هؤلاء النازحون الى هناك من القضاء وابادة العناصر الأمريكية الاولى وهم الهنود الحمر وأمثالهم ليدل على الوحشية المسيحية الاستعمارية[3] والتي ورثوها من اجدادهم ونزلت في هيكل وجودهم الروحي والفكري ونقلوها معهم الى امريكا. فكلهم ينتمون الى صليبية واحدة هي الصليبية المتعصبة المتوحشة المستعمرة في القرون الوسطى[4].

ثالثاً — ان هذا الاستعمار المسيحي لا يسعى أصلاً في نظري في ماضيه وفي حاضره الى الماديات والسبب الاقتصادي كما يتوهم البعض خطأً لأن من بين هذه البلاد المستعمرة لا ينقصها الخيرات والثروات الطبيعية وانما هي غنية بها سواء على ظهر أرضها أم في باطنها ام في

---

(١) جوبو — ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) روبنسون ص ١٤٤.

(٣) كندسويه ١٢٥، ١٢٦.

(٤) بيراشا ص ٢٨٣، ٢٨٤.

اجوائها ام في سواحلها كالحال في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. فهذه بلاد غنية في زروعها ومعادنها وثرواتها الحيوانية والسمكية، وأجواؤها جميلة ومعتدلة المناخ، ولا ينقصها من هذه الناحية المادية شيء ذو بال.

وان الذي يدفعها الى الاستعمار شيء آخر هو التعصب الديني[1] والعقلية الصليبية التي تعيش بها الى الآن. والتي ورثتها من القرون الوسطى والتي تزكيها وتنميها الكنائس ورجال الدين فيها[1]، فإن الناضجين من رجال الدين المسيحي يشكلون جزءا لا يتجزأ من تحركاتهم العسكرية والسياسية ولازمة ضرورية يدفعون بها الى بلاد الاسلام للقضاء عليهم وعلى المسلمين. ويكفي لاثبات ذلك أن يمسك الزعيم الانجليزي ونستون تشرشل بالقرآن الكريم في البرلمان الانجليزي ويلوح به قائلاً « انه طالما هذا الكتاب قائم فلن نهدأ نحن المسيحيين في مضاجعنا » اي انه يؤرقهم كثيراً، وسبق أن أشرنا الى ما قاله كل من المارشال اللنبي والجنرال جورو أمام قبر صلاح الدين بعد الحرب العالمية الأولى مما يدل على قوة الروح والعقلية الصليبية التي تحكم حكام وقادة المسيحيين حاضراً، وانهم تماماً على شاكلة حكام وقادة الحروب الصليبية بدون أي استثناء. ويكفي للتدليل على صحة ما نذكر ان امريكا ابتدأت استعمارها في بلاد المسلمين في شكل ديني وهو والارساليات التبشيرية الدينية التي اخذت في بعثها هنا وهناك في بلاد الاسلام والمسلمين لمقاومة هذا الدين واتباعه واتخاذ كل السبل الظاهرة والباطنة للقضاء عليه وعليهم[2].

ولهذا كانت أساليب الاستعمار الأوروبي الحديث هي نفس الأساليب

---

(١) المرجع نفسه والصفحات نفسها.

(٢) ينج الشرق الادنى ص ٣١١.

الصليبية القديمة البالية في بلاد الاسلام والمسلمين وتتلخص في النواحي الثمان الآتية :

أولاً : ـــ ان الاستعمار الاوروبي الحديث يؤمن بالأكاذيب عن الاسلام والمسلمين التي خلفتها الحروب الصليبية ـــ ولهذا امتلأت عقلية الغالبية الأوربية بالمفتريات والتعصب ضدنا ولم تستطع حركات تثقيف الشعوب الأوربية من القضاء على هذه المخلفات المنحرفة الغرضة، ولهذا امتلأت الآداب الشعبية الأوربية من ايطاليا شرقاً الى انجلترا غرباً بالأحكام غير الصحيحة وغير السليمة عن عقائد المسلمين وعاداتهم بصفة عامة وعن سيد المرسلين صلوات الله عليه بصفة خاصة ـــ وتتردد هذه الأحكام أحياناً كثيرة في الصحف اليومية والمجلات الشهرية وفي صحف الكنيسة الاسبوعية بل في خطب وعظات القساوسة. وتتردد هذه المفتريات في القصص المتداولة بين الشباب وفي الكتب المدرسية. بل ان مارتن لوثر نفسه وهو زعيم المسيحية الجديدة البروتستنتية يعتبر من أعدى أعداء الاسلام والمسلمين. واتجاهه المعادي هذا أثر بالمثل في اتباعه في البلاد الشمالية الأوربية كالمانيا وانجلترا وامريكا. ولهذا كان الاستعمار الحديث لا يقل اطلاقاً في تعصبه عن الاستعمار الأوربي الصليبي القديم[1].

فمن ذلك يعتبرون الاسلام ديناً محلياً[2] في حين أن المسيحية في نظرهم دين عالمي يعلو عليه[3]، كما يعتبرون، عنصرياً، أن الشعوب المسلمة أدنى بكثير من الناحية السلالية من الشعوب الأوربية التي يجب أن تكون لها السيادة والصدارة وغيرها تابع لها[4] ولهذا يرون ان هناك شعوباً خلقت لتحكم وتسود ولتستعمر،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٧.
(٢) ديمونيين الاسلام ص ١١.
(٣) جوبوص ٨.
(٤) كتابنا فلسفة التاريخ الفصل الأخير عن هردر.

وشعوباً اخرى لها الخضوع وخلقت للتبعية والخشوع، والمسلمون من النوع الثاني حتى ولو كان لهم حضارة في التاريخ فقد قاموا بدورهم وانتهى امره وليس لهم دور ثان جديد فهم أصبحوا من التابعين دائماً ابداً — بهذا نادى فيشته وهردر في المانيا[1] وسيسل رودس في انجلترا وكذلك هربرت سبنسر، وهذه آراء خرافية تمثلها فلسفة التاريخ عند هؤلاء المفكرين الاستعماريين اصطنعت لتأييد الاستعمار من الناحية النازية ولا أساس لها من الناحية العلمية السلالية الانتروبولوجية — فالجنس السلالي الواحد النقي في اوربا أو في غيرها غير موجود — وليس هناك جنس بشري اعلى وآخر أدنى — فعندما نعلم ان الهنود الحمر — ويعتبرون من الأجناس المتأخرة — تفوَّقوا على أهل أمريكا من البيض في الرياضيات، وان بعض الأمريكيين من الجنس الأصفر وصلوا الى جائزة نوبل في امريكا — وهكذا.

ولهذا لا يعتبر أهل الاستعمار المسيحي الحديث المسلمين انداداً لهم وإنما اقل منهم قيمة ولا يقيمون لهم وزناً — ولهذا يكيلون لهم الوعود السياسية ويخلفونها ولا ينفذونها[2] فقد وعدهم مثلا اللوردكتشنر وزير الحربية البريطانية بتأييد الشعوب العربية في تحريرها اذا وقف العرب مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، ولكن هذا الوعد قد تبدد وتشعع وتبخر وكذلك فعل مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر. فقد وعد المسلمين العرب بأنهم سيستلمون مقاليد الحكم نظراً وعملاً في ايديهم اذا دخل العرب الحرب بجانبهم، ولكن هذا الوعد كان كسابقه محض هراء وتدليس.

ولهذا ايضاً كانوا يقيمون الاتفاقات والمعاهدات مع العرب والمسلمين

(١) كتابنا فلسفة التاريخ الفصل الأخير عن هردر.
(٢) بنج ص ٣٢٤ و ٣٢٨.

ظاهرها في مصالحهم وباطنها ضدهم يقيدهم ويربطهم الى عجلة الاستعمار ووضع الحديد في رقابهم وايديهم وأرجلهم لأنها وثائق تجبرهم على الخضوع والتبعية، ومن أمثلة ذلك ما ابرمته انجلترا مع العراق في سنة ١٩٣٠ ومع مصر في سنة ١٩٣٦ ومع الاردن سنة ١٩٤٨.

ثانياً ــ ومن أساليب الاستعمار المسيحي في القرون الوسطى والتي لا تزال تتردد الى الآن عند الاستعمار المسيحي الحديث تقسيمهم لبلاد المسلمين الى دويلات صغيرة يسهل حكمها والايقاع فيها بينها وحكمها بعد ذلك حكماً استبدادياً قد يصل أحياناً الى الاعتداء على مقدسات المسلمين علناً[1] ففرنسا مثلاً هي التي قسمت الشام الشمالي الى سوريا ولبنان وخلقت مناطق جبل الدروز وجبل العلويين ولواء الاسكندرونة ودويلة حلب ــ والانجليز هم الذين فرقوا الشام الجنوبي الى فلسطين والأردن. وهم الذين قسموا السودان الى سودان شمالي وسودان جنوبي. وفرنسا ايضاً هي التي قسمت المغرب بينها وبين اسبانيا التي احتلت منطقة تطوان المراكشية. وايطاليا هي التي مزقت ليبيا الى طرابلس وبرقة وفزان. وحكموا كلهم هذه الأقاليم حكماً استبدادياً يقوم على محو الشخصية الاسلامية فيها.

وكانت وسائلهم في ذلك الاعتداء الصريح على المقدسات الاسلامية وبخاصة الاقلال من رجال الدين الاسلامي، ومحو التعليم الديني الاسلامي وتحويل بعض المساجد الى كنائس ــ وكذلك القضاء على لغة القرآن الكريم وهي اللغة العربية واحلال اللغة الاوربية للمستعمر مكانها وبخاصة الفرنسية[2] منها كما حدث في الجزائر. فقد هاجم

---

(١) روبنسون ص ١٤٤، ١٥٠.

(٢) الشيخ محمد البشير الابراهيمي شيخ علماء الجزائر في هلال يناير سنة ١٩٠٧ ص ١١٢.

المستعمر الفرنسي في الجزائر نظام الأوقاف واستولى عليه ليحرم المسلمين من أملاكهم، وأقفل المساجد والزوايا والمدارس الاسلامية التي تعتمد كلياً على ريعها — ونشر الفقر والبطالة بين المسلمين الذين يعملون في أراضي الأوقاف الشاسعة[1] كما كان يعتمد عليها السائل والمحروم، ولم تتورع فرنسا عن مصادرة هذه الأملاك وحرمت أهلها منها، في حين كانت تصرف من دخلها حوالي ٧٩٠,٠٠٠ فرنك على شئون الدين الكاثوليكي[2] وهذا امر عجيب ففرنسا تفصل الدين عن الدولة في داخلها منذ القرن الثامن عشر اي منذ قيام الثورة الفرنسية[3] ومع ذلك فهي تناقض نفسها بنفسها في خارجها اي في مستعمراتها وتعطف على رجال الدين الكاثوليكي فيها وتنهب أموال المسلمين لتوزعها عليهم لأنهم فرنسيون. وهذا نوع من السرقة والاستبداد والخروج بهذه الأموال من أغراضها الحقة التي حددها اصحاب الوقف الاسلامي. ولكن هي القوة الغاشمة الفرنسية تفعل بالمسلمين ما تشاء.

كل هذا يحدث بأمر السلطة الحاكمة سواء كانت عسكرية أو تبشيرية او سياسية، وامر الحكومة نافذ لا محالة ودون نقاش أو جدل، والمسلمون عليهم أن يفعلوا ما يؤمرون به فقط فهم تبع وعليهم الاستسلام المطلق لسادتهم من مسيحيي اوربا الظالمة وأمريكا المفترية — فمثلاً في مراكش كانت دار المقيم العام الفرنسي هي الأمرة والناهية في كل انحاء البلاد وكانت تتولى الأمن العام والجمارك والضرائب وتدير اوقاف المسلمين وتغلق كتاتيبهم وتشرف على التشريع والبريد والتلغراف وسبل المواصلات واصدار النقد وتوزيع الثروات على شركات الاحتكار

---

(١) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٢) لارشير صفحة ٦٣٢.

(٣) روبنسون ص ٤٧١، ٤٧٤، ٥٨٨.

وتمنح الأراضي لمن تشاء بغير حساب كل هذا في دائرة الشئون المدنية، ولكن هناك مناطق عسكرية الأمر والنهي فيها للقائد العسكري المقيم فيها. وهو أشد طغياناً وجبروتاً لأن السلطة كل السلطة في يده ولا راد لحكمه وتكفي ارادته لنزع الملكيات والقاء الأبرياء في السجون ويحكم بالأعدام على من يريد، ويُخلي قرى بأكملها من السكان، لقد قاسى المسلمون في مراكش كثيراً من الاستعمار الفرنسي الحديث منذ سنة ١٩٠٢ فهم دائماً تحت الاحكام العرفية، ومهددون دائماً في حياتهم الخاصة والعامة، ويجند اولادهم للحروب ويوضعون عادة في الصفوف الاولى في القتال أمام فوهات المدافع ويرسل شبابهم الى المعتقلات والسجون اذا احتجوا أو تذمروا.

حتى في الحالات التي تمنح فيها هذه الدول المستعمرة بعض مظاهر التحرير والديمقراطية كالدساتير وقيام الأحزاب فيها فهذه امور كلها للتمويه والكذب والديمقراطية الزائفة ــ ولم تمنح الا لتضمن خضوع المسلمين لها لأنها وسائل لاعتداء بعضهم ضد بعض وانشغالهم بأنفسهم ليبقوا منقسمين مستضعفين أمام المستعمر المسيحي وخاصة في صورة أحزاب متناحرة وفرق متحاربة وهذا هو السبب البعيد لمنحهم اياها للمسلمين كما حدث مثلاً في دستور سنة ١٩٢٣ في مصر والذي سمح بقيام برلمان لم يدم مرة سوى ٢٤ ساعة فقط بعد الانتخابات لأن الملك فؤاد أمر بحله، وكانت هذه مهزلة من مهازل الاستعمار السياسية ــ باسم العطف على الوطنيين.

يقول السيد الرئيس محمد أنور السادات في هذا المعنى في كتابه القاعدة الشعبية صفحة ٥ ما نصه « كانوا يسمون هذا النظام نظاماً ديمقراطياً (اي نظام ما قبل الثورة في العهد البائد). يتمتع فيها الشعب بحكم نفسه وبالسيطرة على مصيره. ونحن نعلم جميعاً أنه كان أسوأ نظام عشنا فيه ــ لقد كانت ديمقراطية فعلاً لكن بالنسبة لأولئك الزعماء

وانسبائهم وأقربائهم وكانت أبشع أنواع الدكتاتورية بالنسبة للشعب بالنسبة للمجموع بالنسبة للفلاحين بالنسبة للعمال بالنسبة لجميع طوائف هذا الشعب لأن الحكومة كانت تحكم وهي في واد والشعب في واد آخر .. وهكذا ظللنا اكثر من ٥٠ سنة نحكم بواسطة أجهزة وكانت هذه الأجهزة كلها يسيطر عليها المستعمر وهو بريطانيا » (ص ٧).

ثالثاً ــ ومن أساليب الاستعمار المسيحي في القرون الوسطى والتي تقوم الى الآن في الاستعمار المعاصر: الاستغلال الاقتصادي[1] والاستيلاء على خيرات بلاد المسلمين ونشر الفقر والجهل والمرض في ربوعهم حتى لا تقوم لهم قائمة، ومن أمثلة ذلك وضع اليد على قناة السويس والتي كانت تدر دخلاً سنوياً يقرب من مائة مليون جنيه سنوياً، وكذلك احتكارات المعادن مثل احتكار استخراج البترول في البلاد الاسلامية وتصديره لبلاد المستعمر لأنه أساس الطاقة وأساس قيام الصناعات بل وأساس الحياة الاقتصادية كلها في البلاد الاستعمارية يؤخذ بثمن بخس ليغتنوا وينعموا ويحرموا اهالي البلاد المسلمين منه ومن أثمانه الباهظة التي يباع بها ليبقوا في الفقر والفاقة مع أن عندنا ثلثي المستودعات البترولية في العالم بحيث تمثل احتكارات البترول اكبر مؤامرة استعمارية على انتهاك حقوق المسلمين واستنزاف موارد بلادهم في صالح أهل اوربا الباغية وامريكا العاتية، وهم يحركون كل امكانياتهم المالية والسياسية والعسكرية لحماية هذه الاحتكارات، فمثلاً تدخلت امريكا بالفعل لاقصاء الرئيس مصدق عن الحكم في ايران لانه اراد تأميم البترول في بلاده وابقائه في أيدي الوطنيين بدلاً من أن يقع بترول عبدان في ايدي أمريكية محض، ومن ذلك ايضاً استغلال الفرنسيين للنحاس في موريتانيا منذ عام ١٩٥٦ ويواصلون ذلك الى الآن، وفي مراكش تستغل فرنسا البترول والفحم والحديد.

---

(١) روبنسون ص ١٥٠.

اما من الناحية الزراعية فقد اخذت فرنسا في الجزائر، مثلاً، تنهب هذه الثروة الزراعية نهباً[1] وذلك بمصادرة أملاك الأهالي، وتجعل أراضي الحكومة والدولة وخيرات الأمة كلها وقفاً على المستعمرين الفرنسيين ومن يلوذ بهم من طريدي الجنسيات الاخرى. واستمروا في ممارسة ذلك من سنة ١٨٣٠ م الى سنة ١٩٤٧ م وانتهوا بفرض الفقر والبؤس على شعب الجزائر بأسره.

وتتلخص سياسة المصادرة هذه في الاستيلاء على الأراضي الخصبة الجيدة بالقوة ونزع ملكيتها اغتصاباً وطرد كل سكانها منها واحلالهم بالمهاجرين الفرنسيين، وكانوا في سنة ١٨٧١ م من الألزاس واللورين. وعندما ثار الجزائريون عاقبتهم فرنسا بنزع ملكية خمسة ملايين فدان في جهة قسطنطينية، وطُرد ملاكها ومزارعوها دون ان يعوض أصحابهم بشيء وهذه السياسة الظالمة اتبعتها كذلك في البلاد الاسلامية كل من ايطاليا واسبانيا وروسيا ضد مسلمي القوقاز واسرائيل في فلسطين.

وهذه الأراضي المنزوعة الملكية أصبح ملاكها من الوطنيين اجراء وعمالاً بعد ان كانوا اسيادها، ولم تزرع بمحصولات تفيد الشعوب كالقمح وإنما زرعت بمحاصيل في صالح المستعمر وبخاصة الكروم ولصناعة الخمور والأنبذة الحرام التي يشربها الفرنسيون، ولهذا هبطت ملكية الجزائرين من الأراضي الزراعية كثيراً ولم يرثوا من بعدها الا الفقر والفاقة على يد المسيحيين المستعمرين وأعوانهم[2].

رابعاً : ومن أساليب الاستعمار المسيحي في القرون الوسطى والتي لا تزال قائمة ويتبعها الاستعمار الاوربي الحديث سياسة السطو والنهب والقتل في بلاد المسلمين[3] فمن أمثلة السطو ما عمد اليه المستعمر

---

(١) الشيخ محمد البشير الابراهيمي — المرجع السابق ص ١١٢، ١١٣.
(٢) الشيخ الابراهيمي — المرجع السابق ص ١٠٨، ١٠٩.
(٣) برهيبة ص ٧٠، ٨٢.

الفرنسي في مراكش من تملكه نحو مليون هكتار من خمسة ملايين تزرع عادة فقط بعد استعباده للبلاد، ونقول عادة لأن البلاد بها ١٥ مليوناً ممكن زراعتها ومع ذلك يهملها الاستعمار الفرنسي لزيادة الفقر بين الأهالي. بحيث لا يزرعون الا اربعة ملايين هكتار فقط وعددهم مليونا عائلة من الفلاحين اي بمعدل ٢٠٠ هكتار لكل مستعمر وهكتارين فقط لا غير لكل عائلة من الفلاحين المغاربة. ورغم هذا جرد أغلب الفلاحين من أملاكهم باسم المصلحة العامة وألحقوها بأملاك الدولة ثم باعوها للمستعمرين. وقد اعترف بهذا المرشال ليوتي نفسه أبو الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا ووزير حربية فرنسا حين قال « ان فرنسا قد اضطرت الى دفع بعض الفرنسيين الى احتلال الأراضي بالقوة وتملكها وادارتها لصالحهم ضاربين بعدم قانونية هذه الملكية عرض الحائط ».

ومن امثلة السطو في الجزائر ان الاحصاءات تشير الى ان من بين عدد الملاك الوطنيين يوجد مليون و ٣٠٠ الف فقط يحوزون هكتارين كمعدل في المتوسط بينما ان بين ٢٥ الف اوربي مستعمر يوجد ٧٥٪ يحوزون اكثر من مائة هكتار اي بنسبة ثلاثمائة هكتار للفرد الواحد. هذا الى ان هناك كثيرين يملكون عشرة الاف و ١٥ الف هكتار، وهذا منتهى السطو والجشع والاستغلال[1].

أما بالنسبة للنهب ففي سنة ١٩٤٦ نزل البرتغاليون المزارع بقرب مدينة كانافور في الهند فدمروا الممتلكات واستولوا عنوة على الحاصلات. واعتدوا على الأهالي وقطعوا نحو ٤٠ ألف شجرة جوز هند لاستعمال اخشابها دون احترام حق الملكية أو حتى الحرية الشخصية[2].

ومن أمثلة النهب كذلك ما يذكره الجنرال جورو في كتابه بعنوان

(١) سيزار الاستعمار ص ١٦، ١٧.

(٢) كرشنا المرجع السابق ص ٣٨.

« في مراكش » ما نصه: « استولينا على كل ما تركه المقاومون المغاربة من المواشي والبهائم وكان من نصيبي عباءة من الصوف جاءني بها ديجول .. ثم استولينا على مناحل العسل الأبيض الشهية ... وبعد ان قطعنا مسافة طويلة ومتعبة تبلغ نحو الأربعين كيلومتراً نزلنا في مدينة مكناس، وفي الصباح هجمنا على قرية بني عامر ولكن وجدناها خالية من الأهالي ... فنهبناها لأننا استولينا على حوالي الف رأس من الغنم ومائة ثور وعشرات من الخيول والبغال والحمير ... وكميات من الزبدة والزيت وقذائف اسبانية » ...

اما عن القتل فهو اما مباشر واما غير مباشر .. فمن أمثلة القتل المباشر الفتك بنحو ٤٥ الف قتيل في الجزائر سنة ١٩٤٥[1] وان داغاما الحاكم البرتغالي أغرق مئات من الحجاج المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً أمام شاطئ غوا حيث وقف يستمتع بهذا المنظر البشع من برج المراقبة على ظهر سفينة بمنظار مقرب[2]، ومن الأمثلة الوحشية تعامُل البرتغاليين في مستعمراتهم مع المسلمين في سنة ١٩٥٥، إذ كلما شعر الحاكم فرنسسكو باريتو المتوحش حاجة الى المال أنزل رجاله على شاطئ السند وهاجم مدينة نائا وقتل وذبح تسعة آلاف من سكانها المسلمين ثم ملأ سفنه بما نهبه[3] ومنها فظائع القتل في ليبيا التي قام بها الايطاليون ضد الأهالي المسلمين وبخاصة القتل العمد البشع للزعيم المسلم عمر المختار هذا الكهل الذي اخذه الايطاليون في طائرة صعدت به في الجو ثم لم يتورعوا ان ألقوه من العلو الشاهق الى الأرض فهوى قتيلاً شر قتلة.

اما الموت غير المباشر فمن أمثلته في مراكش وتحت الاستعمار

---

(١) سيزار ص ٢١.

(٢) كرشتا ص ٣٧.

(٣) كرشتا ص ٧٤.

الفرنسي الغاشم سكن الملايين من المسلمين في عشش من الصفيح وأكواخ من خشب الصناديق الفارغة، لا تتوافر فيها الشروط الصحية. يختنقون فيها صيفاً ويموتون مثلجين فيها شتاءً. هذا غير ما يغشاها من الذباب والحشرات والغبار والحرائق وما يبتليها من الفيضانات الجارفة والاوبئة الفتاكة. وهذا بجانب ضعف الرعاية الصحية: فهناك في مستشفياتها نحو ثمانية آلاف سرير ثلثها يحتكره الأوربيون. وإن عدد الأطباء في الحكومة نحو ٢٥٠ طبيباً أي بمعدل طبيب واحد فقط لكل ٣٦ ألفاً من السكان كما أن واحداً من كل ثلاثة مغاربة تحت الحكم الفرنسي الظالم مصاب بالدرن وان كل واحد من اربعة منهم مصاب بالزهري. وان حوالي ٨٠٪ من سكان الجنوب مصاب بالتراخوما. وان نحو ستة آلاف مصاب بداء البرص المعدي اللعين ومع الأسف ليس لهم مستشفيات تأويهم وإنما تتركهم حكومة الاستعمار المسيحية الفرنسية يتجولون بحرية تامة لنشر مرضهم المؤذي بين اكبر عدد ممكن من المواطنين المغاربة[1].

وان ما يقدمه الاستعمار من نهضة في بعض المستعمرات كمد الطرق الحديدية وانشاء الطرق والجسور والقناطر والمنشآت الكهربائية ... الخ. ما هي الا وسائل لخدمة المستعمر نفسه ولمنافعه الخاصة ولأعوانه من الأقليات ممتصة دماء الأغلبية من المسلمين. فمثلاً كون مصر هي ثاني بلد في العالم تمد فيه السكك الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة، كان ذلك في صالح الانجليز اصلاً لا في صالح المصريين بالذات لأن هذا الطريق كان ولا يزال في دلتا النيل التي يسكنها ثلثا السكان. فكان وسيلة لتوزيع البضائع الانجليزية فيما بينهم. وان الاسكندرية هي المدينة التي يتجمع فيها القطن وهو المحصول الرئيسي المصري لشحنه الى انجلترا لتصنيعه

---

(١) باطا ص ١٠٠.

واعادته بضاعة مصنعة بأعلى وأغلى الأسعار والأثمان ليوزع من جديد بين الأهالي فالمسألة مسألة استغلالية محض في صالح الاستعمار والمستعمرين لا المسلمين من أبناء المستعمرات.

خامساً : ومن أساليب الاستعمار المسيحي في القرون الوسطى والتي لا تزال قائمة ويأخذ بها ويحترمها الاستعمار الاوربي الحديث تحويل المساجد في بلاد المسلمين الى كنائس وادعاء حماية الأقليات المسيحية وغير المسيحية[1]. فمن ذلك عندما دخل الصليبيون مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ في الحملة الصليبية التي قادها الفاشل لويس التاسع ملك فرنسا ضد المسلمين حولوا الجامع الكبير فيها الى كنيسة وكان الأمر الديني بذلك التحويل قد صدر منذ سنة ١٢١٩ فأصبحت عادة تحويل مساجد المسلمين الى كنائس بدعة يجب الأخذ بها عند الفتوحات المسيحية، وهذا ما حدث بعد سنة ١٨٣٠ عند ما فتح الفرنسيون بلاد الجزائر، فقد أحيوا هذا التقليد من جديد وحولوا كثيراً من مساجدها الى كنائس كاثوليكية وهذا منتهى الاعتداء الصارخ على مشاعر المسلمين من أهل البلاد وامر مخالف للدساتير الحديثة التي تدعى كذباً حماية حرية العقيدة واولها دستور الثورة الفرنسية. وبهذا تدفن فرنسا مبادئ ثورتها في القرن الثامن عشر في الوحل والطين وتتنكر لنفسها بأنها تفعل غير ما تعلن وتظهر غير ما تبطن وأن ما تدعيه من مناصرة الحضارة والسلام والانسانية ما هو إلا ذرٌّ رماد في العيون وكذب وخداع.

كل هذا لفرض الصبغة المسيحية الكاثوليكية على أهل الجزائر، ويقول في هذا الكاردينال لافيجري عندما عين رئيساً للدين في الجزائر والصحراء والسودان مخاطباً مرؤوسيه من القساوسة بما نصه : « يجب أن نجعل من الجزائر شعباً **مسيحياً** على صورة فرنسا فتصبح لها بنتاً أو

(١) برهيبة ص ٨٧، ٢٠٣.

اختا وان ننشر فيها حضارة ترتكز على الانجيل **كأساس** لها وكقانون عام يحكمها.

وان هذا الاتجاه يجب أن يسري حتى في الصحراء التي تسودها البربرية والهمجية (يقصد الاسلام برثران ص ٩٢) وبهذا نربط برباط المسيحية فيما بين افريقيا الشمالية ووسط افريقيا وهذا هو الهدف الذي حدده الله لنا وحددته الكنيسة والوطن وهو هدف مقدس جليل (برثران في كتابه : « مجابهة الاسلام ») ص ٩٥.

وهذه هي الخطة التي وضعها الكردينال لاتباعه من الآباء البيض والذين كوَّنوا هيئتهم في سنة ١٨٦٨ لخدمة التبشير والاستعمار في الجزائر وغيرها.

بل لقد حدث ما هو أقبح من ذلك في الاعتداء على مقدسات المسلمين فلقد حول الانجليز مسجد الظاهر بحي العباسية بالقاهرة مرة الى اصطبل خيل وهي خيل فرق السواري الانجليزية التي كانت تعسكر في هذه الناحية بالعباسية ومرة أخرى حولوا هذا المسجد الى سلخانة اي مجزر لذبح الخنازير لتموين هذه الفرق العسكرية الانجليزية باللحم وحيث سالت دماؤها النجسة المحرمة في الاسلام. وهذا كله امعاناً في التعصب الديني والنقمة والانتقام من صاحب المسجد وهو الظاهر بيبرس الذي دوخهم وهزمهم وانتصر عليهم في الحروب الصليبية ابان القرون الوسطى. ورغم مرور هذا الزمن الطويل لم تهدأ الضغينة الصليبية في أعماق نفوسهم وأتوا بهذا الانتقام اللعين الذي يشمئز منه كل وجدان مسلم.

أما عن ادعاء حماية الأقليات، فقد عمد الانجليز، مثلاً، الى بث روح الفرقة بين المسلمين من جهة واخوانهم الأقباط من جهة اخرى مع أن الكل متحابون وفي وحدة تامة وكل منهم يحافظ على الجبهة الداخلية سليمة

احتراماً لدعوة السيد / الرئيس / محمد أنور السادات بضرورة الوقوف داخلياً صفاً واحداً متراصاً كالبنيان يشد بعضه بعضاً دون فرقة أو نشاز أمام العدو المستعمر. وكذلك ادعى الانجليز حماية الأجانب الذين نعتتهم بالأقليات كالجاليات اليونانية والايطالية والأرمنية وغيرهم. مع أن المصريين بطبيعتهم يكرمون عادة وفادتهم ويعاملونهم أحسن معاملة. وانشأ لهم الانجليز المحاكم المختلطة وفضلتهم على المصريين بما نالوه من امتيازات لتمكينهم من حيازة رؤوس الأموال الضخمة عقارية زراعية وصناعية كالحال في نوس بك الذي احتكر صناعة السكر لأوجاناكليز الذي احتكر صناعة السجاير وصناعة الكروم وصناعة الأنبذة وسكلاريدس الذي احتكر القطن وغيرهم .. ووهبتهم الوظائف الكبيرة حتى بلغوا رئاسة الوزارة كالحال في نوبار باشا وارثين باشا وبوغوص باشا وقطاوي باشا .. هذا عدا الألقاب الرفيعة المذكورة وغير ذلك.

وفي السودان خلقوا النزعة العرقية بين العرب وغير العرب وقسموه الى سودان شمالي وسودان جنوبي وأثاروا كل واحد ضد الآخر. بل قسموا المسلمين أنفسهم الى طوائف كالمرغنية والمهدية والتعايشية. وفي العراق اثار الانجليز ايضاً الخلافات بين اهاليه وقسموهم الى سنيين وشيعة وعرب واكراد وبين مسلمين بوجه عام ومسيحيين آشوريين.

أما فرنسا فقسمت بلاد الاسلام في شمال افريقيا الى عرب وبربر وناصرت البربر ضد العرب توهماً منها أنهم أسهل لغرس سياستها الاستعمارية من جهة ومن جهة أخرى فإن جهلهم بالاسلام اذا قورنوا بالعرب يمكن خضوعهم بسهولة الى النفوذ الفرنسي والنفوذ الديني الكاثوليكي كما سنرى عند الكلام عن التبشير وبخاصة عند ذكرنا للمبشر الأب دي فوكر[1] واعتبرت فرنسا اليهود في تلك الاصقاع أقلية وأقلية فاعلة لها

(١) بيزان ص ٨٧/٧٠.

نفوذها الكبير لأن لهم الكلمة العليا في فرنسا نفسها عندما حكمها منهم الزعيم ليون بلوم كرئيس للوزراء وقد عزز الحركة العمالية فيها والشيوعية كذلك. وكان أغلب وزرائه من اليهود كذلك أمثال جان زاي ومنديل ومدام برنشفيك وغيرهم.

ان الأقليات غير الوطنية نقمة على أهل البلد ودخلاء فيه يحاربون الأغلبية وهم في حماية المستعمر ويتعالون عليهم ويتمايزون عنهم ويسمونهم « اولاد البلد » عندنا هنا في مصر وفي المستعمرات الفرنسية يسمونهم « لي سيدي » اي المسلمون الذين يعتقدون في خرافات الأولياء والأسياد. وهذا التعالي تنحصر أسبابه فيما يأتي: ان هذه الأقليات تعيش عيشة مترفة في حين تحيى الأغلبية حياة كلها الفقر والبؤس والعوز عادة. وان الأقليات تكون ارستقراطيات تنعزل عن الشعب وتسكن أحياء راقية في الغالب بجوار الحاكم الأجنبي كالحال في جاردن سيتي عندنا في القاهرة وسكنهم حول دار المندوب السامي التي كانت تسمى دار الحماية. في حين يسكن الشعب البائس الأكواخ الحقيرة في زينهم وبولاق وعشش الترجمان .. الخ. وان الأقليات تتوهم الرقي السلالي على الأهالي فهم أجناس بيضاء كالمستعمر وأحياناً يتزوجون نساء من بلاده أو أن المستعمر يفعل العكس فينشأ بينهم وبين المستعمر نسب وتواصل ورحمة ونقمة منهم أجمعين ضد أولاد البلد سمر الوجوه من المسلمين.

والأقليات لهم مدارسهم الخاصة ولهم كنائسهم الذاتية وكل هذا خشية الاحتكاك بأهل البلد لانهم يتوهمون أنهم من طينة أعلى وأرقى فلا يجالسونهم ويجاورونهم في السكن أو الدرس أو العبادة بل يحرم الأهالي احياناً من حق التعليم بأن يقفل المستعمر المدارس الأهلية والاسلامية كما حدث في الجزائر والمغرب تحت الحكم الفرنسي[1] ليبقى اهل البلد

---

(١) الشيخ الابراهيمي ص ١٠٨، ١٠٩.

في جهل وتأخر ويسهل حكمهم. ويهتم المستعمر بالذات بغلق المدارس الدينية الاسلامية التي تثير الأهالي وتكون شخصيتهم الذاتية فيعملون ضده. واذا سمح للأهالي بالتعليم ففي حدود التعليم الابتدائي والثانوي فقط ليكونوا موظفين صغيرين حقيرين يفعلون ما يؤمرون به. ولهذا عشنا في مصر مثلاً مدة طويلة من غير التعليم العالي ومن غير جامعات اطلاقاً تحت الحكم الانجليزي. حتى التعليم الابتدائي في وقت ما كانت له مدرسة واحدة لا غير حكومية هي المدرسة النصرية ومدرسة ثانوية واحدة فقط هي المدرسة الخديوية بدرب الجماميز. ولكي تحتفظ الأقليات بمركزها المرموق وبقوتها ضد الأغلبية وتتغلب عليها تعتمد عادة كل الاعتماد ــ وكما يذكر دوركيم[1] ابو علم الاجتماع الحديث في كتابه عن الانتحار ــ على الدين وعلى العلم فهما السلاحان الماضيان اللذان يحاربون بهما أهل الأغلبية في البلاد التي يقيمون فيها. لأن الدين أو الكنيسة تجمع شملهم وتوحدهم وتقدم لهم الخدمات الأدبية والمادية لتمكنهم من محاربة المسلمين. ولأن التعليم يرفعهم عقلياً ويصبحوا بفضله ارقى من المسلمين.

ويمكنهم احتكار الوظائف الحيوية في البلاد ويسيطروا عليهم وهم في سيطرتهم يكونون في خدمة المستعمر وأكبر جواسيس له على الأهالي ويكونون دولة في داخل الدولة ضد[2] الأهالي.

سادساً : ومن أساليب الاستعمار المسيحي القديم والتي لا تزال قائمة يأخذ بها الاستعمار المسيحي الحديث ما اسميه بـ « العقيدة الصليبية » وهو نوع من المرض النفسي المتقطع أصاب المسيحيين الكاثوليك في أوربا فملأهم بالعدوان والغرور ويميلون بسببه دائماً الى تكرار الحرب

(١) دوركيم ــ الاتحاد الفصل عن الانتحار عند اليهود.

(٢) جرين علم الاجتماع ص ٣١٦.

المقدسة واعادتها من حين الى حين والاستمرار بها. فإذا سكتوا فترة عن حرب الصليب حنوا اليها ومالوا الى الاعادة والتكرار وهذا دواليك.

وهذا راجع الى ان الحروب الصليبية كانت بهذا الوضع على فترات ولمدة طويلة وتبلغ نحو اكثر من قرنين من الزمان، وراجع كذلك الى ضعف الناحية الاشتراكية في مسيحية الكنيسة[1] والتي تُشعر الناس عادة بالحرية والاخاء والمساواة. فالكنيسة تسير على قاعدة « من ليس مني فهو عدوي »[2] وقسم الناس صنفين: قسم متعالي له السيادة وله الحرية وله المساواة وله الاشتراكية. وقسم اقل قيمة له التبعية والتعصب والبغضاء وهو قسم غير مسيحي وفي حالتنا في هذا الكتاب هم المسلمون الذين لهم الشكل المعكوس لكل المعاني المسيحية سابقة الذكر. واذا كانت المسيحية اصلاً تقوم على فضائل ثلاث هي : المحبة والاحسان والأمل فهي للمسيحيين فقط دون غيرهم عند المستعمر. والمسلمون من هذا الغير ويجب أن يعاملوا بشكل معكوس مقلوب أي بالكراهية والعدوان واليأس. وهي هذه الرذائل الكبرى التي قام عليها الاستعمار المسيحي قديماً وحديثاً.

للمسلمين الكراهية عند المستعمر وأعوانه لأنهم كفار وليسوا من أتباع المسيح عليه السلام وللمسلمين العدوان والحرب والقتل والذبح في المستعمرات لأنهم مارقون لا يتبعون المسيحية وللمسلمين كل دواعي اليأس من فقر وجهل ومرض لأنهم من طينة اخرى غير طينة المسيحيين. هذا التعالي يتمشى مع مبادئ الرأسمالية الاستغلالية التي تؤمن بالاحتكارات واغناء فئات من الناس على حساب فئات اخرى اقل منها. والأخذ بنظام الطبقات : طبقات عليا وطبقات دنيا. طبقات لها السعادة والأمن وطبقات لها الفقر والبؤس والشقاء. ولهذا كان اتجاه الكنيسة

---

(١) روبنسون ص ١٢٦.

(٢) بيراثا ص ٢٨٣.

اتجاه صراعي يؤمن بتحارب الطبقات وبتناحر الشعوب بل ان الكنيسة الكاثوليكية نفسها هيئة تقوم على نظام الطبقات[1] ـــ الطبقات الدنيا من القساوسة والتي يجب أن تخضع خضوعاً مطلقاً للطبقات العليا فيها وإلا حوربت واقصيت من بركات الكنيسة ونزل عليها غضبها.

هذه العقيدة الصليبية لن يتنحى عنها المسيحيون في اوروبا الا بتقديم التفكير الاشتراكي الذي يساوي في القدر بين الناس ولا يؤمن بنظام الطبقات ولا يؤمن بتسامي الأديان من أن بعضها محترم والآخر حقير مرذول. وهو تفكير يؤمن بالاخاء العالمي القائم على الانتاج لا على الغفلة والتبعية ـــ وان الاشتراكية اليوم تسير وتتقدم لأننا لو احصينا عدد النظم الملكية في العالم لدهشنا من قلة عددها بالنسبة للقرن الماضي. وان الأغلبية السائدة في الحكم اليوم في سائر القارات السيادة فيها للحكم الاشتراكي[2] ولهذا أخذ الاستعمار الاوربي يحسب لهذا حسابه وأخذ يحارب الاتجاهات الاشتراكية في المستعمرات الاسلامية وفي البلاد الحاكمة نفسها.

ومن الأمثلة على ذلك مصر فهي عندما نحت النحو الاشتراكي قامت تحارب الاستعمار الانجليزي وأمكنها طرد الانجليز من منطقة القنال ثم أممت القنال نفسها، ولما تملكت المستعمرين العقدة الصليبية ضدها، حاولوا في سنة ٥٦ اعادة غزوها. فتجمعت بريطانيا وفرنسا واسرائيل وخلفهم أمريكا بدعمها لهم لأن دالاس وزير خارجيتها دعا في مؤتمر لندن في شهر أغسطس ١٩٥٦ بتدويل قناة السويس وحرمان مصر من سيادتها عليها وعلى اراضيها. وقد اتخذوا من التأميم ذريعة باطلة في مهاجمة مصر عسكرياً في أواخر السنة نفسها (اكتوبر ونوفمبر) ولكن الحملة باءت بالفشل وهزمت الحملة الصليبية الجديدة وأبلت مدينة بور

(١) لوكاس ص ٣٩٥.
(٢) تومسون ص ١٨٦.

سعيد الباسلة في معركتها بلاء منقطع النظير. وفي هذا يقول السيد الرئيس محمد انور السادات ما نصه « نحن نذكر أنه في الحرب العالمية الأخيرة استسلمت فرنسا لجيوش هتلر بعد ١٥ يوماً من الهجوم عليها. ومع ذلك فان اساطيل انجلترا وفرنسا وحلف الاطلنطي هاجمت مدينة صغيرة في مصر هي بور سعيد اكثر من ٤٠ يوماً ولم تستسلم بور سعيد وهذا درس كبير »[1]

سابعاً : ومن الأساليب الصليبية التي تنزل الآن في الاستعمار الحديث ما اسميه « بالعقلية الاستعمارية » والتي ما هي الا صدى وترديد « للعقلية الصليبية القديمة » والتي تركزت ــ كما رأينا ــ في كلام البابا اوربان الثاني وغيره في مطلع هذا الفصل الأول من كتابنا هذا عندما ذكرنا الأسس التي قام عليها الاستعمار الصليبي سابقاً. وهي مرض نفسي دفين هو التعصب اللعين الذي قد يقع في داخل المسيحية نفسها وبين المسيحيين انفسهم لا على الاسلام والمسلمين فقط كما هو قائم فعلاً الى الآن بين الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا والذي يبلغ حد الارهاب المسلح بالقتل والاغتيال، وحرب الثلاثين سنة فيما بينهم في القرن « ١٧ ». وأهم من يعبر عن هذه العقلية الواحدة في اتجاهها العدواني ضد الاسلام والمسلمين المزدوجة بين الامس واليوم في القرن العشرين هو المفكر الفرنسي عضو الاكاديمية الفرنسية لويس برتران في كتابه بعنوان « في مواجهة الاسلام » صفحات ٥٠ و٥١ و ٥٢ و ٥٣ وغيرها. فهو يجتهد بعقليته الاستعمارية الصليبية أن يحدد صفات المسلمين تحديداً كله التعصب الممقوت والتحامل المرذول عليهم. ويذكر ان السبب الأصيل لهذه الصفات في الاسلام لأنه هو نفسه يتصف بها تماماً وهو يحددها بالشكل الآتي :

١ ــ أن المسلمين خونة لأنهم على كثير من الغش والنميمة

(١) الرئيس محمد انور السادات ــ القاعدة الشعبية ص ٣٦/٣٥.

ويظهرون ما لا يبطنون (صفحة ٥٠). وهذا غير صحيح لأن دينهم الذي يتوهمه خطأ هو السبب في ذلك يقول بعكس هذا تماماً فسبحانه وتعالى يذكر في القرآن الكريم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون** ﴾[1].. فالاسلام بريء من هذه التهمة الباطلة وينهى المسلمين عن فعل ما يتوهمه برتران بعقليته الاستعمارية الصليبية.

٢ ــ ويقول برتران ان العداوة متأصلة في المسلمين ضد الاوربيين بسبب الدين (صفحة ٨٦ و ٩١ و ٥٠) مهما أظهروا الرضا والصداقة لهم. ويجب معاملتهم بالمثل والقسوة. وهذا غير صحيح لأنه سبحانه يقول ﴿ **لا أكراه في الدين** ﴾[2].. وان السيد المسيح عليه السلام كان ﴿ **وجيها في الدنيا والآخرة** ﴾[3] وان الانجيل فيه ﴿ **هدى ونور** ﴾[4]..

٣ ــ وان المسلمين عدوانيون طبعوا على الشر، ولذلك هم على كثير من التهور والاندفاع ويجب أن يعاملوا بنفس الصفة (صفحة ٥١) وهذا غير صحيح كذلك لأن الله يقول ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾[5]. ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾[6].

٤ ــ ان المسلمين يكتفون بالقليل ولهذا هم بلداء ولا يتحركون ولا ينشطون من أنفسهم وأخذوا على الاتكال على غيرهم دون القيام

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٥.

(٤) سورة المائدة الآية ٤٦.

(٥) سورة البقرة الآية ١٩٠؛ والمائدة ٨٧.

(٦) سورة فصلت الآية ٣٤.

بمجهودات منتجة وابتكارات فريدة ممتازة، ولذلك هم خلقوا ليكونوا تحت الوصاية والحماية الأوربية المسيحية (صفحة ٥١، ٥٤، ٩١، ٩٢) وهذا ايضاً غير صحيح لأن دينهم يحترم العلم والاجتهاد. يقول سبحانه ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[1]، ويقول ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[2].

٥ ــ ان المسلمين كآلات الصماء لا قيمة لهم بغير الاوربيين فهم كالذراع في جسم الفرد والذي يجب أن يتحرك تبعاً للعقل، والعقل هو التفكير الأوربي (٥٢) وانهم مرتع للأمراض المعدية التي تهد كيانهم الجسمي والعقلي ولهذا يصفهم بأنهم برابرة وهمج، خلقوا للاستعباد والاستعمار وهذا اتهام غير صحيح لأن المسلمين كانوا اساتذة الاوربيين في اوائل العهد الحديث وانهم اليوم اساتذة كبار يشار اليهم بالاحترام في الجامعات الأميريكية. وفي تخصصات حديثة صعبة كعلوم الفضاء واكتشاف القمر. فهم ليسوا أقل منهم ذكاء وابتكاراً وأن ما بهم من أمراض فيعزى الى همجية الاستعمار الاوربي وقسوته وانعدام الانسانية في معاملة الوطنيين المسلمين فهو الذي تعمد تصديرها اليهم ثم أهمل الرعاية الطبية لهم فهو اتهام اذن يوجه الى الوحشية الاوربية في المستعمرات الاسلامية كما كان الحال قبل الاستقلال في بلاد الجزائر وغيرها.

ثامناً ــ واخيراً من أساليب الحروب الصليبية قديماً والتي لا تزال قائمة في الاستعمار الاوربي الحديث البحث عن شركاء واعوان تدفعهم الدول المسيحية واستعمارها ضد الاسلام والمسلمين[3]. وهذا يتمثل الآن في اسرائيل فهي ربيبة المسيحيين والدول المسيحية وبخاصة انجلترا

(١) سورة الزمر الآية ٩.

(٢) سورة الجمعة الآية ١٠.

(٣) برهيبة ص ٣٥٥.

وفرنسا وامريكا حتى تكاد تكون اسرائيل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية لما تناله منها من المعونة المالية والعسكرية والفنية أو على حد قول السيد / الرئيس محمد انور السادات « تنال منها المساعدات من رغيف العيش الى طائرات الفانتوم ». ورغم انها تلقت درساً قاسياً هي وحليفاتها في سنة ١٩٥٦ كما قدمنا الا أن مخلب القط هذا لم يتعظ لخضوعه الخضوع المطلق لسادته من الأمريكيين بوجه خاص فحرضوها ضد مصر واعطوها من العتاد واجهزة الموت واسلحة الحرب ما ظنوه كفيلاً بأن نصرها أكيد على المصريين، ولكن السيد الرئيس محمد انور السادات كان لهم بالمرصاد يعرف جيداً تحركاتهم وسكناتهم ومبلغ تسليحهم ومستوى قدرتهم على القتال فأخذ العدة في صمت القائد البعيد النظر المحنك ودرب جيش مصر على احدث الآلات الالكترونية في الحرب وبث فيه من روحه المناضلة الوطنية الشيء الكثير، وما ان جاء يوم ١٠ رمضان سنة ١٣٩٣ أي ٦ اكتوبر ١٩٧٣ حتى أمر السيد الرئيس ببدء المعركة ضد قوى العدوان. فكانت معركة هي معجزة في تاريخ الحروب في العالم اجمع عبر فيها الجيش المصري بنجاح القناة والسدود الترابية وخط بارليف جميعه ودخلت مصر من جديد الى شبه جزيرة سيناء ورفع على ارضها علم مصر الخالدة وتوغلنا فيها. وكانت هذه المعركة درساً بليغاً جديداً لصلف الاستعمار واستعلائه الكاذب هزم فيها شر هزيمة .. وقلبت فيها موازين الحرب في العهد الحديث فنزلت الطائرات والدبابات الى المرتبة الثانية بعد الصواريخ بأنواعها المختلفة. وللسيد الرئيس الحق في تسميتها في كلمته البليغة التي ألقاها في مؤتمر القمة الاسلامي الذي انعقد في مدينة لاهور بباكستان « انها ببساطة معركة ثلاثة آلاف دبابة خلال سبعة عشر يوماً فقط من القتال » .. وان انتصار السيد / الرئيس في هذه الحرب على الاستعمار وربيبته اسرائيل وتأديبه للغرب واساليبه الصليبية في الغدر والاعتداء على المسلمين نصر مؤزر قال فيه ما نصه في مجلس الشعب « انه لاول مرة منذ خمسمئة

سنة تمشي مواكب النصر المصرية في شوارعنا وترفع أعلام النصر المصرية في شوارعنا ونستطيع الآن أن نعلن أن قرون التخلف والهزيمة قد انتهت بعد ان حققت القوات المسلحة في مصر وسوريا تؤيدها قوات الشعوب العربية أول نصر حقيقي للعرب منذ عدة قرون ».

ان السبب في كل هذه الأساليب الفاسدة هي الكنيسة؛ ولهذا وجد من يقول بالغائها من المسيحية ففي نظر يواكيم دي فلوران ان الكنيسة تدعو الى الانحراف والتحجر والتعفن الديني ولا تقبل التطور والتقدم ويقول بالغائها بحكم قانون للتطور في المسيحية. فهو يرى ان المسيحية تتطور حسب قانون ذي مراحل ثلاث: المرحلة الاولى هي مرحلة المسيح عليه السلام وهي مرحلة لا غبار عليها. ثم تأتي مرحلة الكنيسة التي يجب أن تنتهي في سنة ١٢٦٠ وهي مرحلة كبلت فيها الكنيسة المسيحية بتقاليد عتيقة. ثم يدعو بعد ذلك الى الغاء الكنيسة في مرحلة تالية يتحرر فيها الناس من رقها ويترك المتعبد لنفسه ولربه ويصبح التعبد شيئاً شخصياً بين العبد وربه دون ستار فيما بينهما. ويسميه بالعهد الروحي.

وقد سمَّى كتابه الذي شرح فيه هذا القانون « بالانجيل الخالد » ولقد لعنته الكنيسة وحرمه البابا اسكندر الرابع في سنة ١٢٥٦. وسجن صاحبه في العام التالي لهذا القرار سجناً أبدياً. وكان من مبادئه ايضاً فرض الفقر كشرط اساسي للالتحاق بمهن القساوسة، فاجتمع مؤتمر ليون الديني سنة ١٢٧٤ ليحرم ذلك عليهم وان تكون لهم الحرية في الغنى وجمع المال من ذهب وفضة ورغم هذا الاضطهاد سار مذهب يواكيم دي فلور حتى اوائل القرن الرابع عشر حيث امر البابا يوحنا الثاني والعشرين بحرق ١١٤ — من أتباعه وهذا منتهى الارهاب الكنسي.

وسار هذا المذهب كذلك في العهد الحديث في القرن التاسع عشر فمنذ سنة ١٨٤٠ اخذ احد الفرنسيين ويدعى بيير فنرا يدعو بنفس تعاليم يواكيم ولقي نجاحاً كبيراً ولكن الكنيسة اصدرت مرتين امرين بحرمانه

وعدم رضائها عنه وطرده كمسيحي من غفرانها. وأخذت تكيد له حتى سجن لمدة خمس سنوات لان دعوته كانت مناهضة لأساليبها البالية المتعصبة (جينبرت ص ٩٦ / ٩٨).

كذلك ان هذه الأساليب البالية التي أشرنا اليها وغيرها (جينبرت صفحة ١٠٥) والتي اتبعتها الكنيسة في استعمارها القديم والتي نزلت كما رأينا في الاستعمار الحديث دعت الى ظهور جماعة من رجال الدين المسيحي الكاثوليكي في مدينة ميلانو بايطاليا حوالي سنة ١٢٧١ يقولون بمسيح جديد ومسيحية جديدة وبكنيسة جديدة لانهم يعتقدون بأن روح القدس قد تمثلت تماماً في سيدة تدعى جيلما رغم ارادتها وانها في بدنها ومظاهرها الجسمية تشبه السيد المسيح عليه السلام بلا فارق وتمت اليه في ذلك بصلات وثيقة وهدفوا الى انشاء كنيسة جديدة اخرى سليمة يتم بناؤها على التعاليم والمبادئ التي تصوروا أنها توحى الى هذه السيدة وسطروا هذه التعاليم والمبادئ الربانية واخذوا في ارساء قواعد السوية لقيام كنيستهم الجديدة المستقيمة وشروط قبول رجال دينهم الجدد، ومن ضمن هذه الشروط ان البابا لا يكون رجلاً انما التجديد يقضي بأن يحل محله امرأة وفعلاً عينوا هذه المرأة وكانت تسمى مانفرد وقلدوها منصب الرئيسة الدينية لكنيستهم ورأست الاحتفال الديني الكبير الذي يقام عادة في يوم عيد الفصح في سنة ١٣٠٠ ميلادية. وهو العيد الذي يرأس فيه البابا عادة المسيحيين من كل حدب وصوب لنيل البركات كل عام. وهذا ما عرف بالمذهب النسائي المسيحي في المسيح والمسيحية (جينبرت صفحة ١٠٢).

اما بعد :

فمن كلمة السيد / الرئيس محمد انور السادات المتقدمة ندرك الاثار الطيبة التي ترتبت عليها والتي حاول المستعمر الاوربي دائماً ان يقضي عليها : منها ظهور قوة مصر الذاتية وقوة العرب متحدين سوياً. وقوة

الرعب الذي أنزلته في افئدة امم الغرب المستعمرة وحليفاتها من صنائعها الأقزام. ووضع حد لخرافة الاستعمار لا يقهر وان هزيمة سنة ١٩٦٧ كانت سحابة صيف عابرة. وان الروح العسكرية في مصر وفي غيرها من بلاد العرب الاسلامية بخير وان الجندي المصري والعربي من اشجع جنود العالم وعنده القدرة والموهبة الكافية في ان يتكيف بسرعة فيتقن استعمال ادق آلات القتال الحديثة والمتطورة. وانها ايقظت الوعي القومي في مصر وفي خارج مصر من البلاد العربية والاسلامية. ورفعت كرامتنا وسمعتنا في كل مكان فنلنا احترام العالم. واننا كنا لا نحارب للحرب والانتقام على الطريقة الصليبية القديمة والحديثة وإنما كنا انسانيين نبغي السلام العادل. ولهذا لوح السيد الرئيس السادات وفي اوج انتصاراته بإمكان وقف القتال اذا كان في الامكان تحقيق سلام يبنى على العدل. وقد كان ــ وعقدت اتفاقية الفصل بين القوات حقنا للدماء وتنفيذاً لقوله تعالى ﴿ **وان جنحوا للسلم فاجنح لها** ﴾[١] والسلم هنا هو السلم المسلح لأن الاستعمار واعوانه لا يعرفون الا لغة القوة. وان الاستعمار غادر وكما كانت عنده « العقيدة الصليبية »، فقد يعود ويميل الى تكرار الاعتداء، عندها نكون على أهبة الاستعداد لملاقاته وتأديبه. فالروح العسكرية وحياة الجندية اليوم من الزم الضروريات عندنا في عالم اناني مستغل يحركه التعصب وتدفعه النقمة للاعتداء على الاسلام والمسلمين. أو كما يقول السيد الرئيس محمد انور السادات ما نصه :

« لا بد لنا من جيش قوي. جيش يدفع عنا أي عدوان وفي الوقت ذاته يشعرنا بكرامتنا وبعزتنا فلا نحتاج الى أي أجنبي غريب لكي يدافع عنا. وإنما نحن الذين ندافع عن أنفسنا، وندافع عن أرضنا التي استرددناها من اولئك الذين اغتصبوها »[٢].

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١.

(٢) القاعدة الشعبية ص ١٦.

الباب الرابع

التبشير والاسلام



التبشير والاسلام

(١)

التبشير في بلاد الاسلام جزء لا يتجزأ من الاستعمار. ظهر وقوي وترعرع وانتشر في القرون الوسطى مع الحروب الصليبية فهو مظهر من مظاهر المسيحية في ذلك العهد بخاصة. ودام ونزل الى يومنا هذا يتبع الاستعمار الحديث لأنه منه واليه يهدف ويلازمه اينما سار وتحرك في بلاد المسلمين[١] بل هو أحياناً الاستعمار نفسه لا ملحق به في الظروف التي يغيب فيها الاستعمار العسكري. ولهذا يتقدمه أحياناً كالحال في التبشير الأمريكي وغيره في بلاد لبنان[٢] وقد يتأخر عنه ويبقى بعد أن يرحل الاستعمار العسكري كالحال عندنا هنا في مصر في المدارس المسيحية التبشيرية التي تؤثر في النشء بطرقها الخاصة — وهو نشء يظن التعالي على المدارس الوطنية لأنها تضم أولاد البلد الذين يستكبرون عليهم وكأنهم وباء من الأوبئة الفتاكة. ولهذا لا يقبلون مجالستهم في مدارس الدولة رغم انها بالمجان حسب الدستور[٣] ويقبلون على المدارس التي تغرس فيهم روح الارستقراطية والتسامي على اخوانهم في الوطن وتشبعهم كذلك بروح الطبقية الممقوتة والتي تتعارض مع نظام

---

(١) برهية ص ٢١١.

(٢) ينج ص ٣١١.

(٣) الدستور لسنة ١٩٧١ المادة ٢٠.

الحكم القائم الا وهو النظام الاشتراكي[1] والتبشير قائم في الكنائس غير الوطنية للجاليات الأجنبية ويعمل فيها في الخفاء وبطرق خفاشية وملتوية لينالوا من المسلمين الذين اكرموهم بالسماح لهم باقامة مدارسهم وكنائسهم واديرتهم فيها. وهي كلها أماكن للتآمر الروحي والتجسس على الاسلام والمسلمين، وهي هذه الطرق وهذه الأساليب المتآمرة المتحدية هي التي جعلتهم يضطهدون وتساء معاملتهم في عقر ديارهم في اوربا كالحال في زعيمهم دي لاسال بل ويطردون منها طرداً خارج الحدود كالحال في الجزويت وكما سنشرح هذا فيما بعد ـــ بل أحياناً يكون التبشير استعماراً مسلحاً بمعنى ان يقود القساوسة الجيوش المسلحة في الميدان ويلبسون الزي العسكري كما حدث قديماً أيام الحروب الصليبية في فريقين من رجال الدين وهما فرقة الهيكل وفرقة الاسبتارية وكما حدث كذلك حديثاً عندما قاد الجزويت الجيوش الاسبانية وكونوا دولتهم في اورجواي في امريكا الجنوبية كما سنفصل كل هذا فيما بعد[2].

ولما ضعفت الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي ولم يمكنها أن تستمر بنفس القوة العاتية التي كانت بها من قبل وانصرف اغلب حكام المسيحية عنها لما تتكلفه من المصاريف الباهظة وانشغالهم بأطماعهم الأوربية الخاصة وميل شعوب اوربا الى العمل والانتاج المستمر الدنيوي وسئموا الحروب والخيال الديني وعدم الاستقرار[3] وأن نتائجها كانت الهزائم المنكرة وهذا الاتجاه اضر بالكنيسة ورجالها وخافت من ضياع سلطانها وهيبتها وضعف نفوذها فابتدعت بدعة جديدة

---

(١) الدستور المادة الاولى.

(٢) برهيبة ٢١٢.

(٣) روبنسون ص ٤٩.

تستمر بالروح الصليبية ضد الاسلام والمسلمين هذه البدعة هي التبشير. وهذا ما يدل على ان الهدف الاساسي من الحروب الصليبية[1] ومن حليفها وخليفتها التبشير هو قبل كل أمر محاربة الاسلام والمسلمين ونشر النفوذ الديني المسيحي. وبهذا نقضي على النظرية الخاطئة والتي يأخذ بها كثير من بحاث الفرنجة والقائلة بأن هذه الحروب كانت فقط للاستيلاء على أرض المسلمين وسلبهم لخيراتهم بالفتح والغزو وان الهدف الديني — على عكس ذلك — هو في نظري الأساس الأول والهدف الرئيسي لا الهدف الاقتصادي فهو ثانوي وتابع في اعتقادي[2].

ولهذا قام التبشير مع الحروب الصليبية يساندها ودام من بعدها الى الآن، وهو لا يقل عنها خطورة لأنه حرب مستترة هادئة تتخذ الشكل المشروع في ظاهرها وتتسع بالتعليم تارة وبالعبادة تارة اخرى وهي في باطنها على عكس ذلك تماماً. ولما كان لا يفل الحديد الا الحديد والحرب المعلنة الا حرب مثلها واقوى منها، كذلك لا يفل التبشير الا تنظيم التبشير الاسلامي وانشاء هيئة متخصصة فيه لها امكانياتها الأدبية والمادية والسياسية والعسكرية وان تؤيدها من كل هذه الوجوه الحكومات الاسلامية المستقلة — والا انتصر علينا التبشير كما انتصر علينا فيما سبق الاستعمار وهزمناه ويجب أن نهزم التبشير بدوره بكل الوسائل المعلنة والخفية أي بأساليبه نفسها.

واذا كان البابا اوربان الثاني كما رأينا هو أبو الحروب الصليبية فإن البابا انوسان الثالث هو أبو التبشير ومنشئه في اوروبا ضد الاسلام والمسلمين وقد دامت بابويته من سنة ١١٩٨ الى سنة ١٢١٦ م. لأنه هو الذي بارك فرانسوا داسيز ونصبه ممثلاً له ليبشر بالمسيحية ونشرها

---

(١) روبنسون ص ٤٩ وكذلك ينج ١٩٦.

(٢) روبنسون ص ٤٩. انظر ايضاً: د. عبد العزيز عزت: التبشير والاستشراق.

بين المسلمين في الشرق بسنة ١٢١٢[1] وقد سمى أتباعه بالفرنسيسكان نسبة اليه.

نشأ هذا المواطن الايطالي (فرانسوا داسيز) والذي رسموه قديساً فيما بعد. نشأ عربيداً غارقاً في الفسق والمجون شأن العاطلين بالوراثة من أبناء الأغنياء يعشق الشهوات ومغريات الدنيا حتى ضج منه والده لبطالته وعدم انتاجه وهدده بحرمانه من الميراث، لأن والده كان على شيء من اليسر والغنى عن طريق التجارة، ولكنه كان ولداً عاقاً لم يطع والديه، فحرمه ابوه فعلاً من الميراث لثروته.ويصفه ميشليه المؤرخ الفرنسي الكبير في هذه المرحلة من حياته في كتابه تاريخ فرنسا وفي نص منه نقله جوليان عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه « نصوص من المؤرخين الفرنسيين في القرن التاسع عشر » ما نصه: « وكان في شبابه (اي فرانسوا داسيز) يزهو بنفسه ويحب الظهور، وكان يرثى له لتصرفاته المضحكة وأعماله الصبيانية المزرية. وكان يعشق الغناء والطرب وكان غير رزين يألف أعمال الطيش التابية وكان مندفعاً ومتهوراً ». صفحة ٣٣٨.

وكان قد اصابه مرض مزمن خطير من جراء حياته الصاخبة غير الاخلاقية فذاق الألم بسبب عدم المبالاة والاستهتار بالقيم الانسانية فهام على وجهه في الأرض يلبس الثياب الممزقة وحبل في وسطه ويمشي حافياً يستجدي تارة ويعمل مع فرقة لترميم المباني الدينية أو في الحقول. وكان يفترش الأرض ويلتحف السماء[2] وتحول في حالة فقره هذه الى الدين والى محبة الطبيعة بكل مظاهرها من جمادات وحيوانات وطيور لأن الله خلقها فأحسن وأبدع في تكوينها. وأخذ في بلدته اسيزي في أواسط ايطاليا والتي ولد فيها حوالي سنة ١١٨٢ م وفي

---

(١) برهية ص ٢١٢، وكذلك ينج ١٩٦.

(٢) روبنسون ١٦٠.

ما حولها من القرى يبشر بمحبة المسيح عليه السلام وبالفضائل المسيحية واهتم بشئون الفقراء وساعد المرضى منهم وعلى الخصوص من اصيبوا بالبرص في الدخول بالمستشفيات وتطور حاله الى رجل صالح وديع شديد الذكاء قوي الشخصية يتقن معرفة الانجيل وله الكفاية والقدرة على الكلام والخطابة وقرض الشعر والتأثير في الغير حتى ذاع صيته وتأثيره في المنطقة، وسبحان مدبر الأحوال[1].

واصبح لفرنسوا داسيز أعوان ومريدون وتلاميذ[2] بين أهل منطقته جمع منهم اثني عشر رجلاً وذهب بهم الى روما ورجا من البابا انيوسان الثالث أن يعتمد قيامهم كهيئة دينية في خدمة المسيح عليه السلام ونشر تعاليمه فوافق لهم على ذلك لأنهم نصراء الفقراء وأن بعضهم كان غنياً ومع ذلك وهب ثروته كلها للفقراء والمحتاجين وقبل الفقر بارادته لنفسه في سبيل خدمة الدين. وهم جادون في تقوية هيئتهم وتحقيق أغراضهم بالبذل والعرق والتفاني ودون أن يكونوا قساوسة تابعين للكنيسة فوافق البابا لهم على ذلك في سنة ١٢١٠ م[3].

قامت هيئة للفرنسيسكان من هواة الحياة الدينية والمتفانين فيها لوجه المسيح عليه السلام بعيدين كل البعد عن الاحتراف معتمدين في ذلك على أنفسهم في دعمها وفي تحديد برامجها وفي تنفيذ أغراضها وأهدافها. وكانت حياتهم بسيطة ولا يتكلفون المظاهر الكاذبة، يعملون في الحقول لكسب قوتهم وينامون فيها. ويسيرون كل اثنين معاً عندما يذهبون للتبشير والوعظ وعندما لا يجدون عملاً يكتسبون منه يستجدون الاحسان[4] ويكتفون بالقليل وكلهم البشر والتفاؤل ومن هنا يمكننا أن

---

(١) لوكاس ص ٤١٠، ٤١١.
(٢) ركيبة وكومبة تاريخ الكنيسة ص ٢٩٩.
(٣) لوكاس ص ٤١٢.
(٤) لوكاس ٤١٤.

ندرك أنهم يتبعون الفضائل المسيحية الكبرى وهي المحبة والاحسان والأمل. المحبة لتعاليم المسيح عليه السلام والاحسان منهم الى الناس وقبول الاحسان من الناس اليهم عند اللزوم والأمل هو عدم اليأس لأن لهم نصيب في الآخرة. وكل هذا في نطاق المسيحيين بعضهم مع بعض فقط. أما غير المسيحيين فلا حتى ينقلبوا الى مسيحيين مثلهم وهذا ما يهدفون اليه بتبشيرهم.

لقد اصبح الفرنسيسكان من أهم الهيئات الشعبية المسيحية في اوربا وكانت الكنيسة الكاثوليكية في حاجة ماسة الى مثل هذه الهيئات القريبة المتفاهمة مع الناس. لأن الكنيسة اصلاً هيئة ارستقراطية يحكمها نظام الطبقات المتعالية فوق بعضها[1] واتجاهها رأس مالي بما عندها من الذهب والفضة والتحف النادرة والأوقاف العديدة[2] ولهذا تميل الى التعامل مع الطبقات العليا وتسير في ركاب النظام الملكي بل هي تفرض هذا النظام على نفسها وتتبعه اينما كان[3] ومن يقبل عليها من متوسطي الحال والفقراء فلهم الخضوع لها، ولهم كراسي الاعتراف والغفران أو عدمه ليضع القساوسة أيديهم عليهم ويخضعونهم لسلطانهم فهم اسرى لدى الكنيسة ورجالها. ولهذا نرى من رجالاتها وهو القسيس الاشهر ملتس يهاجم الفقراء وانهم في نظره يستأهلون هذا الفقر وهو لهم دواء وأن الله خلقهم ليقوموا بهذا الدور في المجتمع ــ وان آلام الفقراء شيء طبيعي. وهي كالعصا في ايديهم أمسكتها لهم الطبيعة ليضربوا بها انفسهم فهم مسئولون عن فقرهم ويستحقون العيش في بؤس وشقاء لأنه من صنعهم لجهلهم وخمولهم وتواكلهم، ولا يستحقون عطف الأغنياء أو الاحسان اليهم[4] لهذا لجأت الكنيسة الى الهيئات المسيحية المستقلة

(١) لوكاس ٢٩٥.

(٢) روبنسون ١٥٥.

(٣) روبنسون ١٥٤.

(٤) انظر كتابنا في الاحصاء

المتطوعة كالفرنسيسكان ليقوموا لها بالدور الشعبي في المجتمع الاوروبي. ولقد سمعت بأذني في باريس أيام بعثتي ما يقوله العمال الفرنسيون ضد رجال الكنيسة مما ينفي عنها كل صفة شعبية، أو أي تقارب بينها وبين عامة الناس في البلاد الاوربية وان هذا هو السبب الأصيل لفصل الدين عن الدولة بعد قيام الثورة الفرنسية[1] ومهاجمة الكنائس عامة في روسيا بعد الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ وقيام الدولة بلا دين وتحويل أغلب الكنائس الى متاحف مدنية علقت على حيطانها صور كبار العلماء بدلاً من الصور الدينية وانهم استثنوا فقط صورة القسيس راسبوتين تشهيراً برجال الدين لما كان عليه من فسق وفجر ومجون[2].

هذه الموجة التبشيرية حببت الناس في الفرنسيسكان في ايطاليا واصبح في كل مدينة ايطالية تقريباً مركز خاص بهم في شكل دير يجمع شملهم ويوثق بينهم وبين مريديهم. واصبح لهم فرع جديد من النساء المبشرات منذ سنة ١٢١٢ اسسته القديسة كلارا[3] وهي بنت احد الأغنياء في مدينة اسيزا. وكانت من المعجبات بابن مدينتها فرانسوا داسيز وهبت نفسها وثروتها للحياة الدينية. ثم ظهر لهم فرع ثالث فيما بعد.

لقد وضع الفرنسيسكان اتجاهاً جديداً في اوروبا لم تعرفه المسيحية من قبل وهو الاتجاه الشعبي[4] أساسه التواضع والبعد عن المظاهر الكاذبة والاكتفاء بالقليل. وان الفقر ليس بعيب وانما هو فضيلة مسيحية مطلوبة[5] للمتدينين، وانه نوع من الحرية يبعد المتعبدين عن التعلق

(١) لوكاس ٤١٣.

(٢) انظر كتابنا مصر والديمقراطية والاشتراكية التعاونية في فصل نقد الشيوعية.

(٣) ركييه وكوميب ٣٠١.

(٤) ركييه وكوميب ٣٠٣.

(٥) انجيل لوقا ١٤ (٣٣).

بالماديات. ووهبوا انفسهم لتعليم الفقراء وتغذية الجائع والبائس والمحتاج من المسيحيين[1]. هذا كان حسن في حينه أي في القرون الوسطى وخدمة ضرورية للكنيسة في ناحية تنقصها. ولكن الآن وفي اواخر القرن العشرين يبدو هذا الاتجاه غير سليم ولا يتمشى مع اصول الحضارة الحديثة[2] ونوع من الهروب من الحياة الفاعلة المنتجة وعدم الأخذ بالفضائل الاجتماعية التي تدفع الى الاقبال على الحياة لأن قانون تقسيم العمل أقام الحياة الاجتماعية على التخصص والانتاج وتنمية الثروات وتقدم وارتقاء الاصول الفنية للمهن المختلفة[3] لا على التنسك والزهد والفقر وغير ذلك من مبادئ القرون المظلمة. كما لا يمكن ان يقبل مبادئهم واساليبهم المجتمع الاسلامي الذي يفتحون فيه مدارسهم واديرتهم الى الآن لأن الاسلام يدعو الى العمل والسعي والاجتهاد يقول سبحانه ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[4]. ﴿ **إنا لا نضيع اجر من أحسن عملاً** ﴾[5].. ﴿ **اني بما تعملون بصير** ﴾[6].. الخ ». ويدعو الى الاقبال على الحياة لا الهروب منها يقول سبحانه ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[7] ويدعو الى رفع المستوى الاجتماعي بالمال والزواج ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾[8]، ولا يدعو الاسلام الى العري وحقارة الملبس وقذارته. يقول سبحانه ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر** ﴾[9]. ومن هذا يتضح ان مدارس الفرنسيسكان في مصر وغير مصر من بلاد الاسلام تقوم على مبادئ واسس مخالفة تماماً ومناقضة لمبادئه التي اشرنا اليها وغيرها كذلك ..

---

(١) لوكاس ٤١٣.
(٢) لوكاس ٤١٢.
(٣) دور كيم كتاب تقسيم العمل.
(٤) سورة الجمعة الآية ١٠.
(٥) سورة الكهف الآية ٣٠.
(٦) سورة سبأ الآية ١١.
(٧) سورة القصص الآية ٧٧.
(٨) سورة الكهف الآية ٤٦.
(٩) سورة المدثر الآيات ١ — ٤.

ولقد اتجه الفرنسيسكان وغيرهم هذا الاتجاه الجماهيري لأن الكنائس في اوربا مؤسسات رأسمالية ارستقراطية استبدادية بعيدة كل البعد عن الاشتراكية والديمقراطية والشعبية[1] ولهذا احتاجت الى جهود هيئات شعبية تخدم فقراء المسيحيين فقط كالفرنسيسكان وغيرهم كأخوان المدارس المسيحية والأب شارل دي فوكو ممن سنتكلم عنهم بل ان الكنائس حورت وبدلت في مسيحية المسيح عليه السلام لأن المسيح نظراً وعملاً كان أقرب الى أعوانه لا يتعالى عليهم فهو اشتراكي بطبعه وكان يرى بين الناس فكان ديمقراطياً وكان يرأف بالفقراء المرضى فكان شعبياً انسانياً[2]. ولكن الكنائس جاءت حجاباً وحاجزاً بين المسيح عليه السلام والمؤمنين به فعاقت تعاليمه الحقة من الوصول اليهم في طبيعته السمحة وانما في طبيعة ملتوية تتمشى مع مآرب الكنائس الخاصة في اوربا[3] من حب جمع الذهب والفضة وحب المظاهر الطنانة وحب مصادقة الحكام[4] وحب الترفع عن المتعبدين كأنهم قطيع من التبع. كل هذا ابعد الكنائس عن الاشتراكية والديمقراطية والشعبية التي نادت بها الثورات الحديثة كالثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر والثورة الروسية سنة ١٩١٧ وغيرها لهذا أبعد الدين عن الدول الحديثة وفصل[5] عنها.

وهذا الفصل حدث لأن الوصل منع الدولة عن تحقيق الفضائل الدينية بالشكل السوي وانما بالشكل الملتوي، بحيث ان الكنيسة بعدت بنفسها وبعدت بالدولة عن الفضائل المسيحية الأصيلة وعن الشعوب المسيحية كذلك وما يتطلبه من حرية واخاء ومساواة. وان الكنائس في اوربا تمالئ وتتمشى عادة وراء الحكومات الملكية والغريب انها تنقم عليها في آن واحد لأنها تهدف أن تكون لها الكلمة العليا عليها وأن تكون دولة في

(١) روبنسون ١٥٤ وجينبرت ص ١٤٤.
(٢) انجيل لوقا ٦ و ٩ و ١٠ و ١٢.
(٣) روبنسون ١٥٥.
(٤) روبنسون ١٥٦.
(٥) روبنسون ص ٤٧١ و ٤٧٤.

داخل الدولة لما لرؤساء الكنائس من الولاية على تتويج الملوك واعطائهم الحق المقدس ولما لهم من أطماع دنيوية كالحال مثلاً في البابا بونيفاس الثامن عندما يمسك سيفين في كلتا يديه ويصرخ قائلاً: هذا سيف الدين وهذا سيف الدنيا أنا بابا وأنا امبراطور[1] بل أن رجال الكنيسة يعتبرون أنفسهم أرقى وأعلى بكثير من الحكام أنفسهم لأنهم هم الذين كانوا يتوجونهم ويولونهم على عروشهم تبعاً للخرافة المشهورة خرافة الحق المقدس في النظام الملكي كما ذكرت[2].

اذن كان التبشير ضرورة لازمة في تطور المسيحية واصلاحها في اوروبا بعيداً عن التعقيد الكنائسي. ولما حاول فرانسوا داسيز بدء تبشيره هو وأتباعه بين المسلمين فشل في مبدأ الأمر لأنه عندما بدأ رحلته في سنة ١٢١٢ الى الشرق قامت عاصفة في البحر الأبيض كادت تقضي عليه ومن معه فعاد الى ايطاليا. وبعد ذلك بعامين حاول الذهاب الى بلاد الغرب في شمال افريقيا ولكن النحس تبعه كذلك هذه المرة لأنه سقط مريضاً في اسبانيا وهو في الطريق اليها[3]. وفي سنة ١٢١٩ أراد السفر الى سوريا وفلسطين مع بعض أتباعه للتبشير فيها فلم يكن في السفينة محل لكل أتباعه فطلب من طفل أن يختار اثني عشر فقط منهم بالقرعة لمرافقته ووصل بهم في مبدأ الأمر الى مدينة عكا حيث سرح أحد عشر من أتباعه للتبشير هناك في الشرق الاسلامي. واكتفى بواحد فقط منهم وهو الأخ ريتي وذهبا معاً الى معسكر المسيحيين الصليبيين بقرب دمياط وحاول دون جدوى أن يوقف هجومهم ضد المسلمين فلم يفلح. ثم تقدم هو وزميله الى معسكر المسلمين فقاده الحرس الى رئيسهم وقائدهم وبكل بساطة شرح فرانسوا داسيز مهمته له في الشرق وأنه يرغب في

(١) هيرد — أهل الحضارة ص ٣٤٤ و ٣٤٥.
(٢) جينبرت ص ٦٢.
(٣) برهيبة ٢١٢.

الاجتماع بشيوخ المسلمين وعلمائهم لمجادلتهم[1]. فاعتذر له القائد وقال له إن مثل هذا الطلب يثير أتباعه ويؤدي الى ثورة. وصرفه بلباقة وعطف وقدم له بعض الهدايا ولكن رفضها فرانسوا داسيز وعاد الى معسكر الأعداء من الصليبيين ومنعته الحوادث بعد ذلك من أن يكرر فعلته هذه مرة ثانية. وتنقل لمدة عام كامل في فلسطين حتى كانت سنة ١٢٢١ أمكنه أن يكون فيها له أتباع ومريدون وقامت أول جماعة للفرنسيسكان في تلك الأصقاع المقدسة فسافر عائداً الى اوروبا[2]. ولكنه لم ينس اتباعه في الشرق. فكان أول شيء فكر فيه هو تعيين من يحل محله في رئاستهم وهو بنوا داروزو الذي سافر اليهم، ولكنه توقف في رومانيا وأمضى في الطريق عدة سنوات كون فيها فريقاً للفرنسيسكان يدعو اليونانيين الى الدخول في المذهب الكاثوليكي. وفي سنة ١٢٢٩ وصل الى عكا في نفس الوقت الذي وصلت فيه الحملة الصليبية ضد المسلمين بقيادة فردريك الثاني. وأمكنه أن ينظم كل أعمال الفرنسيسكان في الأرض المقدسة. وابتدأ تبشيرهم يأخذ طريقة الى المسلمين في الشرق حتى أصبح لهم فيه كثير من المؤسسات الدينية والتعليمية تحاول تحقيق أهدافها التبشيرية بطرقها الخاصة.[3]

ومن المبشرين الذين قدموا الى الشرق الاسلامي لنشر دعوتهم الدينية فيه بين النشء وغيرهم جماعة الفرير المعروفين باسم اخوان المدارس المسيحية. وهم أتباع القديس جان بابتيست — دي لاسال.

وهم جماعة كسابقيهم لهم الميول الشعبية ولكن يفضلون أن تنحصر دعوتهم بين المتعلمين الصغار الذين يسهل التأثير فيهم وتحويلهم

(١) برهيبة ٢١٣.
(٢) ركيبة وكومب ص ٣٠٤.
(٣) برهيبة ٢١٣ و ٢١٤.

بالتدريج الى الكاثوليكية[1] ورئيسهم دي لاسال كما يدل اسمه عليه ولد في ١٦٥١/٤/٣٠ من عائلة غنية متيسرة في مدينة ريمز بفرنسا نال تعليمه الابتدائي والثانوي في بلدته ثم انتقل الى باريس ليلتحق بالسربون وبالدروس الدينية التي كانت تلقى في كنيسة سان سلبيس في حي سان جرمان وانتهى من إتمام تعليمه بنجاح وعين قسيساً في كنيسة ريمز في ٩ /٥ /١٦٧٨.[2]

وكان يؤمن دي لاسال بأهمية المعلم تماماً كأهمية القسيس. ويرى ان السيد المسيح عليه السلام يأمر الاثنين معاً بالارتحال لتعليم وتثقيف الناس في الأمم المختلفة لنشر وحماية الحضارة المسيحية ولو أدى هذا الى حمل السلاح في الأيدي، وأن هذا التعليم يجب أن ينصب بوجه خاص على تعليم الطفولة والشباب ذكوراً وأناثاً وأن هذا هو الاتجاه الكاثوليكي الذي ساد منذ القرن السابع عشر[3] وهدف الى الطبقات الشعبية في اوربا[4] والأطفال الفقراء. وان اخوان المدارس المسيحية يعتبرون أنفسهم من أخلص خدام الكنيسة ويعلنون ولاءهم للسلطات الكنسية وعلى وجه خاص للمقام البابوي رغم أن لهم رئيساً مباشراً يوحدهم وينظمهم[5] ويحركهم نحو العلوم الحديثة والتطبيقات المفيدة بعيداً عن الاتجاه القديم كتعليم اللغة اللاتينية العقيمة لغة الحضارة التابعة المقلدة دون اصالة للحضارة اليونانية فهي لغة عقيمة، لغة العقلية الثانوية التافهة الرومانية التي تسرق الانتاج الفكري من اليونانيين القدماء[6]

(١) ريجولت ص ٣٠ و ٣١.
(٢) ريجولت ص ٢٤.
(٣) المرجع نفسه ٢٦ و ٢٧.
(٤) المرجع نفسه ص ٣٠.
(٥) المرجع نفسه ص ٤٥.
(٦) المرجع نفسه ص ٥٤.

ويوجهم دي لاسال كذلك الى الاهتمام بالأطفال المنحرفين والمعوقين الذين ضجت منهم اسراتهم وعائلاتهم ويجب العودة بهم الى الحياة السوية في المجتمع الاوربي وفي جوّ ديني ينعمون فيه بالهدوء بدلاً من الاضطراب وعدم الاستقرار الذهني[1].

وفي نوفمبر سنة ١٦٩١ ابتدأ دي لاسال ومعه اثنان فقط من اتباعه عاهداه على الاخلاص والوفاء والقيام بمهمة التبشير حتى ولو وصل بهم الحال الى الاستجداء وأكل كسرة بسيطة من الخبز[2]. ثم اتسع نطاقهم في مايو ١٦٩٤ فجمع حوله اثني عشر[3] من المريدين الذين اقسموا له باقتداء جماعتهم والعمل على نموها وتحقيق اغراضها والطاعة كل الطاعة لقراراتها. وكونوا لهم معهداً علمياً دينياً سموه « معهد دي لاسال » كان في أوج ازدهاره في أواخر القرن السابع عشر[4] ثم انتشرت فروع الجماعة في كل أنحاء فرنسا لانقاذ الطفولة والأيتام المسيحيين من براثن الجهل والفقر والتسكع. ولكن في حياة دي لاسال لم ينج لا هو ولا اتباعه من النقد والتجريح فقالوا مثلاً إنه وجماعته يقسون على الأطفال ويعاملونهم بكثير من الشدة وانهم انحرفوا عن الأهداف التي حددها رئيسهم وحددوها لأنفسهم. واخذ الانقسام يدب بين اتباعه فخرج عليه أحد الاثنين الاصفياء الذين ابتدأ بهم في تكوين جماعته وهو نقولا فوبارت. وقدّمت ضده العرائض للرؤساء حتى انتهى رئيس الكنيسة في باريس في سنة ١٧٠٢ بأن ينحيه عن رئاسة الجماعة وعين بدلاً منه في سنة ١٧١١ الفرير بارثلمي. وارتحل دي لاسال بعيداً عن هذه الهجمات القاسية في بلاد الأرياف في فرنسا الى ان مات كمداً في ٧ /٤ /١٧١٩ في مدينة

(١) ريجولت ص ٥٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٦.

(٣) ريجولت ص ٤٩.

(٤) هذا العدد ١٢ والتبشير كل اثنين معا منقول عن السيد المسيح عليه السلام وحواريه ومنصوص عنه في انجيل لوقا ٦ (١٣) وانجيل مرقس ٦ (٧).

سانتيون ولم ترض عنه الكنيسة الا في مايو سنة ١٩٠٠ بأمر البابا ليون الثالث عشر[١].

ولكن جماعة الاخوان هذه رتبت امورها وجمعت كلمتها من بعد رئيسها دي لاسال وبخاصة طوال القرن التاسع عشر فنهضت بنفسها نهوضاً كبيراً في نشر تعاليم المسيحية في أنحاء العالم خارج فرنسا. فذهبوا يبشرون في بلجيكا واسبانيا وانجلترا والمانيا والنمسا والمجر وايرلندا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وفي الشرق الأوسط في مصر وفي اسيا الصغرى وسوريا وفي الشرق الأقصى كذلك[٢].

واخذت هذه الجماعة تطور في تعليمها في صالح المسيحيين في اوروبا وابتعدت عن الاتهام الذي وجه ضدها من انها تربي النشء تربية العبيد وخلق نفوس تؤمن بالتبعية لا تجيد حسن التصرف لضعف شخصيتها[٣] وانها لا تغذي تلاميذها بالغذاء الكافي فينشأون ضعاف الأجسام وضعاف العقول. ولا تعتني بحسن اسكانهم في اماكن صحية نظيفة كما أنها لا تهتم بحسن هندامهم ففي الغالب تكون ثيابهم رثة وقذرة. وان المتعلمين في مدارسها ينشأون متذبذبين بين الدين والدنيا ولا يستقرون على اتجاه واضح[٤]. كل هذا النقد عرفه الاخوان المسيحيون واخذوا في مقاومته[٥] فبجانب التلاميذ الفقراء من ابناء العمال والفلاحين اخذوا في قبول غيرهم من ابناء الأغنياء والميسورين وافهامهم ان الترف والغنى والملذات مظهر من مظاهر الانانية والجشع وان هناك مسئوليات اجتماعية للأغنياء تدعو اليها المسيحية وتعاليم الدين

---

(١) المرجع نفسه من ص ٥٦ الى ص ٦٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٢١٤.

(٤) المرجع نفسه ص ٢١٥.

(٥) ركييه وكومب ص ٤٧٧.

كالاحسان والتواضع الى مستوى من هم دونهم وعدم التعالي عليهم[1].

وممَّا فعلوه لتشجيع الإقبال عليهم جَعْل بعض مدارسهم بالمجان ولا يدفعون لها مصروفات وهذا منتهى الاغراء لبث تعاليم الدين المسيحي في نفوس المحتاجين الى التعليم حسب اهوائهم وخططهم التبشيرية[2] ولهذا ضغطوا مصروفاتهم وحددوا ميزانياتهم — فأبنية مدارسهم مثلاً لا تعرف الترف ولا الغنى ولا الزخرفة وانما هي كالثكنات التي يسكنها الجنود تكتفي بالضروري اللازم فقط من حجرات بسيطة وعنابر لتحتوي اكبر قدر ممكن من التلاميذ معاً. حتى تسود الروح المسيحية الجماعية فيما بينهم. ومن ذلك تدريسهم للغة اللاتينية العقيمة التي بعدوا عنها أولاً وعادوا اليها ثانية تحت أمر الكنيسة فهي في نظرها مهمة لانها لغة شيشرون والقديس اغسطين والكتب الدينية القديمة وهي مهمة لمن يصبح مدرساً للاهوت منهم في المستقبل.

كما اهتموا في تعليمهم بتدريس النظم والاخلاق المسيحية والعلوم والفنون والآداب وقصص الأنبياء وفضائل القديسين ليكونوا القدوة الحسنة للمتعلمين[3] كما اهتموا اكثر ووسعوا دائرة تعليم المنحرفين والمعوزين من الأيتام والمعوقين والجانحين ومن اليهم ولو اقتضى الأمر الذهاب لتعليمهم في السجون[4] واهتموا اكثر بتنصير المسلمين وتحويلهم الى مسيحيين بطرق تدريجية وهادئة لا اثارة فيها وغير مُباشرة منها ان يكون القبول لا للمسلمين فقط في مدارسهم وانما يجب أن يكون فيها معهم مسيحيون ويهود وغيرهم من أديان اخرى. ويكفيهم أن يكون المدرسون كلهم مسيحيين ويلبسون الملابس الدينية الخاصة بهم.

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٦.

(٣) المرجع نفسه ص ٢١٧.

وان لهم تأثيراً ونفوذاً روحياً يومياً على النشء في دروسهم ويكفيهم معاملة اساتذتهم لهم بأخلاق مسيحية تجذبهم اليها واليهم ويكفيهم الدرس الواحد اليومي في الديانة المسيحية للجميع معاً اي لا يخصون به المسلمين وحدهم حتى تبقى مدارسهم مفتوحة ولا تتهم بتبديل دين ابناء الأهالي مباشرة — ولا يسألون التلاميذ المسلمين من قريب أو بعيد عن الشخصية المقدسة للسيد المسيح عليه السلام وانما يشرحون له بوضوح وبشكل غير مقصود فرضه ما هي الكنيسة الكاثوليكية في روما وما هو مذهبها[1].

وان في هذا الدرس الديني الواحد تقوم المنافسة والاجتهاد في هذا الباب بين المتعلمين من اديان مختلفة ويعتمدون دفع التفوق فيه لتلاميذ من أديان غير مسيحية تشجيعاً لهم للنجاح في الطريق او بالاحرى نجاح المعلمين في دفعهم الى الدين المسيحي ونجاح تبشيرهم فيه مع منع اي مناقشة مباشرة بين التلاميذ بعضهم مع بعض وإنما المناقشة تكون مع المدرس فقط. وبهذا ينشرون مبادئ المذهب الكاثوليكي في سلام وهدوء بين اليهود والمسلمين والاقباط وغيرهم وبهذا يسود المسيح الجميع في مدارسهم[2] وبهذا ايضاً يحولون سنوياً الى المذهب الكاثوليكي بعضاً من تلاميذهم بمحض ارادتهم وبدون ضغط وبقبول شخصي. حقيقة ان هذا التنصير والتحويل ليس بعدد كبير نظراً لسيادة العادات والتقاليد والعرف السائد والذي يمنعهم من التحول عن دينهم ومذهبهم الأصلي. ولكن هناك فعلاً تحويل وتنصير سنوي لتلك الأرواح البريئة التي تغير دياناتهم تحت تأثير تبشير اخوان المدارس المسيحية[3] وهم يرسمون في تبشيرهم هذا التدرج في التحويل بأن هناك مرحلة للتقارب والتجاذب بين التلميذ

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٣.

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

والمبشر وهناك مرحلة ثانية للتحمس للروح المسيحية والثقافة والحضارة المسيحية ــ وهناك اخيراً مرحلة ثالثة لعبور الكوبري أو القنطرة اي مرحلة المعبر واعتناق المسيحية. أو المذهب الكاثوليكي[1].

أما فريق الجزويت فهو نوع فذ بذاته من المبشرين وهو اخطرهم جميعاً لأنه أعلمهم ولأنه اكثرهم تعصباً للكاثوليكية ولأنه يتدخل في السياسة. ولأنه اكثرهم تنظيماً ولهم ادارة وحكومة خاصة بهم. انشأ هذا الفريق ايناس دي لايولا الذي ولد سنة ١٤٩١ وتوفي سنة ١٥٥٦ وهو من اقليم الباسك في اسبانيا، وكان فريقه من القوة في التبشير ان أعاد للمذهب الكاثوليكي ارضاً كبيرة ونفوساً عديدة كان قد فقدها هذا المذهب من قبل امام انتشار المذهب البروتستنتي. ولد دي لايولا في عائلة عسكرية تفضل الجندية واراد ان يكون هو بدوره كذلك كمن حوله في محيط الاسرة من أقاربه. وقد جرح وهو يدافع عن احدى المدن وهو في الجيش ونقل الى المستشفى ثم انتابته الحمى وأثرت كل التأثير في أحد ساقيه مما جعله يبتعد عن حياة الجندية الى حياة أهدأ هي الحياة الدينية. وان يصبح جندياً من نوع جديد اي ان يكون جندياً للسيد المسيح عليه السلام. فابتدأ حياته هذه بأن يكون مبشراً للمسيحية في فلسطين التي ارتحل اليها ثم وضع نفسه واتباعه تحت تصرف البابا. الذي أقر قيام فريقه باسم « جماعة الجزويت »[2].

لقد وضع دي لايولا منشوراً بمبادئه تحت اسم « التمارين الروحية »[3]، وهو كتاب صغير ضمنه كيف يكون المسيحي الحق على صورة السيد المسيح عليه السلام تماماً باتباع الفضائل المسيحية وكيف

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٣.

(٢) لوكاس ص ٥٨٥.

(٣) ركييه وتومب ٤١٦.

يطهر نفسه عن الشهوات والخطيئة وهذا عن طريق العبادة وعن طريق التفكير في الله تفكيراً عميقاً يرفعه الى مستوى الرؤية الالهية والتجلي الأعظم.

ولم يكن من السهل الالتحاق بجماعتهم. فكانوا يدققون كل الدقة في اختيار اعضائها ولم يكن الباب مفتوحاً لدخول كل من هب ودب. ولهذا حددوا عددها ووضعوا الكيف في اختيارها متقدماً على الكم. ولهذا ارتفع مستواهم عن غيرهم من فرق المسيحية التبشيرية. وكان يمضي المرشح عامين تحت الاختيار في كيف ينجح في فهم وتنفيذ اصول وقواعد ثلاث هي الفقر وعدم الاقبال على الدنيا ومغرياتها ثم العزوبة وامكان العيش بدون زواج. والطاعة كل الطاعة للنظام الديني. بعد هذا يدرسون الانسانيات والعلوم والالهيات وهي الخطوة الثانية. ثم تأتي الخطوة الثالثة بعد ١٢ سنة من هذه الدراسة يصبحون قساوسة. والمرحلة الرابعة هي مرحلة التصفية بانتخاب عدد محدود منهم فقط ليكونوا في خدمة وطاعة البابا مباشرة. وللجماعة رئيس يعاونه في الادارة مجمع خاص بهم »[١].

هذا التنظيم كتب للجزويت التفوق والنجاح في اهدافهم. وكانوا من أكثر المبشرين أثراً فأقاموا لتبشيرهم المدارس على مختلف أنواعها بل والجامعات ايضاً كجامعة القديس يوسف في بيروت. ولمعرفتهم بكثير من اللغات أمكنهم ان يؤلفوا القواميس باللغات المختلفة. ولهذا امتد تبشيرهم الى بلاد كثيرة متباينة في لغاتها. فبشروا في امريكا وفي الصين وفي اليابان وفي الهند وبين المسلمين وغيرهم[٢].

وكان هدف تبشيرهم امرين: الأمر الأول هو محاربة البروتستنتية وهي

---

(١) لوكاس ص ٥٨٥.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

المذهب الجديد في المسيحية الذي قال به مارتن لوثر في المانيا بوجه خاص وغيرها من بلاد شمال اوروبا والأمر الثاني هو محاربة الاسلام وهو الذي يهمنا. ولهذا قلت انهم من أخطر المبشرين واشدهم تعصباً للمذهب الكاثوليكي لأنهم لم يتورعوا عن محاربة ابناء دينهم علناً من المسيحيين البروتستنتيين فما بالكم بمعاداتهم للاسلام والمسلمين وهم من دين مخالف لهم(١).

ولعل خطرهم ينحصر عندنا وعند غيرنا كذلك في انهم يظهرون غير ما يبطنون ويفعلون غير ما يضعون من قواعد وتنظيمات. فمثلاً يتظاهرون بالانسانية والعطف على الشعوب التي يبشرون فيها وهم في قرارة أنفسهم يعتبرونهم كفرة وفي الدرك الأسفل من الوجود الانساني. وان عملهم يحاول انقاذهم من الهبوط الى مصاف الحيوانات. وانهم كائنات لا عقل لها متأخرة وان العقل يجب أن يبرز عندهم وعلى يديهم في شكل ديني مسيحي فهم خلقوا ليكونوا تبعاً وهم بدون المسيحية لا يفعلون الا الشرور. إنها حرب مقدسة يجب أن تشن لترويض هؤلاء الناس ومنهم المسلمون بكل الطرق الممكنة(٢).

وكذلك يتظاهرون بحب الجديد ومناصرة العلم وهم في واقع الأمر محافظون يأخذون بالتقاليد المسيحية العتيقة والأعراف القديمة فهم مثلاً يقرون ويأخذون بالأمور الخارقة التي تبهر الألباب للضحك على عقول البسطاء ليقربوا العامة من قساوستهم وبكل ما يقال عما أتاه القديسون من الأمور الخارقة غير العادية والتي فوق طاقة البشر وانهم كائنات فوق مستوى الانسان ويجب الاعتقاد فيهم وفي خوارقهم

(١) د. عبد العزيز عزت، ص ١٢٩.
(٢) المرجع نفسه ص ١٠٠/١٠١.
(٣) المرجع نفسه ١٠٣.

والتوسل اليهم لحل مشكلاتهم. كما يحبذون الحج والبذل في سبيل ذلك على الاتساع للتبرك بقبر السيد المسيح عليه السلام ولغيره ممن لهم كرامات تنزل عليهم من هذا السفر الى البلاد المقدسة[1]. وادمان السحر والدجل والشعوذة والخرافات الخارقة لا تنحصر فقط عند الجزويت وإنما هي عادة قديمة بين المسيحيين في اوربا وغير اوربا، وهي الى ذلك محببة الى نفوسهم ترجع الى القرون الوسطى كانت منتشرة بين رجال الدين من القساوسة. فشحنوا عقول الناس ومخيلاتهم بالخوارق والكرامات وأساليب السحر الأبيض وطرق السحر الأسود وغير ذلك مما له تأثير عليهم من عالم الأرواح الخفية والقوى الفعالة السحرية وكل هذا لربط الناس بعالم الخزعبلات بعيداً عن الواقع وعن عالم الدين الصحيح.

ومن مبادئهم التي أعلنها مؤسسهم ايناس الابتعاد عن السياسة وعدم التدخل فيها وان عليهم عدم مناصرة حاكم ضد حاكم آخر وان ينأوا بأنفسهم عن مشاجرات الأمراء والأحزاب. فمثل هذا التدخل سيعرض حياتهم الروحية وتنقلاتهم للأخطار[2] ورغم هذا نجدهم يلجون أبواب السياسة من كل جانب وبخاصة أن يحترفوا اعتراف الملوك عن خطاياهم امامهم أي الجزويت. فهذا الأمر مكن لهم الاحتكاك بالملوك والأمراء ومعرفة خباياهم وإمكان التسلط عليهم لاستخدامهم لمآربهم التي منها عملهم كمفاوضين ورسل لهم. فمثلاً توسطوا في سنة ١٥٨١ بين بولونيا وروسيا. وفي سنة ١٦٩٣ ساعدوا دوق بروسيا في الحصول على لقب ملك : وهم الذين ساعدوا في قيام الثورة التي أعطت أسرة براجانس عرش لشبونة في سنة ١٦٤٠. وهم الذين مكنوا من قطع العلاقات فيما بين فرنسا والسويد في صالح ألمانيا سنة ١٦٤٥. وكانوا يتخفون في شكل مكتشفين في بلاد السويد حوالي سنة ١٦٥١ وذلك ليحولوا الملكة

(١) المرجع نفسه ص ١٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٧.

كريستين الى المذهب الكاثوليكي وقد نجحوا في هذا وعقدوا كذلك عدة زيجات بهذا الوضع بين امرائها. وكانوا يخزنون البارود والمفرقعات في كهوف تحت الأرض عندما استولى الفرنسيون على نامير من ايدي النمسا في سنة ١٦٩٢. ولمدة قرن من الزمان من سنة ١٥٦٨ الى سنة ١٦٨٨ م ساهم الجيزويت في انجلترا في كل انواع الحروب والحركات السياسية فمثلاً ساهموا في المؤامرات التي هدفت الى قتل اليزابث في صالح ماري ستيورات وفيليب الثاني. وعملوا ان تكون لهم الحظوة لدى شارل الثاني سنة ١٦٦١. وقاموا بأعمال ضد البروتستنت ومحاولة تحويل الجيش الى الكاثوليكية. واقروا منذ سنة ١٤١٨ مبدأ قتل الملوك اذا عادوهم واعتبرتهم اوربا كلها منذ ذلك الحين من سفاكي الدماء لأن كان لهم ضلع في المؤامرات ضد حياة اليزابيث في انجلترا وضد هنري الثالث والرابع وضد ملك فرنسا لويس الخامس عشر[1].

ان تدخلهم هذا في السياسة دفعهـم بالتالي الى الجاسوسية، فمن ذلك رغم ان المستبد كرومويل في انجلترا امر بعدم ايواء اي جزويتي بين الأهالي والا حوكموا بالقتل فإن الأب الجزويتي نثرفيل كان يصادقه ويلعب معه الشطرنج ويحرك اعوانه ليتجسسوا لكروميل على الحكام الكاثوليك في اوربا وهذه خيانة صريحة[2] وهناك ايضاً الاب الجزويتي دوبنثون وكان يعترف امامه الملك فيليب الخامس ملك اسبانيا ولكنه في الوقت نفسه كان يتجسس لفرنسا عليه. وكتب مباشرة لباريس عندما اعترف له في ثورة غضب انه سيترك الحكم ويتخلى عنه ولكن باريس ارسلت خطاب هذا القسيس الجزويتي الى فيليب الخامس بنصحه وفضيحته. ومن الطريف ان قدمه فيليب بيده الى هذا الجزويتي الجاسوس

(١) المرجع نفسه ص ١٣٨ الى ص ١٤١.
(٢) المرجع نفسه ص ١٤١.

فدهش وصعق ومات كمداً[1]. ومن ذلك أيضاً أنه عندما ترددت الأمبراطورة ماري تريز ملكة النمسا في طرد الجيزويت من أراضيها كما فعلت فرنسا وضغطت فرنسا عليها لتفعل مثلها، واظهرت لها باريس تقريراً باعترافها كتبه الأب الجزويتي كامب لمار ذكر فيه كل ما قالته له بخصوص تقسيم بولونيا سياسياً. وهنا لم تتردد في طردهم خارج الحدود لانهم لا يحترمون الأسرار ولا اوامر الدين نفسه بسرية الاعتراف ويوقعون الملوك بعضهم ضد بعض سياسياً بتجسسهم البغيض[2].

كذلك أصدر الرئيس الجزويتي أكافيغا (١٥٨١ ــ ١٦١٥) أمراً دورياً يطلب من اتباعه الذين يعترف الملوك امامهم ان يبحثوا بأنفسهم ويتجسسوا تماماً وبكل دقة على الوزراء والحكام في البلاد التي يقيمون فيها وعن مقدار دخولهم ومصاريفهم ومبلغ مساهمتهم في الامور غير المشروعة. وهل الحاكم يمانع أو يوافق على أعمالهم. وما هي مقدرته العسكرية والحروب التي يقوم بها، وهل الحاكم يخضع للبابا وغير ذلك من النقاط موضع التجسس الدقيق[3].

ولقد دفع بهم أي بالجزويت التيار السياسي الى السعي وراء الوظائف المدنية بعيداً عن الدين الذي يدعون انهم حماته والمتفانون فيه والمجندون من أجله ولكنهم للأسف الشديد بعدوا عنه سعياً وراء الدنيا والمظاهر الكاذبة وسعياً وراء المادة حتى اتهموا بالرأسمالية[4] مع أنهم يصفون انفسهم بأنهم أهل زهد ونبل ودعاة فقر ومسكنة[5] لأن البابا في

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥١.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣) المرجع نفسه ص ١٥٠.

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٦.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢١، ١٢٢.

سنة ١٥٧٠ كرمهم بأن يكونوا من الفقراء ولكنهم اعطوا ظهورهم للفقر كمادة للتدين وتطهير للنفس وذهبوا الى مغريات الدنيا ومباهجها. فمن ذلك في بافاريا اصبح الجزويت يديرون تنظيم العادات والعرف والتقاليد بين الناس في حياتهم المدنية الجارية. ولهم أيضاً الرقابة على الكتب والمطبوعات في كل نواحيها. ولهم الاشراف وادارة المدارس ودور العلم. وفي انجلترا في سنة ١٦٨٧ أصبح الأب باثر عضواً في المجلس المخصوص، أي وزيراً. وكان يتقاضى الأب ديلاشيز مبلغاً كبيراً من المال يبلغ نحو ٦٨٥٤ جنيها في السنة منها ٣٠٠ جنيه خاصة بعربته التي ينتقل بها، وعندما يأكل في القصر الملكي كان يقدم له غداء فاخر يتكون من ستة ادوار متتالية في تقديمه اليه. وأعطي مزرعة خاصة به له فيها منزل ريفي يقيم فيه حسب ارادته. وهذا منتهى البذخ وتفضيل حياة الترف على الحياة الدينية المفروض فيها أن تكون على عكس ذلك حياة تقشف وتعبد وتطهير للنفس بعيداً عن الاقبال على مباهج الدنيا الزائفة[١].

قلنا فيما سبق ان رئيس الجزويت ايناس دي لايولا كان في الجيش وتركه ليعمل في الحياة الدينية[٢]. ولكنه هو واتباعه حافظوا على هذه الروح الحربية في الدين والتبشير فتراهم في امريكا الجنوبية يقودون فرقاً من الجيوش المسلحة الاسبانية ويحاربون الأهالي الأصليين المتأخرين في حضارتهم وينتصرون عليهم ويستعمرونهم علانية اي ان التبشير لا يستحي اطلاقاً ان ينقلب احياناً وبشكل ظاهر الى استعمار سافر مسلح وكونوا لهم دولة جزويتية تبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا. ووافقت اسبانيا على منحهم هذه الأرض لتكون قاعدة لدولتهم التي سميت « دولة الجزويت » تحت رئاسة بعض قساوستهم[٣] ونظموا هذه الدولة بأن

(١) مآثر الجزويت ص ١٤٩.

(٢) المرجع نفسه ص ٤١٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٣.

سمحوا للأهالي بممارسة الشيوعية في الملكية بأن تملك كل اسرة قطعة ارض معينة لا يملكها اي فرد فيها وانما هي ملك للجميع يفلحونها معاً ويتقاسمون حاصلاتها فيما بينهم، وليس هناك مظهر للملكية الفردية الا حليّ النساء فهي ملك لهن. وسمح الجزويت وهم من رجال الدين بالشيوعية الجنسية بين الرجال والنساء في الاسرة وجعلوا لكل اسرة كبينة أي كشك لينفرد كل رجل بالمرأة أو النساء التي يرغب في ممارسة الجنس معها أو معهن وليس هناك نقود للتداول وإنما البيع والشراء بالمقايضة اي سلعة بسلعة اخرى واذا حدث ووجدت حالات للزواج فهي نادرة وهي حالات تقام بالأمر وكان الغناء يصاحب فلاحة الأرض لتسهيل العمل فيها[1]. ولم يكن الموت كالحال عند اغلب المتأخرين هو العقوبة الأساسية وإنما كان هو الطرد خارج الحدود للعمل مع البيض من المستعمرين غير الجزويت وهم ظلمة قساة غلاظ القلب ضد أهالي البلاد لا يرحمونهم وكانوا في دولة الجزويت يربون قطعاناً كبيرة من الأغنام والماشية وكانوا يسمون الملكية الجماعية « ملكية من عند الله » واستمرت هذه الدولة من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٧٦٠[2].

هذه الدولة الدينية الجزويتية كان لها أثر كبير على فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا عندما تكلموا عن حياة الفطرة وسعادتها وأنها هي الدولة التي تمثل المثل الأعلى الاجتماعي وهي التي أوحت الى مفكري أوروبا في ذلك الحين بالكتابة في الشيوعية وفضائلها وحكمها الذي هو في صالح المجموع كما فعل فلتير وجان جاك روسو. وبهذا أصبح للسادة الجزويت مستعمرة مستقلة بهم وتحول التبشير الى استعمار صريح واستغلال سافر، وقد عرف الجزويت كيف يستغلون على أحسن وجه هذه المستعمرة فجمعوا منها الخيرات التي أغدقت عليهم الذهب والفضة

(١) ركييه وكومب تاريخ الكنيسة ص ٤٩٦ وهو كتاب توجته الاكاديمية الفرنسية.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٤.

فاغتنوا وجمعوا الأموال الوفيرة منها وعاشوا أثرياء رأسماليين وأمكنهم بسببها أن ينشئوا الجامعات كجامعة سان جوزيف في بيروت وأن يهتموا بالطب وشفاء المرضى حسب تعاليم السيد المسيح عليه السلام وأن ينشئوا كذلك كليات للطب لها تأثيرها في التبشير وتحويل الناس الى المسيحية عندما يشفون من أمراضهم وان ينشئوا كذلك المراصد الجوية كمرصد زيكافي يقرب مدينة شنغهاي في آسيا ليتنبأ بالأحوال الجوية وتقلبات المناخ وهذه ظاهرة لها أهميتها على سكان آسيا لما ينتابهم من الأعاصير الضارية التي تقتل الكثيرين منهم كما قاموا بأعمال التجارة مع الدول الأخرى واتخذ التجارة كوسيلة للتأثير على نفوس المتعاملين معهم لنشر تبشيرهم وأهدافهم الدينية[1] ومحبة جمع المال والسعي وراء الدنيا، والتنكر لمبادئ الدين من زهد وتقشف لم تنحصر فقط في الجزويت وانما هي عادة قديمة تنزل من القرون الوسطى بين رجال الدين المسيحي الكاثوليك من القساوسة. فقد كانوا يحبون المال حباً جماً حتى ولو ادى ذلك بهم الى الاعتداء على ممتلكات الكنائس النفيسة وبيعها لصالحهم الخاص وحرمان الكنائس منها رغم ما لها من قداسة ورغم تحريم هذا العمل غير المشروع دينياً وقانونياً واخلاقياً.[2]

وهناك من المبشرين من وهب نفسه للتبشير بين المسلمين فقط دون غيرهم ولعل أشهر هؤلاء هو الاب شارل دي فوكو. وهو طراز قائم بنفسه يقوم على المغامرة وحب التفرد الذاتي واشباع شهوة الطموح الديني. نشأ في عائلة غنية ارستقراطية من الالزاس واللورين بفرنسا. ومات ابوه وامه وهو صغير فرباه جده لأمه وكان عمر الجد حوالي السبعين. فنشأ الطفل مدللاً بعيداً عن رقابة مباشرة أبوية حازمة صارمة وبعد ان اتم

---

(١) مآثر الجزويت ص ١٣٤ و ١٣٥.

(٢) جينبرت ص ١٤٩.

دراسته الثانوية دخل الكلية الحربية. وكان من زملائه فيها المرشال بيتان بطل موقعة فردان في الحرب العالمية الأولى والذي رأس فرنسا وهي في محنتها بعد انهزامها أمام الألمان في الحرب العالمية الثانية وكذلك الجنرال سرايل الذي أبلى بلاء حسنا في موقعة المارن في سنة ١٩١٤ وقاد الجيش الفرنسي في الشرق — وتخرج فيها وعين ضابط في فرقة عسكرية تعمل في شمال افريقيا وكانت حياته في المدرسة الحربية والجيش حياة كلها الملذات والشهوات كشرب الخمر والنساء وتدخين السجار غالي الثمن مما عاقه أن يكون جندياً ناجحاً مما اضطره الى تقديم استقالته من الخدمة العسكرية مبكراً[١].

ثم ابتدأ دي فوكو وهو في حوالي الخامسة والعشرين في تعلم اللغة العربية والاهتمام بأمور أفريقيا وأهل افريقيا من المسلمين فقام برحلات في مراكش متخفياً في زي يهود المغرب وكان يرافقه فيها ويرشده في نواحيها المختلفة رجل من اليهود. وكانت لهذه الرحلات الأثر كل الأثر في توجيهه الى الناحية الدينية لما اعتاده في اثنائها من البعد عن المدنية وأساليب الحضارة الأوربية واعتياد الغربة والسكون في الصحراء وابعادها اللانهائية والشعور بقدرة الخالق والتحمل الارادي للمتاعب. والاعتياد على شظف العيش وبهذا تغيرت اخلاقه واتجهت الى الحياة الجادة وأمكنه في هذه الحالة الجديدة أن يكون في خدمة الدين والكنيسة[٢].

ثم اكد فوكو محبته للحياة في الصحراء الأفريقية مرة ثانية برحلات في جنوب صحراء الجزائر. وعندما عاد الى فرنسا قابل القسيس هوفلان وهو صديق عائلته وكان له عليها الأثر الكبير من الناحية الدينية واغراه بالسفر الى الأراضي المقدسة فزارها اكثر من مرة. ولكن أهمها تلك

---

(١) بيزان الأب فوكو ص ١٥.

(٢) بيزان (وهو عضو في الاكاديمية الفرنسية) ص ٢٧ و ٢٨.

الزيارة التي قام بها في سنة ١٨٩٧ فقد نزل فيها عند أحد الآباء الفرنسيسكان الذي اوجد له عملاً يشغل به وقته بجانب أساليب العبادة وهو أن يكون خادماً وبواباً وعاملاً وحدائقياً في احد الأديرة للراهبات الفرنسيسكانيات وكان فرحه بذلك كبيراً [١].

ثم عاد الى فرنسا فجأة واتصل بالقسيس هوفلان صديق عائلته الذي أمكنه ان يلحق دي فوكو بكنيسة مقاطعته في فيقييه في ديسمبر سنة ١٩٠٠ ثم سافر الى روما لنيل البركات فيها. ثم رقي في كنيسته بعد ذلك بعام واحد في يونيو سنة ١٩٠١ ــ ثم سافر الى مدينة الجزائر ومعه توصيات قوية من رئيس كنيسة مقاطعته ومن القسيس هوفلان الى الرؤساء الدينيين في الجزائر وهم رئيس التبشير في الصحاري، ورئيس الآباء والقساوسة البيض الذين يبشرون في مستعمرات شمال افريقيا. فكلفه الأول ان يتجه مؤقتاً الى مقاطعة وهران بقرب الحدود المغربية على أن يتجه بعد ذلك الى الجنوب ليقوم بمهمته التبشيرية وغزو افاق المسلمين الروحية [٢].

والتبشير كما قلت لا ينفصل عن الاستعمار والقوة المسلحة فهي التي تحميه في كل مكان بدليل مادي في حالتنا هذه أن أخطرت السلطات الاستعمارية الفرنسية كل الضباط والجنود في محطات الطريق الذي سيسلكه دي فوكو بمروره من وهران الى بني العباس، وهم الأقوام الذين وقع عليهم الاختيار للتبشير فيما بينهم مارا بعين الصفرة وهي واحة في الصحراء الجزائرية والقيام بواجب حمايته والمحافظة على حياته وتقديم كل المساعدة التي يطلبها في الحاضر والمستقبل. فاستقبله في عين الصفراء الحاكم الجنرال كوشميز بنفسه وانزله اي الأب دي فوكو بطرفه

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٧ و ٤٨.
(٢) بيزان ص ٥٦.

اكراماً له وجهز له كتيبة خاصة من الجنود المسلحين تحت قيادة الضابط ميو. وزاد في اكرامه ان قدم له حصاناً ليركبه ويمتطيه من عين الصفراء الى بني العباس جنوباً في قلب الصحراء. وفي أثناء الطريق أتت خصيصاً لتحيته فرقة من الخيالة المرابطة في منتصف الطريق بقيادة الكابتن سوسبيل الذي حيا دي فوكو وهو على حصانه التحية العسكرية الرسمية وهو رد التحية بأحسن منها[1].

وعندما وصل الى بني العباس في تاجهبط، اصطف طابور من الخيالة العرب لتقديم تحية الاستقبال الاسلامي بأن ترجلوا وانزلوا دي فوكو من على حصانه وأخذوا في الانحناء وتقبيل اطراف سترته الفضفاضة اكراماً له. وقال بمناسبة وصوله سالماً في تلك الجهات « انا متأثر جداً ان انزل السيد المسيح في هذه الاصقاع التي بكل تأكيد لم يصل اليها عليه السلام من قبل »[2].

ويسكن بنو العباس في واحة فيها نحو ثمانية آلاف نخلة في الجنوب الغربي من الجزائر بقرب الحدود مع المغرب. ويعرف دي فوكو هذه الجهات لأنه سبق ان مر بها كما قدمنا كمكتشف، واشترى قطعة أرض فسيحة، مرتفعة من ناحية ومنخفضة من ناحية اخرى. وسمى هذه بالوادي والاخرى بالجبل. وكانت تحتوي على كثير من عيون المياه وآبارها، التي نظفت وهذبت لسكناه فيها ولزراعتها وتوزيع حاصلاتها على المحتاجين والفقراء وبخاصة لمن حوله من العبيد والجنود الذين ابتدأ فيهم تبشيره وتأثيره المسيحي اي بين فئات من الناس لا تملك ارادتها من التابعين لغيرهم وهم العبيد أو التابعين للحكومة وهم الجنود. وبنى له في الأرض كشكاً أو كبينة اي كوخ له المواصفات الدينية لينام

(١) المرجع نفسه ص ٥٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧.

ويتعبد فيه[1] وجمع حوله من يساعده في فلاحة الأرض وهم عبارة عن اثنين من العرب وبعضاً من العبيد وانصاف العبيد الذين يسمون بالحراتين الذين زرعوا له النخيل والزيتون والتين والكروم والشعير وغير ذلك من النباتات. وكان يمضي وقته في الاشراف على ذلك. والقيام بواجبات الاحسان الى المحتاجين بما يتلقاه من السلطات الحاكمة والمتبوعين. وفي العمل اليدوي كالخياطة وحياكة الملابس للمحتاجين اليها وتوزيع ابر الخياطة عليهم. وكذلك في القراءة، والعيادة وتطهير النفس[2].

ولعل العبيد والجند كما قلت شغلوا باله هناك كثيراً وهم المرتع الأول لتنصيره وتبشيره لأنهم ضعاف ولا يملكون أمر أنفسهم. ويسهل التأثير فيهم وكان يشتري بعضاً من العبيد معتمداً في ذلك على دخله الخاص وعلى هبات بعض القساوسة وعلى الجهات الدينية كالآباء البيض. وما كان يجود به الضباط من حوله عند بني العباس. وأيضاً بعض قساوسة مقاطعته في فرنسا، وكذلك ما يجود به الأعيان المسلمون الذين يناصرون فرنسا وغيرهم من السائحين والمرتادين لتلك الجهات من الأغراب، وكان يرى منهم يومياً حوالي ثلاثين واربعين شخصاً. في حين كان عدد العبيد الذي يتجهون اليه يومياً حوالي عشرين. وكانوا يجدون عنده الملجأ والمأكل والاحسان. هذا بخلاف الأطفال الذين كان يعلمهم مبادئ المسيحية والذين كان يعطيهم البلح صباحاً والشعير المطبوخ ظهراً ــ وكان أغلبهم من أطفال البربر لا من أطفال العرب. كما كان يقصده المرضى والعجزة فكان يرسلهم الى الملاجئ والمستشفيات العسكرية والمدنية وكان يزور احياناً بعض المرضى في

(١) المرجع نفسه ص ٥٨ و ٥٩.
(٢) المرجع نفسه ص ٦٢.
(٣) المرجع نفسه ص ٦٣.

منازلهم. فكان بهذه الوسائل وغيرها يؤثر في المسلمين والمسيحيين من حوله على السواء[1].

وكان الأب دي فوكو وهو عند بني العباس تحت رعاية الحكومة الفرنسية عسكرياً وكذلك دينياً. فقد كان يزوره من وقت لآخر القائد لابرين الرئيس الأعلى للواحات الصحراوية من قبل فرنسا المستعمرة لهذه الجهات. وكان يعرف كل شيء وله نفوذ كبير على القبائل في الجزائر وفي السودان الفرنسي وفي الصحراء نفسها. وكان على شاكلة دي فوكو يتعصب للمسيحية ولفرنسا ويمد نفوذها في تلك الأصقاع[2] كما زاره كذلك الأب جيران والأب فيلاروهم من الرؤساء الدينيين وأقاما معه خمسة ايام عرفا كل ما يقوم به دي فوكو من مجهود في التبشير وشجعاه على المضي قدماً في ذلك[3].

ولكن رغم كل جهود فوكو والعطف والمساهمة والمساعدة الرسمية الحكومية والعسكرية والدينية لم ينجح في تبشيره في بني العباس لأن أغلبهم من العرب. ولاقى هناك صعوبة كبيرة في تحويل المسلمين بوجه عام والعرب بوجه خاص من الاسلام الى المسيحية لأن العرب — لا يمكن التفاهم معهم ولا يمكن أن يقوم احترام متبادل بينهم وبين الأوربيين ولا صداقة حقة تدوم[4] ولهذا يأسف الاستعمار والتبشير ان لا يجد ليونه في التوفيق الروحي منذ القرن التاسع عشر بين اتباعه واهل المستعمرات العربية، ولهذا يقر الاستعمار وكذلك التبشير بوجه عام استعمال القوة والقسوة مع العرب والمسلمين وهذا ما حققه لهم

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٥ و ٦٦ و ٦٧.
(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ و ٦٩.
(٣) المرجع نفسه ص ٧٠.
(٤) المرجع نفسه ص ٧٠.

المارشال ليوتي في المغرب مثلاً وكاترو في الجزائر، وجورو في سوريا[1].

ويعطون عدداً من الأسباب لذلك كلها خاطئة. ويلخصها بيزان وهو عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه عن الأب دي فوكو ان هذا الأخير ضد هذه الأسباب وضد هذه النظرية الاستعمارية التبشيرية والأسباب هي الآتية :

١ ــ ان المسلمين غير اجتماعيين وتسودهم الروح الفردية[2]. وهذا غير صحيح لأنهم حسب دينهم يجتمعون بعضهم ببعض خمس مرات في المساجد يومياً وليس أحرص منهم على الاحتفال بأعيادهم واحياء عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم وما فيها من مباهج تجمع شملهم وتوحدهم وتذكي فيهم الروح الاجتماعية. هذا بخلاف اجتماعهم الأكبر كل عام في الحج.

٢ ــ ان المسلمين قوم عدوانيون وينفرون من غيرهم[3] وهذا غير صحيح كذلك لأن الاسلام هو السلام. وان المسلمين عليهم ان يجنحوا للسلم ان جنح غيرهم اليه. وان الله خلقهم في شعوب وقبائل ليتعارفوا لا ليتباغضوا ويعتدوا. وقال سبحانه ﴿**ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين**﴾[4].

٣ ــ ان المسلمين قوم من المتأخرين ولا يفهمون غير لغة القوة[5] وهذا خطأ فهم أهل حضارة وقابلون للرقي والتقدم بدليل انهم انتصروا قديماً على الصليبيين وحديثاً في عهد الرئيس محمد انور السادات على

(١) المرجع نفسه ص ٧٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٠.

(٣) المرجع نفسه ص ٧٠.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٠؛ والمائدة ٨٧.

(٥) المرجع نفسه ص ٧١.

الصهيونية وارتفعوا بمستواهم التكنولوجي الى استعمال أحدث الأسلحة الالكترونية واشدها تعقيداً وكتب لهم التفوق. وكانوا اساتذة الاوربيين عندما نقل هؤلاء عنهم علومهم وفلسفاتهم ونتائج فكرهم في طليطلة باسبانيا الى اللغة اللاتينية بل ترجموا قرآنهم ليعرفوا سر تقدمهم الانساني الحقيقي. وان الذي اخر المسلمين هو الاستعمار والتعليم التبشيري ولكن عرف المسلمون كيف يقاومون كل هذا ووصلوا اليوم الى درجة الاستاذية من جديد في الجامعات الأمريكية وغيرها.

٤ ــ ان المسلمين بحكم دينهم ماديون(١). وهذا اتهام غريب كله التناقض والتعصب الأعمى لأن المادية تكون ممدوحة بالنسبة للحضارة الاوربية وهي رمز للتقدم والرقي، وتكون مذمومة بالنسبة للاسلام لأنه مغلوب على امره. ان الاسلام يمثل الاعتدال بين الروح والمادة. فهو يدعو الى التعبد وتطهير النفس ولكن في الوقت نفسه يقول: ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا وان أعز شيء فيها هو المال والبنون فهما زينة الحياة الدنيا. وهذا كلام يتمشى مع آخر ما وصلت اليه الحضارة الحديثة. بأن المال والاقتصاد هما حجر الزاوية في الحياة المدنية. وأن الأسرة هي الخلية الأولى للمجتمع.

٥ ــ ان المسلمين غير انسانيين لا يفهمون معنى الاحسان ولا معنى الاخاء ولا معنى التواضع وغيرها من الفضائل التي يظنونها مسيحية فقط(٢). وهذا غير صحيح فهي فضائل دينية عامة موجودة في الاسلام وفي المسيحية كذلك. وانما هو الجهل بهم وبدينهم هوالذي صورلهم هذا التصور الخاطئ، فالزكاة ركن ركين من أركان الاسلام المهمة لتوزيعها على السائل والمحروم، والأخاء قائم بين المؤمنين واساسه

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠.

(٢) بيزان ص ٧٣.

التقوى، ﴿ **إن اكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾[1] وهو قائم بينهم و ين اصحاب الاديان الاخرى ولا ينظرون اليهم كأعداء فلا احراج في 'لدين. كما يقول الاسلام بالتواضع لأن من تواضع لله رفعه.

٦ ــ ويقولون أيضاً ان المسلمين اذا تعلموا علوم الأوربيين لجأوا الى الثورات القومية ومحاربة الاستعمار. ولهذا يجب منع المسلمين من هذا الامتياز في المستعمرات وابقاؤهم جهلاء ليزداد خضوعهم السياسي، وخضوعهم الديني للمبشرين[2] وهذه هي الأنانية بعينها وروح التعصب في اجلى مظاهرها. وان المسلمين أرقى من الأوربيين الوحوش لأنهم لما حكموهم لم يضطهدوا المسيحيين وانما اكرموهم بل ان بعض حكام المسلمين كالمأمون عيَّنهم واستعان بهم في دار الحكمة ببغداد لممارسة الترجمة من اللغة اليونانية الى العربية كاسحاق بن حنين وحنين بن اسحاق وحبيش وغيرهم، بل ان قادة الحروب ضد الصليبيين من المسلمين كانوا يرسلون أطباءهم لعلاج اعدائهم من الملوك المسيحيين الصليبيين. وان المسلمين لم يكونوا غلاظ القلوب يعاملون المسيحيين عندما حكموهم ثمانية قرون في اسبانيا بالقسوة الوحشية التي عاملهم بها المسيحيون بعد ذلك عندما اقاموا المسلمين محاكم التفتيش التي كانت تأمر بقطع انوفهم وآذانهم وشفاههم وتغلق عليهم وقوفاً الأبواب التي كلها مسامير ومواد مدببة لتخترق صدورهم وبطونهم ويميتهم شر موت[3]. فالتوحش والاعتداء من صفاة الحياة في المسيحية كما يقول المؤرخ الفرنسي الشهير ميشليه. فهو يذكر ما نصه :

« المسيحية تنظيم سلبي للحياة فهي حياة موت تثير في الانسان نوعاً

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٣) دكتور علي مظهر ــ محاكم التفتيش.

غريباً من الغرائز للقضاء على الحياة ومن يعمل على القضاء على نفسه يسهل عليه القضاء على الغير » ...

٧ ــ ويقولون ان المسلمين يجب ابعادهم عن الاسلام بعدم تعليمهم مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وغير ذلك من اجتهادات الائمة حتى يستمروا في جهل بالاسلام ويسهل قيادهم والتأثير فيهم وتحويلهم الى المسيحية الكاثوليكية. وهذا ما فعلته فعلاً فرنسا في مستعمراتها في شمال افريقيا فحولت اكثر المساجد الى كنائس. وقفلت المعاهد الدينية الاسلامية واستولت على الأوقاف التي كانت يصرف منها على نشر الاسلام ومبادئه وصرفوا أغلب أموالهم على التبشير الكاثوليكي في الجزائر ومراكش لا على المسلمين اصحاب الأرض الموقوفة(١).

ولكن مهما اضطهد الاسلام والمسلمين فهذا الى حين، لان نور الاسلام لا يخبو ولا يضعف وقبسه دائماً مشتعل ونافذ في نفوس أهله وغير أهله والدليل المادي على ذلك ان الاسلام رغم اضطهاد القساوسة له قد غزا احياناً نفوسهم بالاكبار والاعجاب بل صرح احدهم لأكثر من واحد من اصدقائه بأنه يريد اعتناق الاسلام ويدخل في دينه وهو المبشر القديس دي فوكو الذي نحن بصدده(٢).

فعندما زار دي فوكو لأول مرة المغرب ثم الجزائر بوصفه مكتشفاً ومرتحلاً وكتب عنهما كتابيه كان لا يزال متأثراً بالحياة الصاخبة التي كلها اللذات والشهوات التي أشرنا اليها، وكان اللاديني الذي لا يعتقد في المسيحية او غيرها من الأديان اي ان عقله وفكره كان خالي الوفاض وصفحة بيضاء لا ترتسم عليها اي عقيدة يتقيد بها. وكان يقول احياناً

(١) الشيخ الابراهيمي في المرجع السابق ذكره.
(٢) بيزان الاب دي فوكو ص ٣٠ السطر ٣٠ ايضاً.

« يا الهي اذا كنت موجوداً فاجعلني اعرف بذلك » ويقول لاحدى قريباته « أنت سعيدة بايمانك بالله ولكني أبحث عن النور الالهي فلا أجده »[1].

دخل الضابط السابق دي فوكو بلاد الاسلام كما قلت صفحة بيضاء لا دين فيها ولم تنفع ارستقراطيته ولا تعليمه العام ولا الخاص ولا تدين اهله من حوله بالمسيحية ان يقنعه بها. بل يراها مستبدة نظامها صارم واله المسيحية يتطلب من المتعبد اشياء كثيرة مرهقة أهمها خضوعه للكنيسة[2] بنظامها المعقد وجبروتها الذي لا يرحم. ودخل بلاد الاسلام وعاشر المسلمين وهو على هذا يسمع الاذان خمس مرات في اليوم من حوله. ويسمع ترديد جملة « الله اكبر » في كل مكان .. وتأتي كلمة الله الله في حديثهم كثيراً فوجد المسلمين يتصلون بالههم دون وسيط اسمه الكنيسة ووجد ان طقوسهم بسيطة لا تعقيد فيها يصلون في اي مكان ويولون وجوههم نحو المشرق. فأحس احساساً فطرياً بأن هناك ديناً وبأن هناك إلهاً واحداً، وان هناك حياة منظمة تربط العبد بربه دون التواء أو تعقيد، واعجب بالاسلام وبالمسلمين حتى كاد يعلن اسلامه ويتبع هذا الدين دون مبشر يؤثر عليه أو دون تهديد أو ترغيب لأن الاسلام يسير بنفسه دون كنيسة وانه دين الحرية للمتعبد كما أعجب ببساطة حياة المسلمين فكان عندما يعود الى فرنسا يلغي نومه في سريره وكان ينام على الأرض في قصره أي على سجادة ويلبس ملابس مغربية اسلامية[3].

كل هذا يدل في وضوح ان ابعاد الاسلام عن أهله أو غير اهله يقفل ابواب المعاهد الاسلامية واضعاف تدريس القرآن والسنة وتعاليم أئمة الاسلام. وتحويل المساجد الى كنائس وسرقة أموال المسلمين والاستيلاء

---

(١) بيزان ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٣١.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠.

بالقوة الغاشمة على اوقافهم لوقف الصرف على متطلبات الاسلام وتعليمه. كل هذا افتراء استعماري فرنسي ظالم وفاضح ويقره التبشير وينصح به ويشير به في كل مكان وقد تنبأ دي فوكو بثاقب فكره بأن فرنسا لو سارت على هذه السياسة الخرقاء في معاملة الاسلام والمسلمين ستفقد حتماً مستعمراتها الاسلامية في شمال افريقيا في ظرف خمسين عاماً[١]. وقد تحققت نبوءته هذه فبعد استعمار دام اكثر من مائة سنة كله الظلم واضطهاد المسلمين في الجزائر لم يمكن للفرنسيين ولا للكاثوليك القضاء على الاسلام والمسلمين فيها وقامت الثورة الجزائرية الفتية وضحت بأكثر من مليون شهيد مسلم في سبيل الحرية وتم الاستقلال وهذه معجزة من معجزات الاسلام والمسلمين في القرن العشرين.

ان دي فوكو يعيب صراحة الاسلوب الفرنسي الكاثوليكي الصارم في معالمة الاسلام والمسلمين ويرى انه في الامكان تنصير المسلمين بالاقناع والطريق الهادئ بتقديم المساعدات المادية والادبية ونشر الفضائل المسيحية عملاً ونظراً. نعم ان هذا يتطلب وقتاً طويلاً واجيالاً متعاقبة وانما هذا هو الطريق الطبيعي السليم في نظره لتحويل المسلمين الى مسيحيين. وان الصعوبة في هذه العملية الدينية لا تكمن في الفرد المسلم، فهذا شأنه هين ويمكن تحويله وتنصيره بسهولة وانما الصعوبة تتمثل في استمرار هذا التنصير بعد ذلك لأن البيئة التي يعيش فيها المنتصر والمتنصل عن الاسلام تحت تأثير المبشرين لا تقبله هذه البيئة ولا تسمح له بالعيش فيها وتزدريه وتحتقره ولهذا يعود مرة ثانية الى الاسلام ولا تدوم مسيحيته المفتعلة[٢] ويرى دو فوكو ان الفضائل التي يجب أن ينشرها المسيحيون قولاً وفعلاً بين المسلمين ليطمئنوا اليهم هي الاحسان والتواضع والاخاء والتسامح وعدم احتكار الثروات[٣].

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وبطبيعة الحال هذا امل وحلم جميل من أحلام دي فوكو لان المستعمرين ضد كل هذه الفضائل. فهم في المستعمرة لم يجيئوا ليحسنوا على الأهالي وإنما لاغتصاب ثرواتهم وإيمانهم الديني وبالحرب عند اللزوم وهم أهل تعالٍ وغطرسة ولا يمكن أن يكون هناك اخاء بين حاكم يظن نفسه أنه من طينة غير طينة المستعبدين من الأهالي. وظلم المستعمر وشراسته تمنعه من التسامح وتدفعه الى الشدة وهو لن يحقر من قيمة الثروات ويزهد فيها كما يريد فوكو لان طبيعة وظيفته هي السطو والسلب لخيرات بلاد المسلمين.

استمر دي فوكو عند بني العباس الى ان قامت قلاقل مسلحة فيها واعتداءات خطيرة دامية اضطرته ان يرحل بعيداً عنها الى أقوام الطوارق الملثمين. وهم أقوام مسلمون من البربر وأقل في مستواهم الاجتماعي من بني العباس لأنهم متنقلون ورعاة، ذهب اليهم في حشد عسكري يحميه يوم ١٠ يناير سنة ١٩٠٤[1] وهناك تعلم لغتهم واخذ يترجم اجزاء من الانجيل[2] واهتم بسفره الى هناك حاكم الصحراء الديني واوصى به خيراً للحاكم العسكري لابرين : وهذا ابلغه بدوره اهتمام المرشال ليوتي كبير الاستعمار في شمال افريقيا الفرنسي واعجابه به، كما اوصى لابرين صديقه المسلم ورئيس القبائل عند البربر في بلدة حجر التي قرر دي فوكو ان يعيش فيها وممارسة التبشير بين قبائلها وهو الحاج موسى عمستان[3].

ابتدأ دي فوكو بتكوين مركز جديد لتبشيره عند الطوارق وحدد الطلبات الآتية من السلطات المختلفة الاستعمارية ليكون تبشيره منتجاً

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٨٣، ٨٤.

وله فائدته وذلك بأن يكون عنده وحوله زارع شتلات وآخر مختص في حفر وتنظيف الابار المائية وثالث طبيب وايضاً بعض النساء اللائي يعرفن غزل الصوف والقطن وشعر الابل. وواحد أو اثنين من الرجال لبيع الملابس القطنية وآخر لبيع الحدايد وكل ما يصنع من النحاس، وان يعطى مقادير كافية من السكر والملح وتموينه كذلك ببعض النقود والبلح والشعير[١] وعلى ان يكون كل هؤلاء الأفراد ممن يوثق بهم ومن المخلصين لا من الأعداء المعتدين. وابتدأ نشاطه الديني التبشيري منذ ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٥[٢].

هكذا كون دي فوكو جهازه التبشيري ومعداته بين هؤلاء الرعاة من الطوارق والذين يشبههم بالمصريين القدماء في تركيبهم الجسمي والذين دفعتهم الغزوات بعيداً داخل الصحراء. وإنهم يخالفون العرب في عاداتهم وانهم مسلمون حقاً ولكن دون ممارسة للفروض الدينية ودون تعليم ديني اسلامي ولهذا هم اقل من العرب في الثقافة الاسلامية ويتصور دي فوكو انهم اسهل في التنصير والتحويل الى المسيحية من العرب. وانهم بجانب الرعي يمارسون السطو والسلب على القبائل والقوافل التي تمر بأراضيهم ولكنه كتب في سنة ١٩٠٧ انه يجد صعوبات في تنصيرهم مما يثبت ان الاسلام راسخ في نفوسهم بقوة رغم انهم بسطاء وهم اهل للنظرة ورغم هذا يصر دي فوكو على عمله الهادئ في التبشير بينهم عن طريق الوسائل المادية والأدبية في معاملتهم وفي محاولة تحويلهم عن دينهم الاسلام .. فكان يوزع عليهم الحاصلات من بلح وشعير ويعطيهم بعضاً من النقود ويعالج مرضاهم ويروي العطشان. ويطعم الجائع ويصلح فيما بينهم ويبعد خلافاتهم مع بعضهم البعض ويزورهم في بيوتهم ليسأل

---

(١) نفس المرجع ص ٨٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٥.

عنهم. ويعطيهم ما يحتاجون اليه من حديد ونحاس لصنع آلاتهم البدائية[1] وكذلك أبر الخياطة والدبابيس المزدوجة وعلب الكبريت والمقصات والسكاكين للسيدات بوجه خاص. وكان يسمعهم الفنوغراف والتسجيلات الغنائية للرجال والنساء على السواء. ويعطي كذلك العرائس لأطفالهم. وكان يقيم لهم حفلات، وحلقات للرقص من العبيد السود كانت تستمر احياناً كثيرة الى ثلاث ساعات حتى اضحى المركز الديني الذي اقامه دي فوكو نوعاً من المولان روج الصحراوي. واقول المولان روج لانه كان يصر بإلحاح ان تكون هذه المأخورة الباريسية من المعالم التي يجب أن يزورها من يرسلهم من الطوارق الى العاصمة الفرنسية باريس للترفيه وتحبيباً لهم فيه وفي تبشيره[2] .. وللتأثير فيهم وعدم خوفهم منه ولزيادة الألفة بينهم وبينه. وكثر المترددون عليه رجالاً ونساء واطفالاً وسائحين ومرتحلين حتى ان دي فوكو يكتب في احدى رسائله في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٤ : « ان الثقة دائماً في ازدياد بينه وبين الطوارق » ..

وكان يشرح لهم الانجيل ويدعهم يقرأون فيه بلغتهم وكانت الحكومة الاستعمارية تطبع له مطبوعاته لهم بلغتهم تحت امر القائد العسكري لابرين. وكان يوصي بمساعدة من يتبعه من المسلمين ويسهل لهم امورهم ويتوسط لهم عند حكام فرنسا بمختلف اشكالهم كسباً لمحبتهم وتأكيداً لتأثيره عليهم وخاصة بتلك الرحلات التي كان ينظمها دي فوكو لرؤساء وابناء القبائل الموالية لفرنسا ولنفوذه الذاتي للذهاب لرؤية باريس والتمتع بما فيها من مفاسد اخلاقية في السر والعلانية والتي تتنافى

(١) المرجع نفسه ص ٩٥ و ٩٦.
(٢) المرجع نفسه ص ١٠٤.

وتتعارض مع تعاليم الاسلام والتي اضرت كثيراً دي فوكـو وتبشيره فيما بعد[1].

وكان لابرين الحاكم العسكري للصحراء دائم الاتصال بدي فوكو ينفذ مطالبه كلها دون تأخير[2] حتى زادت هيبته واحترامه في المنطقة ومن مظاهر عطف هذا القائد العسكري التي تؤكد الصلة الدائمة والوثيقة بين الاستعمار والتبشير ما يأتي : انه كان ينزل ضيفاً عند دي فوكو. وكان يصطحبه معه في جولاته العسكرية والأماكن المأهولة بالسكان في المنطقة التي يقيم فيها المبشر[3].

وكان يشترك معه في الاستعراضات العسكرية. وبأمر عسكري منه كان يخضع للرعاية الطبية في المنطقة وغيرها وكل من يعملون فيها تحت امر دي فوكو[4] حتى اصبح هذا المبشر الحاكم بأمره في كل ما ومن حوله في تلك الاصقاع وبحيث ان لابريـن كان لا يبدأ بأي عمل رسمي الا بعد استشارته واخذ رأيه. وكذلك فعل رئيـس القبائل الموالية لفرنسا الحاج موسى الذي اشرنا اليه فيما سبق حتى اصبح دي فوكو ذا قوة حقيقية في كل شئون المنطقة وقاضي يفصل في امور الاهالي ويقررهم ويحلفهم على القرآن الكريم احياناً. وبلغت محبة الحاكم العسكري لدي فوكو انهما كانا يأكلان معاً عياناً تحت اي شجرة في العراء وفي خيمة القائد الذاتية وكان يتخذه احياناً كثيرة مترجماً له ووسيطاً بينه وبين الأهالي ورؤسائهم. ودلله القائد اكثر فأمر بأن يعين له خادم خاص من العبيد السود[5] وكل هذه المظاهر وغيرها التي تعتمد

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٤ و ١٠٧.
(٢) المرجع نفسه ص ٩٨ و ٩٩.
(٣) المرجع نفسه ص ١٠٠.
(٤) المرجع نفسه ص ١٠١.
(٥) المرجع نفسه ص ١٠٣.

على الدعم العسكري والتصاق الاستعمار في غير حياء بالتبشير احدث كل الضرر بالنسبة لدي فوكو واظهرته في وضوح انه يستمد قوته وتأثيره من هذه القوة الغاشمة التي تستعبدهم. وأنه هو وتبشيره امتداد أكيد لهذا الاستعباد والاستعمار فتبشيره استعمار روحي واعتداء صريح على الاسلام والمسلمين مهما يأخذ من اشكال العطف الكاذب مادياً أو ادبياً فكل هذه مظاهر زائفة ولهذا بمجرد ان اعلنت الحرب العالمية الاولى في ٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ م وانشغلت فرنسا بها وضعفت رقابتها على مستعمراتها ونقل القائد لابرين من قيادة الصحراء ليشترك في هذه الحرب الاوربية الشاملة، ابتدأت المستعمرات تثور ضد الاستبداد والتبشير واعلنت الحرب المقدسة بين المسلمين في المستعمرات الفرنسية حتى بين القبائل الموالية لفرنسا وخرجت عن طاعتها وهجموا على المركز التبشيري لدي فوكو وقتلوه في اول يوم من شهر ديسمبر سنة ١٩١٦ واسدل بهذا الستار على مسرحيته التبشيرية التي لم يخدع بها المسلمين وذكاءهم.

وأخيراً هناك المبشرون الرسميون التابعون للحكومات الاستعمارية وهم موظفون فيها، ومن أشهرهم الآباء البيض في شمال افريقيا والكلام عنهم يلخصه الكلام عن رئيسهم ومنشئهم في سنة ١٨٦٨ الكردينال لافيجري الرئيس الأعلى للدين المسيحي الكاثوليكي في بلاد الجزائر والصحراء الكبرى والسودان الفرنسي. ولد في سنة ١٨٢٥ وتوفي سنة ١٨٩٢ وهو عالم كبير من خريجي السربون تعمق في اللاهوت والتاريخ وذهب الى الجزائر محيطاً بكل ما يجري هناك قديماً وحديثاً. ووضع خطة للعمل الديني التبشيري لمرؤوسيه من القساوسة بل تعدى كثيراً دائرة الدين الى التدخل في دائرة السياسة وتتلخص اراؤه فيما يأتي :

١ ــ يرى الكردينال لافيجري ضرورة قيام الاستعمار لترقية المسلمين وانه يجب أن يسبق التبشير. فالقوة العسكرية واستعمال العنف ضرورة

لازمة في مبدأ الأمر مع الأهالي حتى يخضعوا تماماً ثم يأتي دور المبشر بعد المستعمر الغاشم ليفتحوا أعينهم على تأخرهم وسوء حالهم ووجوب الخروج من هذه الحالة المتأخرة وبهذا يشعرون بالرفق والرحمة بعد القوة والقسوة والعنف — وان التبشير يمكن ان ينجح حيث يفشل العمل العسكري والعمل الاداري(١).

٢ — يجب أن يساعد التبشير الاستعمار وذلك بانشاء هيئة تبشيرية جديدة تدعى هيئة الأباء البيض مهمتها محاربة الاسلام في الجزائر والصحراء وغيرها — لأن بلاد الاسلام هذه مأوى للقراصنة ومأوى لتجار الرقيق ويجب محاربة الرق والقرصنة اينما كانت (٢).

٣ — ان الاسلام هو عدو فرنسا الأول وعدو الحضارة الغربية ويجب مقاومته ومحاربته والانتصار عليه بكل السبل الممكنة. ولهذا يرى الكردينال لافيجري انه بجانب الاباء البيض يجب انشاء هيئة جديدة اخرى للأباء الملونين من السود اي انشاء قساوسة من الأهالي وتكوينهم تكويناً اوربياً مسيحياً كاثوليكياً بكل دقة أو حسب قوله « لا ينصر الافريقيين الا الافريقيون ومن النوع نفسه ». وهو اتجاه جديد نشأ في التبشير في القرن التاسع عشر بخاصة عند انتشار المذاهب الاشتراكية عامة وفي المستعمرات بوجه خاص وخشي المبشرون البيض من الأوربيين ان مصيرهم الطرد ففي هذه الحالة يبقى المبشرون السود من الأهالي وتستمر المسيحية الكاثوليكية قائمة عندهم(٣).

٤ — مساعدة الحكومة الفرنسية بكل الطرق الممكنة والظاهرة والباطنة في فرض الحماية على تونس. والتمهيد لها لاستعمار مراكش

---

(١) برتران ص ١٠٢.

(٢) برتران ص ١٠٥، ١٠٦.

(٣) جريو ١٣٧.

ودخول ارض المغرب ولقد نجح في هذا لأن فرنسا استعمرت تونس في سنة ١٨٨١ ودخلت المغرب في سنة ١٩١٢. وهذا اعتراف ان التبشير يمهد للاستعمار كما أن العكس كذلك صحيح احياناً[١].

٥ ــ إن الكردينال لافيجري ساعد الحكومة الفرنسية كل المساعدة رغم أنه رجل دين في ان تستغل الجزائر استغلالاً اقتصادياً وذلك لتنفيذه فعلاً لزراعة الكروم فيها على نطاق واسع بحيث اصبحت هذه الزراعة أساس الثروة الاستعمارية فيها ولا اقول القومية واساساً لصناعة الخمور والانبذة المحرمة في الاسلام[٢].

٦ ــ واستغل معرفته بالتاريخ في سبيل الاستعمار والتبشير وذلك بمحاولته هو ورجاله اقناع الافارقة انهم قبل دخول الاسلام في بلادهم كانت بلادهم بلاد لاتينية مسيحية وان الاسلام دخيل عليهم اغتصبهم اغتصاباً واخضعهم لسلطة العرب ولمذلة الأتراك[٣].

٧ ــ وحاول هو ورجاله اقامة دعاية بين أهل شمال افريقيا ان فرنسا جاءت لتحررهم، هي والتبشير، من رق العرب ومن رق الأتراك والعودة بهم الى اصلهم اي الأصل اللاتيني والاصل المسيحي ولا غرابة في ذلك لأنهم كانوا كذلك ولهذا يجب العودة الى العادات والاعراف والتقاليد اللاتينة والفرنسية على يد رجاله من المبشرين. وبهذا يتوهم هو ورجاله منعهم من التعصب للاسلام ومن التعصب ضد فرنسا وضد المسيحية الكاثوليكية[٤].

---

(١) برتران صفحات ١٠٥ ــ ١٠٦.
(٢) برتران صفحة ١٠٧.
(٣) برتران ص ١١٠.
(٤) برتران ص ١١٠.

٨ ـــ نشر كل هذه المبادئ وهذه الدعاية في أجهزة الحكومة الرسمية في الجزائر ولهذا كله كان يعقد الاجتماعات في كاتدرائية مدينة الجزائر يحضرها الحكام وكبار الموظفين وغيرهم من العاملين في الادارة الحكومية الجزائرية الاستعمارية ليقنعهم بكل ما تقدم ويوزع المنشورات والمطبوعات في هذا المعنى. وبهذا يفرض نفسه ورجاله كمعلمين لأسس جديدة للاستعمار والتبشير في الجزائر وشمال افريقيا الاسلامية[١].

٩ ـــ هاجم الكردينال لافيجري ورجاله من الآباء البيض والسود الحكومة الاستعمارية في الجزائر واتهمها بأنها تخضع للروتين والاتباعية والحكم عن جهل وعدم دراسة للمستعمرة كل الدراسة المتفوقة التي تمكنهم من استغلالها وحكمها حكماً صحيحاً [٢] مفيداً لفرنسا.

ولكن هذه الآراء وهذا البرنامج لاقى مقاومة شديدة من حاكم الجزائر في ذلك الحين وهو المرشال ماكماهون الذي اصبح بعد ذلك ثاني رئيس للجمهورية في فرنسا وهذا رغم التمثال الذي اقيم له في مدينة بسكاره وكذلك كل الفرنسيين الاداريين والسياسيين في الجزائر حتى رجال الدين أنفسهم تنفسوا الصعداء لما ترك وظيفته الدينية لارهاقه لهم بالعمل المتواصل وكانت جنازته الرسمية يرثى لها[٣].

اما بعد

فإن التبشير بالوضع المتقدم ذكره اي بكونه يسير في ركاب الاستعمار يتقدمه تارة ويتأخر عنه تارة اخرى وينقلب فعلاً الى استعمار مسلح .. الخ ليس من المسيحية الحقة في شيء وهو يسيء الى مسيحية

---

(١) برتران ص ١١١.
(٢) برتران ص ١٠٨/١٠٩.
(٣) برتران ص ١٠٨/١٠٩ / ١١٤/١٢٣.

المسيح عليه السلام قبل ان يسيء الى الاسلام والمسلمين .. لأن المسيح طلب ممن ينشرون دعوته ان يخرجوا ويرحلوا في سبيل ذلك « والخروج فارغ لا شيء فيه على اكتافهم وان يلتمس القوت من الاحسان اليهم[1] » اي ان التبشير الاول بني على التنسك والزهد لا أن يذهبوا كالحال في العهد الحديث ويدعم المبشرين بمبلغ ٨٢٠ ١٥٠ ٤ فرنكاً في سنة ١٩٢٣[2] ومبلغ ٤٣٢ و ٧٤٨ و ٢٧ فرنكاً في سنة ١٩٢٩[3]. أي ان التبشير كان فقط لنشر الدعوة الدينية لا لأغراض دنيوية كالمادة والمال والتعالي على من ينشرون الدين وتعاليمه بينهم وبدون مقابل[4]. ولهذا عندما قالوا امام السيد المسيح عليه السلام إنهم نجحوا في تبشيرهم وان الناس خضعوا لهم صحح قولهم (لا تستبشروا بأن النفوس قد خضعت وإنما استبشروا بأن اسماءكم خلدت في السماء)[5]. وفي اواخر أيامه عليه السلام قال لمن ارسلهم للتبشير وكما هو مذكور في انجيل لوقا[6] (عندما أرسلتم لتنشروا الدعوة بدون خبز وبدون نقود وبدون نعال. هل كان ينقصكم شيء ؟؟؟ فأجابوا : لا شيء) .. هذه هي الصورة السليمة للتبشير في المسيحية الحقة وهي تناقض تماماً صورته الزائفة في القرن العشرين وما قبله في القرون الوسطى كما رأينا. وهي هذه الصورة الأخيرة التي قاسى منها اخواننا الأقباط قبل المسلمين في مصر لأنه بسبب الاستعمار والتبشير خسروا كثيراً من تحول جزء لا يستهان به منهم الى مذاهب مسيحية اخرى. فهم والمسلمون امام مساوئ الاستعمار والتبشير سواء.

---

(١) انجيل لوقا ٩ (٤) وانجيل مرقص ص ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.
(٢) جيوفي كتابه عالم الاوثان الباب الأول.
(٣) المجلة التبشيرية سنة ١٩٣١.
(٤) انجيل لوقا ٦ (٣٥).
(٥) انجيل لوقا ١٠ (٢٠).
(٦) انجيل لوقا ٢٣ (٣٥).

ونقدم في خاتمة هذا الفصل الثاني من كتابنا شهادة مهمة تؤيدنا في كل ما قلناه في التبشير الكاثوليكي أعلاه. وهو الذي ينتشر في بلاد الاسلام وهذه الشهادة يذكرها تيودور ابل في كتابه عن التبشير البروتستنتي بين المهاجرين الكاثوليك في الولايات المتحدة الأمريكية (صفحات ٧ و٨ و١٠) وهو يؤيد نصين ينقلهما من بروكس في كتابه بعنوان « داخل الملك الثاني »، (صفحات ١٠، ١١). وعن باديفورد في كتابه « المملكة المتحدة وشعوبها »، (صفحة ١٤٨).

وتتلخص هذه الشهادة في تحديد الصفات الاساسية التي يقرها المؤلفون الثلاثة عن التبشير الكاثوليكي — وهم من اقطاب من كتب التبشير البروتستنتي فيذكرون ان التبشير الكاثوليكي له خمس صفات رئيسية هي :

١) انه تبشير يقوم على الاستبداد ولا يؤمن بالحرية كما رأينا اعلاه عند الاب دي فوكو وكيف كان يعتمد الاعتماد كله على السياسة وخاصة على السلطة العسكرية في تبشيره بين قبائل بني العباس والطوارق.

٢) وانه تبشير ارستقراطي لا يعرف الديمقراطية لأنه لا يأخذ بالعدالة والأخاء والمساواة بالنسبة لأهالي المستعمرات وانما يعتدي على اوقافهم ويستولي على أموالها ليصرفها على شئون الكاثوليك ويحرم أصحابها من المسلمين منها كما حدث في الجزائر وغيرها مما أشرنا اليه سابقاً.

٣) وانه تبشير شكلي ومتحجر ولا يعرف التطور والمرونة ولا يهدف الى احترام حقوق الانسان. ولا يدعو الى التقدم والارتقاء لأنه يأخذ بالأساليب نفسها العتيقة والتي تنزل من الحروب الصليبية في القرون الوسطى المتأخرة كما بينا في الأساليب الثمانية التي ذكرناها سابقاً.

٤) تم انه تبشير يؤمن بالخرافات ويملأ عقول الناس بأوهام خارقة

بعيدة عن الحقيقة وعن الواقع الاجتماعي ولا يدرك أهمية رفع المستوى الاجتماعي للناس في حياتهم الواقعة ولا يؤخذ بأساليب التقدم المدني. كالحال مثلاً عند الجزويت كما ذكرنا سابقاً.

٥) يتهم التبشير البروتستنتي التبشير الكاثوليكي بأنه اصلاً ديني بحت وعدواني متعصب لأن هدفه الأساسي هو مجرد ضم تابعين جدد الى الكنيسة الكاثوليكية بأي وسيلة كانت ودون النظر في رفع مستواهم الثقافي والاخلاقي والاجتماعي. وانه يحرضهم ضد الأديان الاخرى بل وضد المذاهب المسيحية الاخرى اي يهدف الى خلق قطيع من التابعين يفعل ما يأمره به رجال الكنيسة الكاثوليكية ودون نقاش أو جدل[1].

نعم انها شهادة رائعة لأنها تصدر من أهل التخصص والاختصاص وبشكل جماعي مشترك وبها تكون ابعد من البعد نفسه عن التعصب الممقوت. واننا لم نبغ في كتابنا هذا الا وجه الحق والحقائق العلمية فقط.

(١) (تيودور بل في كتابه التبشير البروتستنتي بين الكاثوليك صفحة ١/١٠).

التبشير والاسلام

(٢)

ترتبط قضية التبشير بالفترة التي تولى فيها اسماعيل صدقي الحكم والتي شهدت البطش بالدستور وبحرية الرأي والفكر، والتي شهدت كذلك الأزمة الاقتصادية، وكان من نتائج سياسة الوزارة، ان ساعدت الأزمة على التفاقم، ذلك انها « أحدثت انقلاباً خطيراً في البلاد وقعدت متحفزة للأمة، فاضطرب الجو وحفل ببواعث القلق ودواعي الخوف من المستقبل ــ القريب فضلاً عن البعيد ــ واكفهر الأفق واكتظ بالاحتمالات المخيفة، فقبض اصحاب الأموال أيديهم وركدت الأسواق ووقفت حركة التجارة، وبدت الوزارة اعجز ما تكون حتى عن علاج حالتها هي فضلاً عن حالة البلاد، وضعفت الثقة واشتد الخطب بما لجأت اليه الوزارة وانصرفت له من انشاء حزبها وجمع المال له ومطاردة خصومها واضطهادهم »[١].

وفي هذه الأجواء شهدت مصر حادثاً اهتزت له، ذلك ــ كما يرى هيكل ــ « ان نشاط المبشرين بالمسيحية ظهر فجأة في ثوب مخوف،

---

(١) هيكل واخرون : السياسة المصرية والانقلاب الدستوري ص ٦٢.

وتناقلت الصحف يومئذ ان الجامعة الأمريكية هي مصدر هذه الدعايات التبشيرية، وان بها أركان الحرب التي تنظم هذه الدعايات، وكان غريباً حقاً ان هذا النشاط الذي أبداه المبشرون، والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين ـــ فقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى بور سعيد والى غيرها من المدن والأقاليم »[1]، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التي يلجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال والأبرياء من أبناء المسلمين الفقراء[2].

ويذكر هيكل ان الناس ارتاعوا لهذه الحملة التبشيرية ايما ارتياع، وجعلوا ينظرون الى موقف الحكومة منها نظرة كلها عدم الرضا، وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير كانت تجتمع في دار الشبان المسلمين وكان هيكل من اعضائها، وكان من اعضائها كذلك الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي كان شيخاً للأزهر في سنة ١٩٢٨، فلما لم يستطع ان ينفذ اراءه في اصلاح الأزهر استقال من مشيخته، وكان انضمامه الى هذه الجمعية التي تقاوم التبشير مما زادها قوة في نظر الرأي العام، ومما دعا صدقي ليحسب لهذا الجو الجديد كل حساب[3]

وقد اشتركت الصحف المصرية في مقاومة هذه الحملة عدا صحيفتي الشعب والاتحاد[4] فقالت صحيفة البلاغ عن حوادث المبشرين :

« لقد كثرت حوادث المبشرين ولم ينس الناس بعد حادث صمويل زوعر في الأزهر ولا حادث خطف الفتاة من شبين القناطر ولا نظن حكومة مهما ضعفت ترضى لنفسها ولشعبها هذا الهوان بدعوى

(١) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٨.

(٢) البلاغ : في ٢٥ يناير ١٩٣٢ ـــ الجهاد : في ٢٣ يونيو ١٩٣٢.

(٣) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٨.

(٤) انور الجندي : الصحافة السياسية ص ٦٠٦.

الامتيازات الأجنبية ولكن كيف يطمع أحد في أن تقف الوزارة الحاضرة موقفاً جاداً ازاء هذه الحوادث وهؤلاء المبشرون يلقون باعتراف صحف الوزارة — في دور الحكومة كل مجاملة وكل مساعدة »[1].

وقالت صحيفة « الجهاد » : « الواقع أن التبشير حركة استعمارية وليست حركة هداية الى دين الهي ايا كان الذي تدعو اليه، فاننا لا نعرف ديناً من الأديان يوصي بالغدر والخيانة، انها أحابيل للعيش ينصبها المستعمرون لخدمة المطامع السياسية ويتوسلون اليها بأناس يرتزقون من هذه المواد »[2].

وكانت الصحف تنشر كل يوم جديداً عن هذه الحركات التبشيرية، وكانت توجه الى الحكومة تطالبها بحماية السذج والأطفال من هذه الدعاية الخطرة، على حد تعبير هيكل، الذي كان من أشد أعضاء جمعية مقاومة التبشير تحمساً للمقاومة، ولعل ذلك يرجع أيضاً الى ادراكه ازدواجية الحركة حينما ارتطمت بأوضاع السياسة، فلم يعد الهدف من المقاومة للتبشير معارضة صدقي ووزارته، بقدر ما كان هيكل مقتنعاً بأن هذه الحركة : يقصد بها الى اضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة، ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو اضعاف معنويات الشعب باضعاف عقيدته، وان لم يبلغ هذا الاضعاف حد ارتداده عن دينه إلى دين آخر[3].

هذا الى ان هيكل رأى في هذه الحركة مقاومة لما يؤمن به من حرية الرأي : فاغراء الناس بالوسائل المادية لحملهم على تغيير مذهبهم أو عقيدتهم أو رأيهم، هو محاربة دنيئة لهذه الحرية، وهو استغلال للضعف الانساني، كاستغلال المرابي حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش، والتبشير

---

(١) نفس المرجع : البلاغ في ٢٥ فبراير ١٩٣٢.

(٢) نفس المرجع : الجهاد في يونيو ١٩٣٢.

(٣) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٩.

فضلاً عن هذا مناف لقواعد الخلق، ما دام يتم في الظلام، ولا يصارح القائم به الناس برأيه ليناقشوه هذا الرأي وليبينوا ما فيه من زيف أو فساد »[1]

وتأسيساً على هذا الفهم، وقفت (السياسة) من حركة التبشير موقف المقاومة العنيفة، وفتحت صفحاتها لحملة عنيفة اشترك فيها رجال الفكر ورجال الدين معاً، فمن ذلك أن علي عبد الرازق ألقى محاضرة عن الدين تعرض فيها للتبشير في جرأة بالغة، وقال ان الاسلام قوي ولا يؤثر فيه التبشير[2]، كما نشرت السياسة عشرات المقالات في هذه الحملة على هذا النحو :

ــ التبشير والسياسة التي توازره[3].
ــ حديث المراغي عن التبشير[4].
ــ التبشير بالتعذيب[5].
ــ حديث عن التبشير[6].
ــ حول التبشير[7].
ــ تصريح الحكومة عن التبشير[8].
ــ انتشار مآسي التبشير[9].
ــ رجال الدين والأزهر وموقفهم من التبشير[10].

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٩.
(٢) و (٣) السياسة : في ١٣ يونيو ١٩٣٣.
(٤) في ١٢ يونيو ١٩٣٣.
(٥) السياسة : في ١٣ يونيو ١٩٣٣.
(٦) السياسة : في ١٥ يونيو ١٩٣٣.
(٧) السياسة : في ١٦ يونيو ١٩٣٣.
(٨) السياسة : في ١٨ يونيو ١٩٣٣.
(٩) و (١٠) السياسة : في ١٩ يونيو ١٩٣٣.

ـــ تغريب الشرق والتبشير [1] .
ـــ حوادث التبشير في مصر حلقة من سلسلة الغارات على العالم الاسلامي [2] .
ـــ حركة التبشير، حملة على المبشرين ومؤيديهم [3] .
ـــ غزو العقيدة الاسلامية غاية التبشير [4] .
ـــ العذاب في سبيل العقيدة : حديث الاستاذ الاكبر عن التبشير [5] .
ـــ خطر الحركة التبشيرية وعقد مؤتمر اسلامي [6] .
ـــ تبعاتنا كمصريين عما يقع من التبشير [7].
ـــ حديث عن التبشير مع ابراهيم الهلباوي [8].
ـــ مسئولية الوزارة الحاضرة عن حوادث التبشير [9].
ـــ ملايين الجنيهات للهيئات التبشيرية [10].
ـــ التبشير والاقليات ... الخ [11].

وقد اشار هيكل في مذكراته [12] الى أنه واصل حملته ضد التبشير والمبشرين رغم اجراء التحقيق معه في بعض القضايا الصحفية، وانه

(١) السياسة : في ٢٠ يونيو ١٩٣٣.
(٢) السياسة : في ٢١ يونيو ١٩٣٣.
(٣) السياسة : في ٢٢ يونيو ١٩٣٣.
(٤) السياسة : في ٢٣ يونيو ١٩٣٣.
(٥) السياسة : في ٢٦ يونيو ١٩٣٣.
(٦) السياسة : في ٢٦ يونيو ١٩٣٣.
(٧) السياسة : في ٢٧ يونيو ١٩٣٣.
(٨) السياسة : في ٢٧ يونيو ١٩٣٣.
(٩) السياسة : في ٢٩ يونيو ١٩٣٣.
(١٠)السياسة : في ٢٨ يونيو ١٩٣٣.
(١١)السياسة : في ٣٠ يونيو ١٩٣٣.
(١٢)السياسة : ملحق السياسة في ١٠ يونيو ١٩٣١، ١٦ فبراير، و ١٩ مارس و ١٨ و ٢٩ ابريل و ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢ ـــ مقالات بعنوان حياة محمد (عرض ونقد لكتاب دومنجم).

« القى على ادارة الأمن العام الأوربي في وزارة الداخلية المصرية تبعة هذا التبشير واستمرت الحال شهوراً، دعي أثناءها الى النيابة غير مرة ورفعت الدعوى عليه امام محكمة الجنايات بتهمة أن محرري السياسة يحرضون أهل الأديان المختلفة بعضهم على بعض »[1].

وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقف هيكل منها ان اندفع للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها. ورأى ان هذه الطريقة المثلى توجب عليه ان يبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية ومبادئه بحثاً علمياً، وان يعرضه على الناس عرضاً يشترك في تقديره المسلم وغير المسلم[2].

وقد شرح هيكل في المذكرات الاحداث التي وجهته نحو السيرة وذلك حين قرأ كتاب الكاتب الفرنسي بير ديجو عن حياة محمد في هذه الآونة ونشر عنه بحثاً في السياسة الاسبوعية[3]. فلما ظهر العدد الذي نشر فيه اول مقال من هذا البحث تخاطفه الناس، حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذي طبع، فشجعه ذلك على المضي في بحثه وعلى الاستزادة منه، وعلى مراجعة المراجع العربية القديمة التي وضعت في حياة الرسول وفي مقدمتها (سيرة ابن هشام)[4].

وفي ذلك ما يبين ان حوادث النشاط التبشيري، والاهتمام بها من وجهة النظر الصحفية، كحوادث شغلت الرأي العام في حينها، كانت دافعاً لكي يتابع هيكل خلال اربع سنوات تمحيص حياة النبي العربي وتعاليمه[5]، ولعل ذلك يرجع ايضاً الى ايمان هيكل بوجوب اشعال الثورة

---

(١) ، (٢) جـ ١ ص ٣٥٤.

(٣) نفس المرجع ص ٣٢٩.

(٤) و (٥) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٩ ــ ملحق السياسة في ٨ ابريل ١٩٣٢. بعنوان (حول حياة محمد).

في الحياة الادبية والصحفية وتذكية العاطفة الدينية قال[1] ليقتحم ادبنا اذن ماضينا وليقتحم هذا الماضي بأدوات البحث الأدبي وبأساليب الكتابة الحاضرة .. وليقتحم هذه الميادين غير هياب ولا متردد، وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الأدب الغربي تراث اليونان، وليقلب في هذا الماضي ما شاء له التقليب والتنقيب بروح البحث والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده. الحق في اسمى صوره التي تلتمس الانسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أبناء الانسانية وشعراؤها وكتابها ثم لا يلبث ان يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح، وقال : « الحق الذي تقوم الحضارات على اساسه والذي يدعمه الأدب على اسنة اقلام كبار الموهوبين من الكتاب، هو الحق في صلة الانسان بالوجود كله : بهذه الأفلاك التي نرى، وبهذه السماوات التي تغمرها، وبالروح الفياض بالضياء، والذي يحيط بذلك كله ويبعث اليه الحياة والنور، هذا الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه. وصلة الانسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود جميعاً، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب[2] ».

على أن هيكل[3] يقرر ان ظروف حياته العلمية والصحفية قد اتاحت له ان يرى في مختلف بلاد المشرق الاسلامي نشاط رجال الكنيسة المسيحية في الطعن على « الاسلام وعلى محمد والاستعمار الغربي يؤيد بقوته اصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأي، مع ان اصحاب هذه المطاعن قد اجلوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الايمان

---

(١) السياسة الاسبوعية : في ١١ مايو ١٩٢٩ ــ ايضاً : ثورة الأدب ص ٢١٨.

(٢) نفس المرجع.

(٣) حياة محمد ص ١٧.

في نفوس اخوانهم في الدين. وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين، وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد ما دس على الاسلام مما يبرأ الاسلام منه. وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيغها العقل ولا يقبلها الذوق، وعلى تأييد الطاعنين على الاسلام وعلى محمد بما دس على الاسلام وعلى سيرة الرسول »، وقد أتاحت له ظروف حياته كذلك أن يتبين « ما يقصد اليه من قضاء على الروح المعنوية في هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأي وحرية البحث ابتغاء الحقيقة »[1]. وقد شعر هيكل بأن عليه « أن يقاوم هذا التعصب الذي يغذي حركة التبشير، ليفسد الغاية التي ترمي هذه الخطة اليها، والتي تضر الانسانية كلها ولا يقف ضررها عند الاسلام والشرق »[2].

« وأي اذى يصيب الانسانية اكبر من العقم والجمود يصيبان نصفها الأكبر والأعرق في الحضارة على حقب التاريخ. ولذلك فكرت في هذا واطلت التفكير، وهداني تفكيري آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الاخرى، على ان تكون دراسة علمية على الطريقة العربية الحديثة، خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده »[3].

وفحوى خطة هيكل هي « اظهار الحقيقة ومحاربة المغالين من المسلمين بحذف الاضافات التي اضافوها الى اجزاء من سيرة الرسول بحيث اصبح المعدل فيها والممكن غير معقول او ممكن »[4]. على ان الطريقة التي اتبعها هيكل في دراسته لحياة الرسول تتسم بطريقته في

---

(١) حياة محمد ص ١٧.

(٢) ملحق السياسة : في ٢٢ مايو ١٩٣٢ حياة محمد ص ١٨.

(٣) ، (٤) هيكل : حياة محمد ص ١٥٠.

البحث العلمي، الذي مارسه من قبل، كما تتسم بقوة ملكته القانونية في المحاجة، التي استفادها من عمله بالمحاماة، وكذلك بقوة وحرارة الكتابة التي تعبر عن عقيدة خاصة كما تمرس بذلك في الصحافة الحزبية، ولذا نجده يقول: « لعلي اكون ادنى الى الحق اذا ذكرت اني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة اذا ذكرت ما بين حياة محمد وبين الطريقة الجديدة من شبه قوى فهذه الطريقة تقتضيك اذا اردت بحثاً ان تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة وان تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية، وهذه الطريقة العلمية هي اسمى ما وصلت اليه الانسانية في سبيل تحرير الفكر وهي مع ذلك طريقة محمد واساس دعوته[1] ».

وبهذا الاسلوب العلمي ومن أجل تلك الدوافع، مضى هيكل يدفع حملات المبشرين عن الاسلام، وعن روح الشرق، فيكتب في ملاحق السياسة، التي كانت تصدر لهذا الغرض، بعد تعطيل السياستين اليومية والاسبوعية، سلسلة مقالات تتسم بهذا الطابع العلمي، وتدور في فلك الدفاع عن الاسلام والكشف عن الروح الخالدة فيه. ومن هذه المقالات :

ــ حول حياة محمد[2].
ــ كيف ولماذا اكتب حياة محمد[3].
ــ اثر المستشرقين في البحث الاسلامي[4].
ــ بين مصر وبلاد الشرق العربي[5].

(١) ملحق السياسة في ٨ ابريل ١٩٣٢.
(٢) ملحق السياسة : ١٣ مايو ١٩٣٢.
(٣) و (٤) ملحق السياسة : ٢٣ مايو ١٩٣٢.
(٥) ملحق السياسة : ١٧ سبتمبر ١٩٣٣.

ـــ الاجتهاد والتقليد[1].

ومن ذلك ما كتبه عن كتاب « وجهة الاملاء » الذي الفه : « جب » و« ماسينيون » و« كامبفاير » و« فرار » وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين في أوربا ـــ على حد تعبير هيكل ـــ وقد تولى « جب» نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التي حاول فيها تصوير اتجاه الشعوب الاسلامية في هذا العصر. اما « ماسينيون » فقد كتب عن شعوب شمال افريقيا فيما عدا مصر والشرق العربي وتركيا وفارس وافغانستان وكانت الهند الاسلامية موضع دراسة اللفتنانت كولونيل فرار، كما كانت اندونيسيا موضع بحث « برج » وقد « تعاون هؤلاء الاساتذة جميعاً في دراسة العوامل والاتجاهات التي تبدو وتعمل في الممالك الاسلامية وارادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم ان يصوروا مواقف الاسلام من اوروبا وموقف اوروبا من الاسلام وما يجب أن تكون صلات الفريقين في المستقبل بعد ان وصفوا ما كانت عليه في الماضي »[2].

ويرى هيكل ان هذا الكتاب سياسي يقوم على أسس من البحث العلمي « وانت لذلك يجب اذا قرأته ان تقرأه بما يجب من حذر السائر في مسالك السياسة. ومن سكينة المطمئن لنزاهة مباحث العلم ويجب عليك كذلك ان تعمل للاستفادة منه كمسلم وكشرقي في مثل الغاية التي وضع لها »[3].

ويخلص هيكل من عرض الكتاب ونقده الى أن الاسلام لم يكن ديناً وعبادة وكفى، منذ اللحظة الاولى، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على اسسه واصوله التي توطدت في حياة محمد بخير ما

---

(١) ملحق السياسة : ٧ يناير ١٩٣٣.

(٢) ملحق السياسة : ١٤ اكتوبر ١٩٣٣.

(٣) ملحق السياسة : في ١٤ اكتوبر ١٩٣٣.

توطدت لحضارة ولثقافة أسسها واصولها الاولى، لذلك كان طبيعياً ان تتغذى الحضارة الاسلامية وان تتغذى الثقافة الاسلامية من كل ما غزوا من ميادين البحث والعلم، على أنه كان ككل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً بهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التي ترمي الاصول والاسس .. لادراكها .. وفي مقدمة ما ترمي هذه الاصول والاسس له — عند هيكل — تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثل فكرته. والغاية التي يرمي الاسلام لها درك كمال النفس وفي حسن اتصالها بالله، واسلامها له اسلاماً صحيحاً، وهذا وذلك لا يتحققان الا بتحقيق المعرفة في اسمى ما تستطيع عقولنا وعواطفنا وافئدتنا وقلوبنا ان تصل اليه[1].

ويأخذ هيكل على قول جب[2] : « ظل علماء الاسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعاً — وجوب الاذعان للسلطة سواء كانت هذه السلطة شرعية ام مغتصبة، وقوى المتمسكون هذا الدرس في النفوس بصورة لا تحتمل الريب، وتبدى الهمود السياسي وكأنه متأصل في الشعوب الاسلامية حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا عظيم تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم الى العقيدة القدرية في الاسلام ». ويرى هيكل ان قول جب هذا، لا يتصف الاسلام حين يعزو اليه اي حظ من حظوظ هذه القدرية التي أدت بشعوبه الى الاستكانة. فالاسلام لا يدعو للاذعان الى احد الا الله والقرآن الكريم اعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما يقول في صدر الكلام عنهما : ﴿ **وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾[3]. فإذا كان ذلك شأن الوالدين فما بالك من يجاهدك لما ليس

(١) ملحق السياسة : في ١٤ اكتوبر ١٩٣٣.
(٢) نفس المرجع.
(٣) سورة لقمان الآية ١٥.

لك به علم، وان تصل من الخضوع له حتى تجعله في السلطان لله شريكاً ان أقل ما يأمر به الاسلام في هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه. فأما ما جاء بعد ذلك من خضوع واستسلام فإنما كان أثراً لهذا الانقلاب النفسي في تصوير اساس الحكم في الاسلام[1].

وينتهي هيكل من ردوده على المستشرقين، الى ان التبشير لن ينال اي نجاح اكثر من اثارة الشعوب الاسلامية عليه وعلى الاستعمار، ولن يكون من اثره الا اثارة الكراهية والمقت في قلب الشرق وفي قلب العالم الاسلامي للغرب وحضارته المادية التي هوت بأساسها من حرية العقل الى صور من الأدب ومن الموسيقى ومن الرقص ومن الوان الحياة والترف تدل على ان هذه الحضارة قد آذنت بالافول، وانها تخطت جانب الصعود الى جانب الانحدار والتدهور[2].

ويرى هيكل ان الذين يقومون بأمر الصحف في الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعماره وتبشيره كثرتهم الساحقة — ومنهم هيكل — من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته « ومن الذين يؤمنون ولا يزالون بأن الأساس الذي قامت عليه، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمي بحثاً جامعياً منظماً، هو خير اساس تقوم عليه حضارة، على ان لا ينكر هذا الاساس حاجات الروح للاتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آلة، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحي النفس والهام الفؤاد سلطانهما في الحياة، وعلى أن ينظر الى العالم على أنه كل له وحدته العليا، لا على أنه كم مادي يستطيع العقل أن يصل الى كنه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمي الناقصة غاية النص، ولا تزال »[3].

---

(١) ، (٢) ملحق السياسة في ١٤ اكتوبر ١٩٣٣.

(٣) نفس المرجع.

ويرجع هيكل هذا الاتجاه الحديث الذي تأصل في نواح كثيرة في الحياة الاسلامية الى الثورة على الجمود والتقليد الأعمى وعلى الخرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الازدراء بالعقل الانساني وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التي كانت سبباً في تدهور الانسان وانهيار الشعوب الاسلامية[1] وليس ادل على ذلك من ملاحظة « جب وزملائه » من ان كثيرين مع الشبان منهم هيكل الذين حملوا الوان الحضارة العربية واخذوا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم مما يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بأنهم في حاجة الى اكثر مما تمدهم الحضارة العربية به، وانهم لذلك يجب أن يلجأوا الى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة. وزادهم شعوراً بهذا النقص ان رأوا الفكرة القومية تقوم في الغرب على نضال اقتصادي عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق. وقد زادت الحضارة التي كانت ولا تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة. فهل ترى يجد العالم الاسلامي في تراث الماضي ما يشفي غلة روحه مما عجزت الحاضرة العربية عن ان تقوم به. وما يقيم حضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادي[2] ؟

ان هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الانحلال الذي أصاب العالم الاسلامي قروناً متواصلة. ولذلك يدعو هيكل رجال العالم الاسلامي الى العمل على ازاحة اكداس هذه الطبقات وان يعيدوا الى الوجود في احدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذي غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة اجيالاً وقروناً طويلة[3] ..

ويستشرف هيكل آفاق المستقبل، حين يتم ذلك، حيث يتاح للعالم

---

(١) ، (٢)، (٣)، نفس المرجع.

الاسلامي بموقعه الجغرافي بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الاخرى الاسيوية أن يمد يداً الى ناحية ويدا الى الاخرى ليرتفع بهؤلاء واولئك الى ميادين الحضارة الصحيحة الحضارة التي تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح، الحضارة التي تقوم على اساس الاخاء وتقول ان المرء لا يكمل ايمانه حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه، الحضارة التي لا تعرف غير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً »[٣] ..

وخلاصة القول، ان هذه الرؤية العلمية في الدفاع عن الاسلام ـــ والتي تجلت في اتم صورها على اثر حوادث شغلت الرأي العام في الصحافة المصرية ـــ ترتبط كما قدمنا بالروح المصرية التي تفرعت حتى شملت الأسس والدعامات والأصول التي تستند اليها الشخصية المصرية، وصار هيكل رويداً رويداً اكبر مدافع عن مكونات الأدب والفكر والثقافة والعقيدة المرتبطة بأرض مصر.

وسخر قلمه وصحافته ومنطقه لدفع كل ما يمس هذا الكيان بسوء كما أوقف معظم جهوده لبث روح الايمان والثقة في نفوس أبناء الشرق العربي واخذ على عاتقه مهمة ايقاظ المشاعر واستنهاض الهمم لدى الشباب الحائر الموزع الاحاسيس، على النهج الذي دعا رجال العالم الاسلامي له.

وفي ذلك يقول :

« الحضارة في مصر بعد الف سنة. ومن يريد ان يفهم حضارة الشرق بعد الف سنة، لا غنى له عن ان يرجع الى العهود التي سبقت هذه الحضارة

---

(١) نفس المرجع.

حتى يصل الى مصر الفرعونية والى ما قبل مصر الفرعونية، ان كشف التاريخ عن شيء كان قبلها .. فإن لقاء الحضارات يجعل منها وحدة اقوى من كل وحدة تدور بخاطر انسان، وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس الى حضارة تتضاءل امامها الحضارات التي عرفت حتى اليوم، لأنها تكون حضارة اوسع افقاً، واغزر مادة، واغنى بماضيها العريق الأصيل »[1].

(١) في ٢٩ ١٩٣٣.



الباب الخامس

الاستشراق والاسلام



الاستشراق والاسلام

الاستشراق جزء لا يتجزأ من الاستعمار يمده بكل ما يلزمه من المقومات والمساعدات فيؤدي وظيفته المتممة له وهي التشهير بدين المسلمين وبنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وبأهل بيته الكرام والتحقير من عقليتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم ونشر الافتراءات والأكاذيب ضد الحكم الاسلامي من أنه حكم مستبد لا يعرف الديمقراطية ومظاهرها كالحرية والإخاء والمساواة. وأن هذه يتوهمونها خطأ من خلق فرنسا بثورتها الفرنسية في القرن الثامن عشر. ويعرضون بالمجتمع الاسلامي من أنه يقر الرق وتعدد الزوجات وغير ذلك من مهاجمة مظاهر الحياة المدنية ضد المسلمين كما يحقرون فنون الاسلام ويباعدون بينها وبين الدين في اقرارها وتشجيعها .. وغير ذلك من الوان الهجوم غير المشروع على التراث الفكري والاجتماعي والأدبي والتحقير من مظاهر الثقافة والحضارة الاسلامية لخلق العقد النفسية والحقارة الذاتية عند المسلمين حتى يسهل قيادهم وامكان خضوعهم للاستعمار وأعوانه.

والدليل على ذلك التصاق الاستشراق بالاستعمار الفرنسي وعدم الانفصال عنه وما كان مثلاً من شأن الاستشراق ومتابعته ومرافقته لحملة نابليون بونابرت في مصر، فقد كان المستشرقون فيها هم المترجمين بين القوة العسكرية وبين الحكام الوطنيين. وكانوا هم الذين يكتبون

المنشورات السياسية والدينية ويطبعونها لتوزيعها حسب ما يراه الاستعمار من اتجاهات واوامر وهم الذين كانوا ينشئون الجرائد ويطبعونها ويشرفون عليها وعلى توزيعها في الدوائر الحكومية وفي غيرها، وهم الذين يدونون اوامر الحاكم المستعمر باللغة العربية ليقرأها عملاؤهم من المواطنين الذين قبلوا التعاون معهم.

ومن المستشرقين الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر يمكن ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر المستشرق ج.ج. مارسيل الذي انشأ فيها المطبعة العربية، وهو شيء جديد لم تعرفه مصر منذ عهود الفراعنة وطوال تاريخها المديد الى قدوم بونابرت وقد عين مارسيل رئيساً للمطبعة الوطنية في ذلك الحين ومن أشهر أعماله في الاستشراق والتي قدم بعضها للنشر الى الجمعية الاسيوية الشهيرة في الاستشراق بفرنسا البحث الذي كتبه سنة ١٨٣٣ عن الكتابات الكوفية. واخر ظهر له في سنة ١٨٣٤ عن اثر عربي محفوظ في مدينة يهزا. وقبل ذلك في سنة ١٨٢٨ طبع كتابه عن كيفية تفسير انواع الخطوط العربية. وفي سنة ١٨٤٨ يظهر له كتاب تاريخ مصر من الفتح العربي الى الغزو الفرنسي وهو كتاب يقال عنه انه لا يزال يحتفظ بقيمته العلمية الى الآن رغم قدمه، كما يهتم بعلم المسكوكات فطبع في سنة ١٨٤٣ كتاباً عن مختلف انواع النقود المتداولة في الجزائر الحقه في السنة التالية بجدول عام لهذه النقود[١].

كذلك عندما أراد بعض المستشرقين الفرنسيين اقامة ندوة لهم عن الاسلام وهم : وجود فرواد بمونيين الاستاذ بالسربون بباريس ومرسل جرانيه الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ولويس ماسينيون الاستاذ بالكوليج دي فرانس ... وغيرهم لم يجدوا من يعقب على محاضراتهم

(١) انظر الكتاب المئوي للاستشراق ص ١٤٨.

في هذه الندوة ويتعاون معهم فيها برئاستها ويتشرفون بحضورهم الكريم غير المرشال ليوتي والجنرال فيجان وأمثالهما الأول وهو المارشال هو اكبر قطب للاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا والمدوخ الأكبر والسفاح الأعظم الذي عذب شعب المغرب الشقيق وأقام له المشانق والمجازر وأذل الاسلام والمسلمين واذاقهم ألوان العذاب لأنه من أشد الفرنسيين تعصباً ضد العرب والمتخصص الفني في استعمارهم واستغلال بلادهم والقضاء على دينهم بالقوة الغاشمة. هذا المستعمر الذي يعين السلاطين والملوك والرؤساء كيفما يشاء في بلاد شمال افريقيا الاسلامية ويطردهم كما يشاء هذا المتعصب الذي غلب في تعصبه أعوانه من المبشرين والمستشرقين رأيته بعيني رأسي في يوم افتتاح المعرض الاستعماري الفرنسي الذي اقيم في باريس بغابة سان فانسان في سنة ١٩٣١ وقد كان رئيساً مهيمناً عليه ومعه يومها الجنرال جورو حاكم سوريا وحبيب المرشال وصفيه في المغرب.

رأيتهما يحضران المغاربة والجزائريين لعرضهم والتفرج عليهم في هذا المعرض الدولي والذي دام مدة غير قصيرة. وكان رسم الدخول في قسمهم للتفرج عليهم والتندر برؤياهم يبلغ الثلاثة فرنكات في ذلك الوقت وهو ما يعادل قرش ونصف آنذاك بالعملة المصرية دفعتها ودخلت فدهشت أن يعرض المسلمون عرض البهائم في حدائق الحيوان وبثمن بخس وعرضوا معهم وضمن فريقهم الجمال الصحراوية والحمير المدنية كجزء متمم للبني آدم المسلم، وليس هناك تشهير وتحقير أقذر وألعن من هذا بالاسلام والمسلمين والحق بما تقدم عرضه بعض المقاهي الشرقية تعزف فيها آلة الكمنجة بالمقلوب والوضع المعكوس لاضحاك الفرنجة على المسلمين وفنونهم المتأخرة ظلماً. نعم انها لمأساة أخرجها المرشال ليوتي بل كان بجوار ذلك مأساة أشد واقصى فقد عرض زنوج المستعمرات الفرنسية رجالاً ونساءً وأطفالاً عراة كما ولدتهم أمهاتهم

وفي هذا تجرد من كل حاسة بشرية وروح انسانية. والثاني أي الجنرال فيجان مثل زميله المارشال لا يقل عنه في ارادة الشر الاستعمارية ولكن دوره كان في سوريا منذ سنة ١٩٢٣.

ولقد جمعت محاضرات ندوة المستشرقين هذه في كتاب ظهر في باريس سنة ١٩٢٧ بعنوان « الاسلام والسياسة المعاصرة » وهو كتاب قيم حقاً ونادر الآن وهو من مراجعنا في كتابنا هذا وهناك دليل آخر في هذا المقام على عدم انفصال الاستشراق عن الاستعمار هو الاستاذ ماسينيون الذي اشترك في هذه الندوة والذي حضرت عليه في الكوليج دي فرانس بباريس محاضراته القيمة في الاجتماع الاسلامي بل اعتبره شيخ المستشرقين الفرنسيين ايام بعثنا في السربون — فهو من الاخصائيين واصحاب الفتوى المحترمة في امور شمال افريقيا وشئون الاسلام والمسلمين فيها بدليل مادي ان كان له مكتب دائم في الكيه دورسيه على السين اي في وزارة الخارجية الفرنسية في قسم شئون شمال افريقيا. ولكي لا أنزهه عن العقد الصليبية التي تكلمت عنها سابقاً.

ثم أن بعض هؤلاء المستشرقين قد يكون من المبشرين أحياناً أي من أعوان الاستعمار كما رأينا ومن أعداء الاسلام والمسلمين في الوقت نفسه كالآباء اليسوعيين الذين يؤلفون القواميس في اللغة العربية ومضاهاتها باللغات الاخرى وبخاصة اللغة الفرنسية. ومن اشهرهم الأب لامانس الذي كان استاذاً بجامعة سان جوزيف ببيروت واستاذاً ايضاً في المعهد البابوي للدراسات الانجيلية في روما وهو بلجيكي الجنسية واهتم بوجه خاص بظهور الاسلام وعهده الأول — فنشر في سنة ١٩١١ بحثه عن النبي محمد — ﷺ — وحديث السيرة وفي سنة ١٩١٥ نشر دراسة عن الاسلام القديم واتجاهاته وفي سنة ١٩١٦ نشر عن التنظيم العسكري في مكة المكرمة خلال قرن الهجرة الأول وفي سنة ١٩٠٩ ظهر له كتابه عن حكم معاوية وابنه يزيد في الدولة الاموية وفي سنة

١٩١٢ طبع كتاباً عن تجارة مكة حوالي ٦٠٠ ميلادية وفي نفس السنة ظهر له كتاب كله النقد عن السيدة فاطمة وبنات الرسول عليه السلام وفي سنة ١٩١٤ نشر الجزء الأول عن مهد الاسلام وعن بلاد العرب عند الهجرة. وفي سنة ١٩١٥ نشر عن معاوية الثاني آخر بني سفيان. ومن قبل ذلك في سنة ١٨٨٩ نشر عن المترادفات العربية وفي سنة ١٨٩٠ طبع ملاحظاته عن الكلمات الفرنسية المشتقة من اللغة العربية. وفيما بين سنة ١٨٩١ و ١٨٩٢ طبع محاضراته عن كيفية الترجمة الفرنسية العربية مع أمثلة لذلك من كبار الكتاب[1].

وقسيس آخر هو بارجيس وكان استاذاً في كلية اللاهوت بالسربون. نشر مخطوطاً عربياً عن منابع النيل في سنة ١٨٤٠. وبحثا عن مدينة تلمسان في سنة ١٨٤١. ثم نشر عن التقاليد الاسلامية المتأثرة بسحرة الفراعنة في سنة ١٨٤٣. ونشر فيما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٦ مستخرجين من كتاب العطاء للشيخ المنوفي. ثم نشر ذكرياته عن مقاطعة حوران في سنة ١٨٤٨ ثم طبع بعد ذلك بحثاً عن التعابير الحميرية التي اوردها احد المؤلفين العرب في سنة ١٨٤٩. ثم ترجم الى الفرنسية في سنة ١٨٥٢ م كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان الذي الفه محمد بن عبد الجليل التونسي. وفي سنة ١٨٦١ نشر دراسة عن ابن حلي اليهودي. وفي سنة ١٨٧٧ طبع بحثاً عن القديس مرقص. وفي سنة ١٨٥٨ ترجم كتاب الحاج محمد الإدريسي عن اسرة بني غلاب سلاطين توجورت. وفي سنة ١٨٨٤ نشر بحثاً عن الزاهد سيدي أبو مدين المتوفي في آخر القرن السادس الهجري والمدفون بقرب مدينة تلمسان[2].

وبجانب القساوسة هناك من المستشرقين من كان يعمل في جيش

---

(١) الكتاب المئوي ص ١٧٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٦ و ١٥٧.

الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا ويشاطرهم في ظلم المسلمين وفرض الذل والاستعباد عليهم مثل جابو الذي كان يعمل كمترجم ووسيط بين قيادة الجيش وبين كبار الأعيان من العرب اهتم بنشر سجل لأسماء الأعلام المتداولة والمنتشرة بين الأهالي في الجزائر كما أنه هو الذي وضع فهارس المخطوطات العربية في المكتبة الأهلية بباريس(١).

وهناك من المستشرقين من عملوا ضباطاً في الجيش الفرنسي وأيضاً قادة من كبار الضباط فيه فمن النوع الأول الكولونيل ترومليه كتب في سنة ١٨٩٢ عن المعتقدات في الجزائر وزيارة الأولياء في منطقة التلال والصحراء كما نشر كتاباً آخر عن اولياء الله في الاسلام. ومن النوع الثاني القائد رين كتب في سنة ١٨٨٤ عن حياة الزهاد في الاسلام وكتب عن تاريخ الانقلاب الذي حدث في سنة ١٨٧١ في الجزائر ثم نشر عن قوانين الأهالي والمصادرة والمسئولية الجماعية في مملكة الجزائر في آخر عهدها(٢) وكذلك يمكن أن نذكر ايضاً الجنرال ديماس فلقد كتب في الاستشراق كتابات لها قيمتها واحترامها. فمن ذلك كتابه عن الصحراء الجزائرية في سنة ١٨٤٠ وكتابه عن العرب قبل الاسلام في سنة ١٨٥٤. وكتابه الحياة العربية والمجتمع الاسلامي نشره في سنة ١٨٦٩. وكتابه خيول الصحراء وعادات البراري نشره في سنة ١٨٥٨. بينما كان قد كتب، في سنة ١٨٤٧ وبالاشتراك مع آخر دراسات تاريخية عن الحياة القبلية. وفي سنة ١٨٤٨ وبالاشتراك ايضاً كتب وصف الصحراء الكبرى الى مواطن الزنوج(٣). وهناك الجنرال فوربيجيه الذي كتب عن تاريخ شمال افريقيا والبربر تحت السيادة الاسلامية الى سنة ١٨٣٠ اي الى الغزو الفرنسي والذي ظهر في سنة ١٩٠٥(٤).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٧.

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٧.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٨ و ١٤٩.

وهناك من المستشرقين من عمل في السلك السياسي الاستعماري فمن هؤلاء أميديه جوبيير الذي شغل وظائف سياسية مهمة في الشرق الأوسط وكلف بمهمام خصوصية وسرية عرضت حياته أحياناً للخطر لجرأتها. فمن ذلك سجنه في بلاد الكردستان وكاد يُحكم عليه بالموت. وفي سنة ١٨٢٧ نشر عن كيفية علاج الطاعون عند العرب في افريقيا. وفي سنة ١٨٣٠ نشر دراسة عن مدينة القسطنطينية وفي سنة ١٨٣٤ نشر تاريخ فارس لأسرة كاجار وفي سنة ١٨٣٣ طبع كتاباً عن قواعد اللغة التركية. وفي سنة ١٨٤١ نشر النص الفارسي عن حياة جنكيز خان الذي وضعه ميرخند ثم نشر جغرافية الادريسي بناء على مخطوطين عربيين في سنة ١٨٤٠. وفي السنة التالية طبع النص التركي للرسالة السياسية لمحمد افندي وشرحه في محاضرات عامة[١]. وكذلك هناك المستشرق كيري وكان يشغل وظيفة القنصل العام في مدينة تبريز وفي تربييزند نشر في سنة ١٨٧١ و ١٨٧٢ ترجمة لمجموعة القوانين الخاصة بالمسلمين الشيعيين وتراجم اخرى من الفارسية في سنة ١٨٨٦ باسم قابوس نامي، ثم نشر بعد ذلك دراسة عن اللهجة الكردية عند قبيلة جيروس[٢].

ومن المستشرقين من باع نفسه للاستعمار الفرنسي وتخصصوا في اطاعة اوامره في التأليف في الموضوعات الاسلامية التي يكلفهم بها هذا الاستعمار. مما يدل على التحاقهم وخضوعهم لجبروته خضوعاً مطلقاً يفعلون وينفذون ما يشار به اليهم. وهذا تقليد اتبعته الحكومة الفرنسية منذ حملة نابليون بونابرت في مصر. فكما فعلت في حينه من تجنيد مجموعة من المستشرقين والعلماء الفرنسيين كلفهم تكليفاً بكتابة الكتاب الأشهر للحملة بعنوان « وصف مصر » سارت على هذا المنوال في

(١) المرجع نفسه ص ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٣.

محاولة الكشف العلمي للبلاد التي يفتحها جيشها ويستعمرها[1]. وهكذا فعلوا بعد ذلك في الجزائر ثم في تونس ثم في المغرب. فمثلاً في سنة ١٨٧٩ وضع المستشرق الكاردر السجل الأبجدي لقبائل الجزائر. وفي سنة ١٩٠١ جمع كولان مجموعة النقوش العربية في محافظة مدينة الجزائر في حين اختص مرسيه بمحافظة قسطنطينية ومنذ سنة ١٨٧٠ يدرس ديفولكس في المجلة الأفريقية المنشآت الدينية الاسلامية وما فيها من نقوش عربية. وفي سنة ١٨٧٤ اهتم بالكتابات الأثرية في متحف الاثار بمدينة الجزائر. وفي سنة ١٨٦٧ قام فيرود ببحث عن قصر مدينة قسطنطينية.

والشيء المهم أنه من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٦٥ قامت الحكومة الاستعمارية العامة في الجزائر بتكليف اعوانها من المستشرقين بدراسة الملكية العقارية عند عرب الجزائر. وظهر في كتاب « وصف الجزائر » الذي كلفتهم بوضعه هذه الحكومة الاستعمارية الفرنسية ترجمة لتاريخ افريقيا الذي كتبه القيرواني وقام بالترجمة المستشرقان بلسييه وريموزاه سنة ١٨٤٥. ودرس كاريت الهجرة عند القبائل العربية في شمال افريقيا سنة ١٨٥٣. في حين درس برينوه لهجة الكلام في مدينة الرباط سنة ١٩١٨ كما درس الصناعات البحرية فيها كذلك. كما طبع الكونت دي كاستري كتاب تاريخ مراكش من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٨٤٥. كما طبع المراسلات بين السلطان مولاي اسماعيل وجاك الثاني والتي يمتدح فيها السلطان الدين الاسلامي سنة ١٩٠٣. ثم اهتم بالرحالة والمستكشفين الفرنسيين الذين زاروا مراكش من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٥٦٠ حسب ما كتب عنهم المؤلفون العرب والذي ظهر في سنة ١٩١١. وكان قد درس قبل ذلك في سنة ١٨٩٦ الحكم والأمثال والشعر عند عبد الرحمن المجذوب[1].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٨.

ومن المستشرقين أطباء ورغم ممارستهم لشفاء الأمراض واهتمامهم بطبائع العقاقير يمارسون كذلك الاسلاميات. فمن اشهرهم الدكتور فرانسوا فوبكي فقد درس في سنة ١٨٥١ الترجمة العربية لكتابين يونانيين مفقودين الفهما اقليدس وفي السنة التالية كتب ملاحظاته على نظرية أضافها ثابت بن قرة الى الرياضيات عند الاغريق القدماء. ومن سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٠ نشر ابحاثاً مستفيضة عن العلوم الرياضية عند اهل المشرق[1]. وفي سنة ١٨٦٢ دون ملاحظاته عن مخطوطات عربية في الرياضيات حصلت عليها المكتبة الامبراطورية. وفي سنة ١٨٥١ ترجم مطلع كتاب الجبر لعمر الخيام. وفي سنة ١٨٥٣ طبع جزءاً من كتاب الفخري وهو كتاب في الجبر الفه ابو بكر الكرخي وكتب له مقدمة عن الجبر عامة عند العرب. وفي سنة ١٨٥٠ قرأ أمام أكاديمية العلوم ملاحظاته على أجزاء من مخطوطات عربية خاصة بتاريخ الرياضيات. وفيما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦١، طبع في روما ابحاثاً عن مؤلفات متعددة أثبتت الصلة فيما بينها وبين المؤلفات العربية في الرياضيات. وفي سنة ١٨٦٣ نشر دراسة عن علم الهندسة عند العرب. وابتدأ في سنة ١٨٥٦ الطبع الذي لم يتم لترجمة الجزء العاشر لكتاب اقليدس اليوناني عن العناصر الاساسية والذي ترجمه ابو عثمان الدمشقي[2].

وهناك طبيب آخر اشهر من السابق هو الدكتور برون. فقد نشر في سنة ١٨٣٨ عن تاريخ العرب قبل الاسلام. وفي سنة ١٨٣٩ نشر عن رحلة الشيخ محمد التونسي في السودان. وفي سنة ١٨٤٠ نشر عن عنتر ابن أبي شداد. وفي سنة ١٨٤١ نشر عن اشعار طرفة. وفي سنة ١٨٤٣ طبع دراسة عن المدارس والمطبعة التي أنشأها الباشا حاكم مصر وفي سنة ١٨٥١ نشر عن رحلة التونسي في الوادي. وفي سنة ١٨٤٦ عن

---

(١) الكتاب المئوي ص ١٥٤ و ١٥٥.

(٢) د. عبد العزيز عزت، المرجع السابق ص ١٢٧.

رحلة التونسي كذلك في دارفور، ومن سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥١ نشر عن اصول التشريع المالكي الذي الفه الخليل. وفي سنة ١٨٢٢ طبع كتابه الذي ابتدأ به كمستشرق عن اللهجة العربية في الجزائر، وفي سنة ١٨٤٧ نشر عن قصة يوسف عند العرب. وفي سنة ١٨٥٤ عن قصة المعراج وفي سنة ١٨٦٢ نشر عن قصة سيف التيجان. وفي سنة ١٨٦٠ عن الطب عند النبي ـ ﷺ ـ الذي ألفه جمال الدين أبو سليمان داود. وفيما بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٦٠ نشر عن الطب البيطري ودراسة الخيول، وفي سنة ١٨٧٠ نشر كتاب الشريعة الاسلامية الذي ألفه الشمراني. ونشر كذلك كتاباً عن الاسلام في الحاضر والماضي وله اخيراً كتابه الشهير في عالم الاستشراق عن النساء العربيات قبل وبعد الاسلام[1].

وهناك ايضاً الطبيب المستشرق الكبير الدكتور لوكلرك طبع في سنة ١٨٦٢ كتابه عن الدراسات التاريخية واللغوية لابن البيطار .. وفي سنة ١٨٦٧ نشر كتاباً عن التراجم العربية بوجه عام... وفيما بين سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٨٣ نشر ترجمة كاملة لكتاب ابن البيطار الهام جداً عن تاريخ الصيدلة. وفي سنة ١٨٧٦ ظهر له كتابه المشهور والذي له قيمته الى الآن وفي جزئين كبيرين وهو تاريخ الطب عند العرب ولو لم يكن له غير هذا الكتاب لكفى[2].

أما عن المستشرقين المحترفين الذين سنشير الى مؤلفاتهم في هذا البحث فهم كازانوفا وجودفروا ديمونبين وماسينيون الأول والمسيو كازانوفا وافول المسيو لأني عرفته وحضرت محاضراته عندما حضر الى مصر في سنة ١٩٢٥ م وكانت اول سنة تفتح فيها الجامعة المصرية الحكومية. وهو أستاذ المرحوم الدكتور طه حسين فقد تتلمذ عليه في

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٨ و ١٦٩.

السربون واشرف هو على رسالته عن ابن خلدون للدكتوراه. وهو عالم كبير. ولكنه يميل مع الهوى في بعض مؤلفاته وينحرف كما سنرى. ثم انتقل من السربون الى كرسي الدراسات العربية في الكوليج دي فرانس. ولقد نشر دراسة عن وعاء سحري عربي ظهر في سنة ١٨٩٠ وفي سنة ١٩١٥ امكنه اكتشاف تاريخ فلكي في فصول اخوان الصفا. وفي سنة ١٩١٨ يدرس تاريخ مسلي ومضحك الخليفة هارون الرشيد وفي سنة ١٨٩٢ ظهر له كتاب المقريزي عن وصف مصر واواخر الحكام الفاطميين وحكاية قرقوش وتاريخه، وفي سنة ١٨٩٤ نشر عن تاريخ رصف قلعة القاهرة للمؤرخ ابن عبد الظاهر. ومن سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٦ نشر محاولات في طبوغرافية الفسطاط. وكذلك دراسة عن النقوش على الزجاج وفي سنة ١٨٩٥ نشر بحثاً عن الفنون الاسلامية في مجلة مصر ترجمه فيما بعد كل من يوسف حبيش والياس صيداوي وكان هذا بمناسبة المعرض الذي اقيم في باريس سنة ١٨٩٤ عن الموضوع نفسه أي الفنون الاسلامية. وفي سنة ١٩١٠ ظهر كتابه محمد ونهاية العالم وهو دراسة نقدية للاسلام في مهده وفي سنة ١٨٩٤ م ظهر له بحث عن الأختام العربية المصنوعة من الرصاص وفي سنة ١٨٩٦ ظهر له بحث آخر عن المسكوكات. وفي سنة ١٩٠٩ كتب عن تدريس اللغة العربية في معهد الكوليج دي فرانس وهي مادة الكرسي الذي كان يشغله فيه[1].

اما المستشرق ديمونيين فقد نشر في سنة ١٨٩٨ كتاب تاريخ بني الأحمر وهم ملوك غرناطة معتمداً في ذلك على كتابات ابن خلدون عنهم. وفي سنة ١٩٠٠ اخرج قصة كتبها عبد العزيز زيناجي بلهجة مدينة تلمسان ترجمها الى اللغة الفرنسية مع تعليقات له عليها. وفي سنة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٨ و ١٧٩.

١٩٠٧ درس اسماء الصنائع والصناع في اللغة العربية وعادات الزواج في الجزائر. وفي سنة ١٩١٣ وبالاشتراك مع المستشرق مرسييه نشر كتاباً عن اللغة العربية في مراكش. وهذا بخلاف ما نشره في المجلات العلمية في مناسبات مختلفة. وفي سنة ١٩٢٧ القى محاضرته الشهيرة عن الاسلام والتي عقب عليها المارشال ليوتي شيخ المستعمرين الفرنسيين في بلاد شمال افريقيا الاسلامية وطبعت في كتاب « الاسلام والسياسة المعاصرة » وفي سنة ١٩٣١ طبع كتابه القيم « النظم الاسلامية »[١].

اما المستشرق ماسينيون فطبع فيما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ نتائج ابحاثه الاثرية التي كلف باجرائها في العراق. وفي سنة ١٩٠٦ نشر في عدة مجلدات كتابه عن مراكش في اوائل القرن السادس عشر الميلادي حسب ما ذكره ليون الافريقي. وفي سنة ١٩٠٣ نشر النص العربي للحكم والأمثال في بغداد الذي وضعه في القرن الحادي عشر الميلادي الطاليقاني معتمداً في ذلك على مخطوط القديسة صوفيا. وفي سنة ١٩١٣ ايضاً نشر كتاب الطواسين الذي وضعه المتصوف الأشهر الحلاج. وكذلك اربعة نصوص لم تنشر من قبل خاصة بتاريخ الحلاج في سنة ١٩١٤ وله كذلك محاضرته المشهورة عن الاسلام والقوى الاوربية والتي عقب عليها السفير الفرنسي اولير والتي طبعت فيما بعد في سنة ١٩٢٧ في كتاب « الاسلام والسياسة المعاصرة » هذا بخلاف محاضراته القيمة عن الاجتماع الاسلامي في معهد الكوليج دي فرانس بباريس[١]. وله بحث من المسيح في مؤلفات الغزالي.

ولقد تناول المستشرقون على اختلاف انواعهم[٢] موضوعات اسلامية

---

(١) الكتاب المئوي ص ١٨٠.

(٢) الكتاب المئوي ص ١٩١.

(٣) لأول مرة نضع للمستشرقين تقسيماً دقيقاً حسب طبائع أعمالهم ووظائفهم لم يتقدمنا فيه أحد من الباحثين من قبل.

مختلفة في الدين وبخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم والسيرة العطرة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والأدب والفن .. الخ .. ولكن أغلب دراساتهم لهذه الموضوعات وغيرها دراسات كلها المهاترات .. والتحامل على الاسلام والمسلمين. ولهذا كانت أغلب دراساتهم تافهة لا تقدم ولا تؤخر، ومن مضيعة الوقت الاهتمام بها أو النظر فيها. نعم ان القليل جداً منهم منصف وبعيد عن التعصب الأعمى ولكن في النادر ما نعثر على هذا الطراز العلمي فيما بينهم وكما أشرنا الى بعض هذه القلة فيما سبق. وسنرد على مفترياتهم بعد عرض نماذج من ارائهم باختصار ليعرف القارئ الأسباب الدفينة والبعيدة في نفوسهم والتي تحركهم في انحرافهم العقلي في كتاباتهم ضد الاسلام والمسلمين. وهي أسباب دينية لا تمت الى العلم بصلة بل تفسد العلم كل الفساد وتجعله مرتعاً للانحراف الفكري والنقمة العقلية وتنطبق عليهم الآية الكريمة، ﴿ **ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾[1]. وانهم يعادون ديناً أكرمهم بقوله ﴿ **لا اكراه في الدين** ﴾[2] وعظم نبيهم فقال عن المسيح عليه السلام وكان ﴿ **وجيهاً في الدنيا والآخرة** ﴾[3] وعن والدته البتول بأنه طهرها واصطفاها على نساء العالمين * ﴿ **واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾[4] وفي كتابه الانجيل ﴿ **فيه هدى ونور** ﴾[5].

تناول المستشرقون من الناحية الدينية القرآن الكريم ودراساتهم كلها المناورات واللف والدوران لاثبات أنه كتاب غير منزل وان سيدنا محمد صلوات الله عليه هو الذي كتبه. بهذا يقول مثلاً المستشرق هرتومج داير

(١) سورة الشعراء الآية ١٥١.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٣) سورة آل عمران الآية ٤٥.
(٤) سورة آل عمران الآية ٤٢.
(٥) سورة المائدة الآية ٤٦.

ابنورج وانه رغم نزول السور القصار اولا فإن ترتيبها جاء في اخره[1]. ولكنه نقد ضعيف جداً لأن كل سورة في القرآن الكريم قائمة بنفسها وتكون فصلاً خاصاً بها ولا صلة لها بغيرها. فليس هناك عيب أو حرج ان تنظم بالشكل المشار اليه بل يذهب المستشرق كازانوفا الى ألعن من ذلك فيقول ان أبا بكر رضي الله عنه شارك قليلاً جداً في وضع القرآن وكتابته[2] وان الآيات الاولى هي التي أوحى بها الله الى نبيه الكريم[3]. ولعل أحسن رد على هؤلاء الكفرة المفترين قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه خلافاً كبيراً** ﴾[4]..

ثم يتناول النبي الكريم محمد صلوات الله عليه بالنقد فيقـول كازانوفا : ولماذا أهمل النبي ﷺ أمر انتقال السلطة منه الى خليفة من بعده فلم يعينه او يشير اليه قبل وفاته مع أنه أمر هام كان يوفر على الاسلام المتاعب والفرق المنشقة والصدام الدامي الذي نشأ من عدم اتباع قواعد محدودة في تعيين الخلفاء ؟ ويجيب كازانوفا على هذا السؤال ان النبي ﷺ لم يعتقد ان المنية ستدركه وتأتيه يوماً في حياته أو أنه سيترك خلفاء من بعده لأنه كان يؤمن من أن انتهاء العالم وشيك وان سيقع حتماً ابان حياته[5]. وهذا تفكير غير سليم لأن الموت ليس في يد اي انسان ولا يمكن أن يتنبأ به ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾[6] وتبلغ الجرأة بكازانوفا ان يشك في آيتين كريمتين من آيات القرآن ويقول عنهما انهما اضيفتا اليه ولم تكونا فيه من قبل لانهما تكذبان وتسفهان رأيه وهما: ﴿ **وانك ميت** (يا محمد) **وانهم ميتون** ﴾ والاخرى هي ﴿ **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على**

(١) كازانوفا محمد وانتهاء العالم ص ١٧ و ١٨.
(٢) المرجع نفسه ص ٥.
(٣) المرجع نفسه ص ٦ و ٧ و ٨.
(٤) سورة النساء الآية ٨٢.
(٥) المرجع نفسه ص ١٠ و ١٢.
(٦) سورة الرعد الآية ٣٨.

أعقابكم ﴾[1] ويستمر كازانوفا في تطاوله على النبي ﷺ بأنه أخطأ في تنبؤه عن نهاية العالم وباعتبار نفسه خاتم النبيين والرسل[2]. وهناك الأحداث في آخر حياة سيدنا محمد ﷺ تكذب قطعاً ما ذهب اليه كازانوفا فقد بذل النبي جهوداً كبيرة ليمتد للاسلام فتح العالم ووجه قومه الى هذه الغاية الكبرى وارسل رسله الى الحكام شرقاً وغرباً. وقام بغزوة تبوك الصعبة في قلب الصحراء صيفاً. وجهز الحملات لليمن وسوريا. وكذلك قام بحجة الوداع .. الخ. كل هذه وقائع ثابتة صحيحة لا يأتيها الباطل تؤكد افتراء كازانوفا وغيره على القرآن وسيدنا محمد صلوات الله عليه.

ومما يكذب كازانوفا كذلك ما يذكره كبار المؤلفين العرب وخاصة كتاب السيرة فمن ذلك ما ذكره ابن هشام في سيرة محمد ﷺ انه « خرج عاصماً رأسه حتى جلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به انه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ثم قال ان عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله. ففهمها ابو بكر وعرف ان نفسه يريد فبكى[3] ». كذلك يذكر ابن سعد في طبقاته[4] انه عندما نزلت الآية ﴿ **اذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً** ﴾[5] دعا النبي ﷺ السيدة فاطمة وقال لها « اني نعيت الى نفسي. قالت : فبكيت. فقال رسول الله عليه السلام : لا

---

(١) كازانوفا المرجع نفسه ص ١٩، ٢٠ . والآيتان موضوع الشك هما على التوالي : الزمر ٣٠ ؛ وآل عمران ١٤٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٨.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦١.

(٤) ابن سعد ج ٢ ص ٢٠.

(٥) سورة النصر الآيتان ١ و ٢.

تبكي يا فاطمة فإنك أول أهلي بي لحوقا. فابتسمت وضحكت » ومن كلام الرسول ﷺ لصحبه كذلك « اتزعمون اني من آخركم وفاة ؟ الا واني من اولكم وفاة .. فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم .. تعرض علي أعمالكم فإذا رأيت خيراً حمدت الله وان رأيت شراً استغفرت لكم[1] وكلام هؤلاء الثقاة يكذب كازانوفا في كل ما قاله عن نبينا الكريم.

أما الأب لامانس فهو أشد حقداً وأكثر تعصباً من كازانوفا لأنه مسيحي يسوعي تذهب كراهيته للاسلام والمسلمين الى الاعماق ويعميه هذا التعصب عن قول الحق. وإنما يملأ كتبه افتراءات كاذبة عن النبي محمد ﷺ وأهل بيته. وباعث هذا التعصب كما يقول حرفياً هو « لماذا جاء القرآن فجأة يمنع الأثر الطيب المقبول الذي أخذ الانجيل ينشره بين أبناء الصحراء ». هذه النقمة وهذا التعصب جعله يهاجم الاسلام الكريم فيقول عنه إنه نبي محلّي جاء للعرب فقط[2]. وهذا عكس ما يعتقده هو والمسيحيون من ان المسيحية تفوق الاسلام لأنها دين عالمي[3] وبالتبعية يكون شأن نبيهم عيسى عليه السلام ولكن فتوحات الاسلام في آسيا وأفريقيا وأوربا نفسها وانتشاره في أسبانيا ودوامه فيها حوالي ثمانمائة سنة تثبت عكس ذلك تماماً. وان الله سبحانه وتعالى قد ذكر في القرآن الكريم لرسوله ﷺ ﴿ **وما أرسلناك الا كافة للناس** ﴾[4] ويقول ﴿ **ان هو الا ذكر للعالمين** ﴾[5] فهو دين انزل بطبيعته عالمياً للناس أجمعين في كل مكان وبهذا يهابه الاوربيون وينكرون عليه هذه الصفة ويحتكرونها فقط لدينهم وهذا منتهى الافتراء والمغالطة وان كل فضيلة في الاسلام يحاول لامانس ان يقلبها الى رذيلة عكسية اي ان طريقته في الكتابة « اعكس

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢.
(٢) لامانس مهد الاسلام ص ٤.
(٣) جو التبشير والمبشرون ص ٨.
(٤) سورة سبأ الآية ٢٨.
(٥) سورة يوسف الآية ١٠٤.

تصب » وهي ليست طريقة علمية وانما هي طريقة ملفقة تبنى على الكذب والخداع فمثلاً من صفات سيدنا محمد ﷺ انه الأمين وأنه شجاع يجابه المخاطر وأنه كان يعتكف في القفار، ويقبل على الصيام ويمضي ثلثي الليل في الصلوات والتعبد. رغم هذا يصوره هذا القسيس والعياذ بالله على عكس ذلك تماماً اشباعاً لاحقاده الدينية الدفينة[1] :

ويصف هذا المبشر المتبجح النبي ﷺ بأنه « ساعي بريد » مهمته تنحصر في البلاغ وحمل الرسالة الى محل الاقامة[2] وانه شهواني لانه تزوج بأكثر من سيدة واحدة. وان اعتكافه كان لهذه الشهوات وانه كان منقاداً لأبي بكر رضي الله عنه وعمر يخضع لارائهم ومشورتهم[3]. وهذا هذيان فارغ لا صدق فيه لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يحور ويبدل في رسالة ربه الى المسلمين ولهذا سموه بالأمين الصادق وان حمل البريد هنا شرف كبير يؤهله له ما كان صلوات الله عليه من صفات عالية وفضائل سامية. وانه ﷺ اذا تزوج بأكثر من واحدة فليس هذا للشهوة العمياء وانما كان هذا لأسباب سياسية اضطرته اليها الظروف التي أحاطت به وهي معيشة العرب من حوله من قبائل متناحرة متصارعة فأراد ﷺ بحكمته أن يوحدها ويقربها من بعضها البعض عن طريق النسب والزواج وصلة الرحم لأن اساس وجودهم الاجتماعي هو العصبية اي اساس دموي حيوي فالعلاج يكون من نفس الاساس وهذا عين الصواب من الناحية الاجتماعية أما كونه ﷺ كان منقاداً لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فليس بعيب من أن يكون لعظيم كريم كمحمد عليه السلام ولنبي امين وصاحب دعوة من المستشارين بحكم ان الاسلام من

---

(١) لامانس ــ هل كان محمد صادقاً؟ ص ٨ و ٦، و ١٨ و ١٩.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧.

(٣) المرجع نفسه صفحة ١٨ و ٣٦ و ٥٤ و ٥٥.

مبادئه الشورى لا الاستبداد بالرأي والتحكم في الغير يقول تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[1].

كذلك يهاجم القسيس لامانس احباء النبي ﷺ ويمدح اعداءه فيقول مثلاً عن فاطمة بنت سيدنا محمد ﷺ وام الاشراف واحب الناس الى قلبه لما هي عليه من الكمال والعقل الناضج، يقول عنها هذا القسيس انها كانت دميمة الخلقة هزيلة البدن لأنها لم تتزوج في سن صغيرة وإنما تأخر زواجها وتبرم بها والدها ﷺ وامر عليا كرم الله وجهه ان يتزوجها ويحل عقدتها وان عليا رضي الله عنه كان مثلها في قبح الوجه وخمول الفكر[2] في حين يطري ويمدح اعداء النبي ﷺ من المنافقين الناقمين مثل معاوية الداعي الى قتل علي ويزيد المحرض على قتل الحسين وغيرهم[3].. وهذا كلام افتراضي كله الخيال الجامح والخرافات النابية والتصورات التعصبية لأن السيدة فاطمة رضوان الله عنها خضعت كغيرها من بنات العرب الكبار للعادات والعرف والتقاليد السائدة في زمانها والتي كانت تقضي بأن بنات الطبقات العليا يطلب لهن مهر غال لشرف محتدهن أو لشغف الوالدين بهن ويصعب التفريط فيهن للغير. وليس لكل الغير بقادر على الزواج منهن لهذا السبب الاجتماعي الواضح والذي غاب عن افق القسيس لامانس.

وهناك قسيس شرقي من تلاميذ المستشرقين والمبشرين هو السيد / فرج ميخائيل فقد القى محاضرة في الجامعة الامريكية هاجم فيها الاسلام والمسلمين[4] مما أهاج الرأي العام في حينه ضده في مصر ومما دفع جمعية الشبان المسلمين في الاسكندرية آنذاك أن تصدر في مايو

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨.

(٢) لامانس في كتابه عن السيدة فاطمة ص ١٧ و ٢١ و ٢٣ و ٢٦ و ٣٦ و ٤٨.

(٣) لامانس : هل كان محمد صادقاً ص ٤٢ و ٥٣.

(٤) كامينهابر في وحدة الاسلام ص ٧٩ و ٨٠.

١٩٣٠ قرار احتجاج صارخ ضد هذا العمل غير المشروع وان يتحرك مجلسها في القاهرة بارسال خطاب الى وزير الداخلية وآخر الى شيخ الازهر ليضعا حداً لمثل هذه المهاترات الدينية التي لا يستفيد منها الا العدو والمستعمر في ذلك الوقت وبخاصة وان القانون المصري حقيقة يسمح لمثل هذا القسيس ان يذكر محاسن دينه ولكنه يمنعه منعاً باتاً من الاعتداء على دين الاغلبية التي تفتح لهم ذراعيها تسامحاً وتغرقهم عطفاً جميلاً بدفع الالاف المؤلفة من الجنيهات لبناء كنائسهم وان هذه الأعمال تؤدي الى الاضطرابات والشقاق والنقمة بين الطائفتين في مصر وان الجبهة الداخلية يجب أن تكون دائماً سليمة في وحدتها متراصة كالبنيان يشد بعضه بعضاً حسب دعوة السيد / الرئيس محمد أنور السادات في اكثر من مناسبة.

واخذ المستشرق ديمونيين على الاسلام في محاضرته بهذا العنوان والتي القاها يوم ٧ يناير سنة ١٩٢٧ انه دين محلي[1] ويدفع الى الروح الفردية. وان ما يوحد المسلمين أحياناً هو عداؤهم للمسيحيين[2]. وان الاسلام ليس بشيء واحد في الزمان. وانما هو أشياء مختلفة. فهناك اسلام متقدم وهناك اسلام متأخر وهناك اسلام راكد لا يتحرك[3] وان الاسلام لا يعرف السلطة المركزية ولا يعرف السلطة الدينية القوية وليست له عاصمة دينية[4]. وهذا كلام استعماري منحرف بدليل مادي ان الماريشال ليوتي عندما وقف ليعقب على المحاضرة التي ذكر فيها كل ما تقدم من المآخذ على الاسلام ايده في كل ذلك كل التأييد ووافق عليه. وهو قطب الاستعمار الأكبر في بلاد المسلمين في شمال افريقيا

---

(١) ديمونين الاسلام والسياسة المعاصرة ص ١١.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٩.
(٣) و (٤) المرجع نفسه ص ٢١.

والد اعدائهم. بل زاد على ذلك ان أضاف نظرية استعمارية جديدة في الاسلام هي ما يمكن أن أسميه « باقليمية الاسلام » بمعنى ان الاسلام ليس بشيء واحد في المكان وانما هناك تعدد له، فهناك اسلام المغرب وهو شيء مخالف لاسلام الجزائر وهو شيء مخالف ومغاير لاسلام تونس وهكذا ـــ والهدف واضح هو تقطيع اوصال الاسلام في الزمان والمكان ليسهل التغلب عليه والقضاء عليه ان عاجلاً ام اجلاً[1]. وهو كلام يجب أن نتدبره كثيراً ونعمل على محاربته في غير هوادة حتى لا يقع المكروه ـــ والحمد لله أدركنا هذا بفطرتنا وابتداء بلاد الاسلام في المقاومة سواء عندنا هنا في مصر أم في المغرب الاسلامي أم في بلاد الجزائر واهلها الأبطال وفي غيرها.

اما قول هذا المستشرق بأن الدين الاسلامي دين محدود الدائرة لانه دين محلي، فهذا خطأ كبير يكذبه التاريخ والجغرافيا فدائرة الاسلام متسعة واقطارها طويلة مترامية الاطراف وتذهب من الفيلبين وبلاد اسيا الاسلامية شرقاً وبلاد افريقيا وبعض بلاد اوربا هذا بخلاف الاندلس التي دام فيها الاسلام ثمانمائة سنة اي الى المحيط الاطلسي غرباً ومن فنلندا شمالاً الى بلاد خط الاستواء جنوباً. وان الاسلام كما قدمنا نزل للناس كافة فهو دين عالمي ولم يكتف بالاستقرار في شبه الجزيرة التي نشأ فيها وانما منذ مهده ومنذ عهد الرسول ﷺ اخذ في الانتشار السريع والاستمرار فيه لأنه اقل الاديان في الردة لأن من يدخله يبقى فيه ويطمئن اليه لمبادئه السمحاء السامية ولبساطة طقوسه وعدم تعقيد تنظيماته.

أما قول ديمونيين بأن الاسلام يدفع الى الروح الفردية، فهذا خطأ اكبر لأن الله يقول في كتابه العزيز ﴿ **انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم**

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢.

شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾[1] وهذا يدل على روح الاجتماع في الاسلام وان الاذان خمس مرات في اليوم لدعوة المؤمنين ليجتمعوا في المساجد لاقامة شعائر الصلاة دليل واضح على روح الاجتماع لا الفردية في الاسلام وكذلك تجمع المسلمين باعداد كبيرة في موسم الحج دليل على هذه الروح يقول عليه الصلاة والسلام «المسلم اخو المسلم» اي أن هناك ترابطاً لا فردية بين المسلمين ويقول ﷺ : من ستر على اخيه المسلم ستر الله عليه في الآخرة، اي ان هناك غيرية ومودة بين المسلمين لا فردية ولا انانية.

اما قول ديمونيين بأنه ليس هناك اسلام واحد وإنما هناك تعدد للاسلام في الأزمان، فهو تارة يتأخر وتارة يتقدم وتارة يقف آسنا، فهذا ايضاً غير صحيح فالاسلام هو الاسلام دائماً ابداً لا يتغير وان سبب التأخر أو التقدم او الوقوف عن الحركة ليس سببه البناء الاسلامي في العقائد والطقوس اي ليس من داخلية الاسلام وانما هو من الناحية الاجتماعية من خارجيته[2] بمعنى ان أسباب التقدم أو التأخر أو الوقوف والثبات هي أسباب اجتماعية تأتيه من الخارج في المجتمع لا من ذاتيته الخاصة وهذا شأن كل دين ومنها المسيحية نفسها والتي يريدونها عكس ذلك ايهاماً بأنها ارقى من الاسلام. لأن الاسلام عندما تقدم كان لا سلطان عليه من الغير يقفز بسرعة هنا وهناك بمحض حريته. لكن لما قيدت حرياته تحت سلطة الاستعمار والتبشير كما رأينا أخذ يضعف لأن الاستعمار يكيد ويتآمر عليه ويحاربه في كل مكان وجد فيه وبقي زمناً كذلك لا يتحرك لأن المستعمر الذي جثم على صدره كان اكثر تأخراً من أهله من المسلمين. ونريد بالمستعمر هنا الاتراك الذين حكموا المسلمين في الشرق والغرب مدة طويلة آسنة راكدة جمعوا فيها

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) دوركيم ــ اصول المنهج الاجتماعي الفصل الأول.

وبخاصة حاكمهم سليم الأول كل المتفوقين من الصناع وبأرباب المهن البارزين وصدرهم الى بلاد الترك فقضوا بهذا على التحضر والتمدن الاسلامي. ولكن لما بدأت الحركات القومية للتحرر من رق المستعمر الاوربي حديثاً وفي الوقت المعاصر اخذ الاسلام ينهض من جديد لأسباب اجتماعية ايضاً سياسية مثلاً لأن الحكم اصبح وطنياً واقتصادياً لأنها تحكمت في انتاجها وفي توزيعه في صالح ابناء الأمة. وتكنولوجية لأن المسلمين امكنهم الحصول على الآلات الحديثة واستخدامها في مآربهم المختلفة وامكنها ان تقارع الاوربيين بنفس السلاح الآلي الذي تستخدمه في السلم وفي الحرب. واخيراً وليس آخر لأسباب تربوية لان التعليم الديني تحرر من سيادة المستعمر وعاد من جديد الى أهله يجمع شملهم ويحضهم على الجهاد والنهوض ولأن التعليم المدني شمل العلوم الوضعية الحديثة كعلم الطبيعة والكيمياء وعلم التكنولوجيا وعلم الأحياء وغيرها مما يساعد المسلم على التحكم في ثروات وطنه واستغلالها في صالح المواطنين لا في صالح الأغراب المستغلين المستبدين من المستعمرين الاوربيين.

هذه حقائق علمية اجتماعية لا جدال فيها لأنها صحيحة في كل مكان وفي كل زمان[1]. والمسيحية نفسها خضعت لمثل هذا التطور ولمثل هذه الاسباب في حياتها قديماً وحديثاً. فكان أهلها جهلة غلاظ القلوب فتاكين أثاروا الحروب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين لأسباب دينية هي التعصب الأعمى[2] تحت تأثير الكنيسة[3] وتأخروا علمياً في حينه لنفس التعصب لأن رجال الدين المسيحي احتكروا المعرفة وسودوا

---

(١) دوركيم — اصول المنهج الاجتماعي مقدمة الطبعة الثانية وفصل التفسير الاجتماعي.

(٢) بيراشا ص ٢٨٣ و ٢٨٤.

(٣) برهيبة ص ٦٣، ٦٦.

الجهل[1] عليها لانه كان في صالح سلطتهم على متبعيهم بحيث كان من يريد ان يقرأ كتاباً، كان يجب أن يأخذ تصريحاً من البابا نفسه. وفي انتظار وصول هذا التصريح كان صاحب الذهن المتفتح قد ولى ومات[2] وكانت آلاتهم الحربية الثقيلة بليدة مثل عقولهم في ذلك الحين ولهذا انتصر عليهم المسلمون خفافاً في آلاتهم واصبحوا بعد ذلك اساتذة المسيحيين الذين نقلوا عنهم العلوم والفنون والآداب وغير ذلك. وكانت العلوم التي تدرس في الجامعات الاوربية ابان القرون الوسطى والى اوائل العصر الحديث هي العلوم الاسلامية. فالمسيحية كانت متأخرة عن الاسلام وارادات غزوه فغزاها. ثم نهضت المسيحية بعد ذلك بفضل العرب والمسلمين ولاسباب اجتماعية منها قيام حركة النهضة في القرن السادس عشر في اوربا[3] ولكن النظام الملكي[4] وهو ظاهرة اجتماعية كان مانعاً في سبيل هذه النهضة ومعطلا لها، فقامت ثورة سياسية وهي ايضاً ظاهرة اجتماعية تحارب هذا النظام وتقلبه رأساً على عقب وتقضي عليه وتفتح باب الديمقراطية وتضع اسس الحرية والاخاء والمساواة في المجتمع هي الثورة الفرنسية[5] التي فصلت الدين عن الدولة لمساوئ رجال الدين ابان القرن الثامن عشر. ولكن هذه الثورة لم تكف لأنها كانت ثورة برجوازية لم تحرر المجتمع الفرنسي والاوربي من نظام الطبقات الذي استمر يستغل المواطنين في صالحه. ولهذا قامت الثورات الاشتراكية الصناعية في القرن التاسع عشر[6] ولكن هذه الثورات بدورها كانت ناقصة لانها كانت في صالح طبقة معينة بالذات هي الطبقة

---

(١) بيراشا ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥.

(٢) كمبيري تاريخ التربية ٥٦ و ٥٧.

(٣) روبنسون ص ٢٠٩.

(٤) روبنسون ص ٤٧١.

(٥) جيزو ٤٠٦ و ٤٠٧.

(٦) روبنسون ص ٢٠٩.

العمالية. ومن هنا قامت الثورات الوطنية الاشتراكية الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا في عهد موسوليني وهتلر. والشيء المهم بالنسبة للمسيحية انها ضعفت امام كل هذه الثورات واهتزت قوائمها لأن قساوستها من الرجعيين المؤيدين دائماً للنظام الملكي المستبد، هذا الى جانب خضوع الطبقات، إذ تخضع كل طبقة آلياً لما فوقها من الطبقات[١] هنا حصل كبت وغيظ مميت من رجال الدين ضد النظم السياسية الحديثة التي فرضت على المسيحية التأخر والضعف. فاجتهدت المسيحية ان تجد لها منفذاً ومخرجاً تتنفس فيه ويمكن أن تؤيدها فيه حكومات النظم الجديدة في أوروبا هذا المنقذ هو المستعمرات[٢] ليكونوا تحت وصاية الحكم الاشتراكي بعيداً عن العاصمة في منفاهم الجديد وهو بلاد الاسلام التي تهمنا هنا وغيرها. وليكونوا اداة تخدير وتشهير طيعة تفعل ما يأمرها به الاستعمار. فالمسيحية في زماننا هذا وسيلة سياسية للاستعمار الغاشم[٣] ضد الاسلام.

ولقد لحظ هذا التغير في تطور المسيحية الفنان العبقري الفرنسي جوجان فعبر عن ذلك بفنه الرائع في لوحة مشهورة له صور فيها السيد المسيح عليه السلام في هيئة طفل جميل اسمر اللون تحمله والدته البتول في صورة سيدة سمراء اللون ايضاً جمالها كله التقى والورع. ومعنى هذه اللوحة واضح ينحصر في ان المسيحية اصبحت اليوم اصلاً ديناً للأجناس المتأخرة السوداء والسمراء والصفراء وغيرها في المستعمرات المختلفة ولم تعد كما كانت في الماضي ديناً له هيبته الاولى بين الجنس الأبيض وفي اوروبا امام انتشار وقيام النظم الاشتراكية والشيوعية فيها[٤].

(١) روبنسون ص ٢٠٩.
(٢) المرجع نفسه ١٢٦ وايضا لوكاس.
(٣) جيوص ١٧٢.
(٤) تومسون ص ١٣٨.

ومن هنا نرى ان المسيحية خضعت لنفس الدور الذي خضع له الاسلام ولا تتميز عنه في شيء كما يتوهم خطأ المستشرق ديمونيين فهي كذلك تأخرت ابان القرون الوسطى. ونهضت في عصر النهضة وتأخرت ثانية ووقفت آسنة لا تتقدم ولا تتأخر تحت حكم النظم الجديدة الاشتراكية والفاشية والنازية ثم هربت بنفسها من خطر هذه النظم عليها الى المستعمرات متوهمة أن يكون لها شأن يذكر في حياة الأمم الاوربية الحديثة، ولكن هيهات ان مرتعها الآن خارج الحدود الاوربية في بلاد الاسلام وغيرها من البلاد التي تخضع للاستعمار[1]. ولقد تنبه اهل المستعمرات من مسلمين وغيرهم اليوم الى الاعيب رجال الدين وابتدأت تحاربهم لأنهم من أعوان الاستعمار بل هم أخطر عليهم من الاستعمار نفسه.

وبهذا خسر رجال الدين المسيحي الموقعة في داخل اوربا وفي خارجها وباؤا بالفشل المبين واصبحوا في احط عهود تطورهم في الزمان. لأن ــ وباختصار تام ــ بعد أن كانت المسيحية تولّي الملوك باسم الحق المقدس وتقيم عروشهم وتدعمهم وتتفانى في حب النظام الملكي بحيث تطبقه على نظامها الكنسي ويقول مثلاً البابا بونيفاس الثاني عن نفسه انه بابا وانه امبراطور[2] وبعد ان كان الملوك والامراء يعترفون أمام رجال الكنيسة ويخضعون لهم. وبعد ان كانوا يقيمون الحروب ويتزعمونها كالحروب الصليبية وغيرها اي بعد أن كانوا هم كل شيء في المجتمعات الاوربية وهم السادة فعلاً[3]. أصبحوا الآن في حالة يرثى لها بعد ان فصل الدين عن الدولة وبعد ان الغت بعض الدول الشيوعية كل اثر محسوس للدين وقامت على أساس الالحاد والزندقة. وبعد ان منعت

(١) جيوص ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧.

(٢) هيروص ٣٤٤ و ٣٤٥.

(٣) برهيبة ص ٦٣ و ٦٦.

الدولة الاشتراكية القومية الفاشية وبعدها النازية قيام دولة في داخل الدولة باسم الدين بعد كل هذا وغيره في تطور المسيحية في الزمان اصبحت المسيحية والكنيسة تابعاً وفي المقام الثانوي مهمتها خارج الحدود الأوربية هناك في المستعمرات[١] تتبع الجيوش المغتصبة وتنفذ سياسة الدولة التي تمليها عليها املاء واصبح البابا رئيساً للتبشير[٢] المسيحي فيما وراء البحار فقط يسير وراء الاستعمار اينما سار. وخلفت اليهودية في قوتها وسيادتها وسلطتها المسيحية وفرضت ارادتها عليها مثلاً الان في امريكا حيث يحكم فعلاً اليهود[٣]. وسبقت سلطتهم في السيادة على فرنسا ايام حكم الزعيم ليون بلوم وهو يهودي بل ان الثورة الحمراء في روسيا هي ثورة يهودية لأن رئيس الجيش الأحمر في سنة ١٩٠٧ كان يهودياً، هو تروتسكي، ولا يزال يهود روسيا لهم الكلمة فيها او هم يهاجرون الى اسرائيل ولا يمكن للحكومة البلشفية ان تمنعهم من ذلك ويشغلون مراكز مرموقة في داخلية روسيا وبلغ نفوذ اليهود على الكنيسة الكاثوليكية ان اصدر البابا قراراً يبرئ اليهود من دم المسيح بعد ان قامت المسيحية منذ نشأتها على هذا الاتهام ودام الى ما قبل الان بقليل. وهذا ما يدل الى اي مدى يخضع البابا والكنيسة في روما اليوم للنفوذ اليهودي لأن كثيراً من مصالح الفاتيكان تحت ايديهم ويمكنهم ضرها أو ضره اذا شاءوا[٤] فتطور المسيحية في الزمان ليس بأفضل من تطور الاسلام وهذا

---

(١) جيو ١٧٠ و ١٧٦.

(٢) جيو ١٨٢.

(٣) فمثلا يتضح من الارقام الاتية مبلغ سلطة وتحكم اليهود في بعض نواحي الحياة الهامة في امريكا. التجار نسبتهم ٧٧٪، المحامون ٧٠٪، الاطباء ٦٩٪، الصناعة ٤٣٪، وموظفوا الحكومة ٣٨٪، وان نسبتهم في وزارة التجارة هي ٧٠٪، وفي وزارة المالية ٦٩٪، وفي وزارة الداخلية ٦٣٪، وفي وزارة الخارجية ٢٢٪، وفي وزارة الدفاع ٢٠٪. ونسبتهم في الوظائف الهامة في لجنة الطاقة الذرية وهي اهم لجنة في امريكا فعليها يتوقف امر الدفاع الحيوي فيها بلغ عدد اليهود فيها ٨٠٪ (تنظيم حكومة الولايات المتحدة عام ١٩٥٦).

(٤) صدر قرار مجمع الفاتيكان في هذا الصدد في يوم ١٩٦٥/٢/١٩.

ردي على نظرية المستشرق ديمونيين في تطور الاسلام في الزمان.

بقي بعد ذلك ردي على وزير حربية فرنسا وقطب الاستعمار الأكبر الماريشال ليوتي مدوخ الاسلام والمسلمين في شمال افريقيا. ان الوحي نزل عليه فجأة وهو يقف منتصباً ليعقب على محاضرة ديمونيين وليرتجل نظرية جديدة في الاسلام وهو من رجال الجيش والحرب والصراع لجرأة غريبة من رجل غير مختص الا في القتل وسفك الدماء والتنكيل والاستبداد والظلم والتعصب اكثر من رجال الدين المبشرين انفسهم. نعم ان سيدنا جبريل عليه السلام قد انتهى نزوله بالوحي على خاتم النبيين ﷺ وسيد المرسلين من السماء فلا يمكن للسيد ليوتي ان يدعي أنه نبي الاستعمار الجديد لأن الاستعمار ضد المسلمين قديم قدم الصليبية الاولى[1] ومآله الآن الى الدمار والانتهاء والزوال بعد انتشار الاشتراكية[2].

يقول المارشال — لا فضّ فوه — بنظرية « اقليمية الاسلام »[3] وهي نظرية استعمارية تقوم تنفيذاً للمبدأ الاستعماري الشهير « فرق تسد » فالمرشال يتصور بخياله الواسع ان الاسلام في المغرب غيره في البلدين الشقيقين الآخرين. ومن هنا ليس هناك اخاء في الاسلام بينهم وكل اقليم قائم بنفسه بعيد عن الآخر في دينه، وفي غير دينه من مظاهر الحياة. فهو يريد أن يفتح سجناً يدخل فيه كل بلد منها وهو السجان يفتحه ويقفله متى يشاء والمساجين البؤساء هم المسلمون تحت رحمته وهو جلادهم يذيقهم سوء العذاب.

---

(١) برهية ٧٠ و ٧٢ و ٨١ و ٨٢.

(٢) تومسن — تاريخ العالم ص ١٨٦.

(٣) الاسلام والسياسة المعاصرة ص ٣٢.

ولكن المرشال المستشرق ــ فجأة ــ في هذه النظرية لا يرى ابعد من جفونه ذلك لأننا الآن في عهد تقدمت فيه وسائل الاتصال الجمعي التي تخترق الحيطان والأبواب وتصل الى كل من يعيش خلفها عبر الأثير بوجه خاص. فهناك الراديو والاذاعات الخارجية من البلاد الاسلامية المحرومة التي لا تنسى اخوانهم في المستعمرات التي يشرف عليها المرشال. وهناك الصحف وما يذاع منها أو عما ينشر فيها اذا لم تدخل البلاد ومنعت للحصار الاستعماري. بل هناك اذاعات تخصصت في بث روح التحرير والثورة في اذاعتها تصب تياراتها في آذان من تشاء من المواطنين المسلمين الذين يستبد بهم الاستعمار واعوانه.

ثم ان مراكش والجزائر وتونس لا يمكن فصلها عن بعضها بعضاً اطلاقاً مهما احكم ذلك المرشال ليوتي واتباعه من المستعمرين لأن مجرد وجودهم في كل منها كفيل ان يوحِّدها جميعاً في الغايات القومية والامال الوطنية وهي طرد المستعمر والوصول الى الاستقلال وهذا ما حدث فعلاً وبشكل قوي واضح عند ابطال الجزائر وهو آخذ في التحقيق وكذلك عند اخواننا المغاربة وكذلك عند اهل تونس الخضراء. وان كانت مصر قد ساعدت الجزائر بمختلف الوسائل الباطنة والظاهرة في تحررها. فهي بعد ان تحررت تقوم بنفس الدور الكريم مع مصر في هذا الواجب الوطني المقدس لتحرير اخواننا المسلمين في باقي الوطن العربي في شمال افريقيا وغيره.

ولكن ما الحكمة في ذلك ؟ الحكمة في ذلك ترجع الى الاسلام فهو العامل المشترك الأعظم الذي يوحد فيما بينهم[1] لأنه دين الاخاء

(١) الشيخ الابراهيمي ص ١٠٩.

والتضامن الاجتماعي يقول سبحانه: ﴿ **انما المؤمنون أخوة** ﴾[1] ويقول: ﴿ **المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[2] ويقول: ﴿ **واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾[3] ويقول: ﴿ **ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون** ﴾[4]. فالاسلام هو المحرك الأول (الدينامو) والقوة الفاعلة للمسلمين ليتقاربوا وليتحدوا ضد الاستعمار[5] مهما فعل هذا ليفرقهم ويضعفهم فهو قوة لا تغلب روحياً. وان الاسلام له من السلطة ان يجذب اتباعه اليه ولذلك فهو اقل الأديان كلها في الردة ومن يدخله يخلص له حتى الموت ومهما كلفه هذا الاخلاص، وهو ما هو قائم وحادث فعلاً في المستعمرات الفرنسية التي يريد أن يجزئها ويبعدها عن بعضها الماريشال ليوتي، وان الاسلام اقتناع ورضا وقبول بالارادة ولهذا لا يمكن انتزاعه من أعماق نفوس المسلمين لا بالحيل ولا الترغيب ولا بالقوة الغاشمة يقول تعالى ﴿ **لا اكراه في الدين** ﴾[6] ويقول: ﴿ **يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون** ﴾[7].

وبهذا يظهر الأمر جلياً ان نظرية الماريشال ليوتي في اقليمية الاسلام نظرية خاطئة فاشلة ولا يمكن تجزئة الاسلام في مناطق محدودة، وإنما هو وحدة لا تتجزأ وصخرة روحية تتحطم عليها مؤامرات الاستعمار، فالاسلام، في جوهره واحد لا يتغير في الزمان ولا في المكان يقول

(١) سورة الحجرات الآية ١٠.
(٢) سورة التوبة الآية ٧١.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٣.
(٤) سورة الأنبياء الآية ٩٢.
(٥) الشيخ الابراهيمي الصفحة نفسها والمرجع نفسه.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٧) سورة الأنفال الآية ٢٧.

تعالى: ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾[1]. وليس معنى هذا جمود الاسلام ذلك لأن الاسلام يدعو الى العلم والاجتهاد يقول سبحانه: ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] ويقول: ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** ﴾[3] ويقول: ﴿ **ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[4].

ويأخذ اخيراً المستشرق ديمونيين على الاسلام انه يقر تعدد الزوجات والطلاق ويمكن من سلطة الرجل على المرأة بحيث تبدو في المركز الثاني وتابعة له ومنفذة لارادته. وان كثرة من المسلمين يؤمنون بالخرافات والاعتقادات في الأولياء. وأن ليس للاسلام سلطة دينية منفصلة عن السلطة السياسية وان ليس له مدينة مقدسة خاصة به كالفاتيكان مثلاً[5].

وهذه مآخذ يوجهها المستشرق ديمونيين الى الاسلام وارد عليها بالشكل الآتي : فيما يتعلق بأن الاسلام يقر تعدد الزوجات فهذا ليس بعيب فيه وإنما هو فضيلة كبرى فقد يضطر الزوج الى ذلك لمرض الزوجة الاولى مرضاً يعطلها عن الزواج وقد يضطر اليه لسبب اقتصادي وهو ضرورة كثرة النسل ليعاون الأولاد اباهم في فلاحة الأرض اذا كان فقيراً لا يملك دفع الأجر للغرباء للعمل فيها وهذا عند الطبقات الدنيا المعسرة. ويكون ايضاً السبب نفسه اي السبب الاقتصادي ولكن بشكل عكسي اي للغني وللقدرة على الصرف وتوفر المال اظهاراً للجاه وتقوية الحسب والنسب في المجتمع. وفي الغالب ليست هي الشهوات البهيمية السبب وراء تعدد الزوجات.

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

(٣) سورة يونس الآية ١٠١.

(٤) سورة الرعد الآية ٣ ؛ النحل ١١ وغيرهما.

(٥) ديمونيين النظم السياسية من صفحة ١١٩ الى صفحة ١٤١.

وان الاحصاءات دلت على نسبة التعدد ضئيلة جداً فهي تبلغ ٣٪ فقط من عدد الزيجات سنوياً على ان الاسلام لم يندفع وراء اقرار هذا الحق اندفاعاً وانما سمح به بشرط العدل بين النساء وقال تعالى ان اقامة العدالة بين النساء صعبة التحقيق جداً مهما حرص الرجل ولهذا نصح بالزواج بواحدة فقط. ولهذا كان الزواج في الاسلام اصلا هو وحدانية الزوج ووحدانية الزوجة اما التعدد فعارض للتيسير والدين يسر لا عسر[1].

ثم ان هذا التعدد للزوجات الذي يأخذه بعض المستشرقين على الاسلام قائم فعلاً في بلادهم في اوربا ولكن للأسف الشديد بشكل غير شرعي وهو نظام الخليلات الذي ينتشر في باريس وفي غير فرنسا وهو نظام أقبح بكثير من تعدد الزوجات في الإسلام لأنه ينتج عنه كثرة من الأولاد الحرام وانه نوع من الزنا واللقطاء كثيرون بسببه وان تربية هؤلاء الأولاد يكلف الدولة الكثير ويثقل على كاهل الميزانية لأنها مكلفة برعايتهم ذكوراً واناثاً في كل ادوار حياتهم وايجاد وظائف لهم يشغلونها أو يتكسبون منها. وليس هذا بغريب بين مسيحيي العصر الحديث في اوربا فنظام عدم الزواج وقيام نظام التسري بدلاً منه والارتماء في احضان الاجنبيات المحظيات من النساء عادة قديمة مسيحية تذهب الى القرون الوسطى بين القساوسة انفسهم من رجال الدين المسيحي الكاثوليكي. فمنع الكنيسة لهم من الزواج جعلهم من اصحاب الفسق والمجون في معاشرة النساء بدون اساس شرعي وبخاصة الأرامل والثريات منهن واللاتي فيهم رمق الجاذبية الجنسية وحرارة البدن وطراوة اللحم البشري ولذات لمسه غضا لينا. وبهذا اعطوا المثل الطالح القبيح الذميم لغيرهم من المسيحيين العاديين واصبح تقليداً مسيحياً مشروعاً فيما بينهم[1].

اما اقرار الاسلام للطلاق فهذا امر جميل مشروع لأن الزواج هو العشرة الطيبة فإذا ساءت هذه العشرة وهذه الحياة المشتركة وجب

---

(١) انظر كتابنا ــ ثورة التحرير والاصلاح الاجتماعي الجزء الخاص بتحديد النسل.

قطعها والا كانت الحياة الزوجية جحيماً. وان عدم الانفصال بالطلاق واستمرار الزواج رغم تباعد الزوجين كما هو الحال في بعض المذاهب المسيحية فيه كثير من الانحراف والانزلاق للأخلاق وصعوبة ضبط النفس. على ان الاسلام لا يحبذ الطلاق اطلاقاً وانما هو ابغض شيء حلال عند الله. وينصح بالصلح بين الزوجين .. وفي بعض البلاد الاسلامية تميل الى جعله امام القاضي حتى لا يسرف الناس فيه فتختل قوائم الاسرة.

أما الرق فاقرار الاسلام له يشبه اقراره في دوائر بعض الاديان الاخرى له وبخاصة المسيحية. فبولس الرسول يوصي الأرقاء في رسالة له باطاعة مالكيهم ومواليهم مع الرعب والخوف منهم كما يطيعون المسيح عليه السلام وان هذه هي تعاليم يسوع المقدسة في السلام. كذلك نجد عند القديس اوغسطين قبولاً واقراراً للرق. ونظر اليه كأنه عقاب مشروع لزلات المسترقين وان اقرار الاسلام الرق كان من قبيل اقرار الواقع في المجتمعات القديمة[1] لأن الاقتصاد فيها كان يقوم على اكتافهم ومجهوداتهم بحكم ان الاعمال اليدوية في ذلك الزمان كانت تزري بقدر الرجال الأحرار وكانت المجتمعات هذه تنقسم الى طبقات منها طبقة الأحرار وطبقة العبيد. والأحرار لهم الأعمال المشرفة كالأعمال الفكرية العقلية والحروب والفنون وغير ذلك وللعبيد الأعمال الحرفية اليدوية اي ان نظام الطبقات في ذلك، الحين قضى بقيامهم. كذلك كان نظام الاسرة نظاماً مغلقاً تنتج لنفسها كل ما تحتاجه لاشباع كل حاجاتها الضرورية والكمالية ولهذا اضطرت الى ان تؤوي ضمن نطاقها العبيد لهذه المهمة. ولهذا النظام لم يكن سائداً فقط في بلاد الاسلام وانما ايضاً في اوربا عند المسيحيين انفسهم[2] بل انه وجد كذلك في امريكا عندما نقلوا

(١) نسل دي كولا منح المدينة القديمة.

(٢) نسل دي كولا منح المدينة القديمة.

العبيد من افريقيا الى هناك لزراعة قصب السكر وغيره من محصولات المناطق الحارة في جنوب الولايات المتحدة، ودام هذا فترة طويلة ولا يزال له صدى الى الآن فيها[1]. غير ان الاسلام يمتاز عن غيره من الأديان بأنه رسم طرقاً متعددة للعتق وتحرير الرقيق واوصى بحسن معاملتهم وبالزواج منهم بعد عتقهم واقر عدم امكان استرقاق الأحرار وتحويلهم الى عبيد احتفاظاً لكرامة الانسان. وان الأصل في الانسان في نظر الاسلام ان يكون حراً وان الرق جاء لظروف اجتماعية كانت قائمة فعلاً في المجتمعات البشرية القديمة وشأنه في ذلك شأن الأديان الاخرى ومنها المسيحية.

اما عن مركز المرأة في الاسلام فهو مركز تغبط عليه ومركزها هذا احسن بكثير من مركز المرأة الفرنسية مثلا؛ فهذه لا يمكن أن تتصرف احياناً بدون اذن زوجها حتى في ادارة املاكها الخاصة في حين المرأة المسلمة لها هذا الحق دائماً وكاملاً، ولها ان تنيب عنها من تشاء وتوكل غير زوجها. ولما كانت القرابة ابوية في الاسرة الاسلامية جعلت الصدارة فيها للرجل لأنه هو الذي يصرف ويشرف ولهذا الرجال قوامون على النساء، وهذا في صالح المرأة لأنه يرفع عن كاهلها أعباء كثيرة في الاسرة ولكن ليس معنى هذا انها تقع تحت سلطة استبدادية للرجل وانما اشار الله سبحانه بحسن معاملتهن معاملة كلها المودة والرحمة قال تعالى ﴿ **المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ « ما اكرم النساء الا كريم ولا اهانهن الا لئيم »، وقال : « لكم على نسائكم حقٌ ولهن عليكم حقٌ فاستوصوا بالنساء خيراً ».

اما عن الاعتقاد في الأولياء والخرافات فهذه قاعدة عامة في

---

(١) روبنسون ٢٥٣ و ٥٢٣، ٦٣٧.

(٢) سورة التوبة الآية ٧١.

المجتمعات المختلفة وليس هناك امة تخلو منها[1] وشأن المسلمين فيها شأن المسيحيين وغيرهم في هذا الصدد. فمثلاً في فرنسا اذا لم تتزوج البنت في سن الخامسة والعشرين فلكي تفك عقدتها في هذا الأمر وتجذب اليها من يتزوجها يجب عليها عرفاً ان تساهم في الاحتفال الديني بعيد القديسة كاترين. فتلبس احسن الثياب وتتجمل وتمشي في موكب البنات من هذا النوع صائحات مغنيات بأغان وضعت خصيصاً لهذه المناسبة ويلوحون بأيديهم يمنة ويسرة ويرقصون تارة اخرى في الشوارع. وهذا ما تتجمع له المارة والشبان الذين يهمهم امر الزواج او الذين يسلون انفسهم برؤية هذا الموكب الذي يسير ويتحرك نحو تمثال القديسة كاترين ليضعن عليه الورود والرياحين. ومن الخرافات الفرنسية ان زوجة البحار الغائب يجب الا تسرح شعرها ليلاً حتى لا يصيبه اذى. وان اهداء زهور البنسيه الأبيض ممنوع لانه شؤم على المهدى اليه. وان الكنس ليلاً شؤم بدوره على صاحب المنزل وقد يعرضه للموت. وان الصفير ليلاً مرذولٌ وخطيرٌ[2]... وغير ذلك من المعتقدات الشعبية التي هي من المظاهر العادية في المجتمعات البشرية عامة ولا يختص بها الاسلام وناسه بمفردهم وان الاسلام لا يقر الاعتقاد في الأولياء كما يفعل الجزويت كما رأينا فهذه بدعة غير مقبولة يقول سبحانه ﴿ **قل من رب السماوات والأرض قل الله قل افاتخدتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً** ﴾[3].

اما كون الاسلام ليست له سلطة منفردة دينية وليست له مدينة دينية مقدسة خاصة به كالفاتيكان في المسيحية[4] فهذا ليس بعيب فيه وليس من اللازم ان يكون في الاسلام كنيسة كالحال في المسيحية لأنه لا

(١) سومتر ــ العادات والتقاليد والاعراف.

(٢) انظر كتابنا السلطة في المجتمع الفصل الثاني.

(٣) سورة الرعد الآية ١٦.

(٤) ديمونيين الاسلام والسياسة المعاصرة ص ٢٢.

يقول بالوساطة بين العبد وربه ولا يؤمن بالاعتراف في الكنيسة ولا بالغفران الكنسي. وانما يتصل العبد بربه مباشرة، قال تعالى ﴿ **اذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دَعَانِ** ﴾[1] ان الاسلام دين الحرية ولا يقر ان يخضع اتباعه لسلطة غير سلطة الله سبحانه وتعالى حتى سلطة النبي عليه السلام يقول سبحانه ﴿ **فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمصيطر** ﴾[2]، ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾[3]. ان الاسلام لا يريد قيام هيئة تستغل المؤمنين باسم الدين يقول سبحانه ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾[4]. فالاسلام يميل الى البساطة ولا يحب التعقيد يقول سبحانه ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[5] ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾[6] كذلك ان قيام مدينة دينية بالذات لكل دين تصور خاطئ لأنه ضد الديمقراطية لأن هذه المدينة ستفرض سلطتها فرضاً وتنتهي الى مركزية عمياء لها على نفسها كما حدث في التاريخ عندما استولى نابليون بونابرت على السلطة في ايطاليا امتدت هذه السلطة على البابا في الفاتيكان واخضعه له هو ومدينته[7] وكذلك عندما استولى موسوليني على روما وانشأ حكمه فيها اخضع بدوره البابا والفاتيكان لحكمه وسلطانه[8] وفي هذا اهتزاز وتحقير للقيمة الدينية للرئيس الأعلى للكاثوليكية وظهور تبعيته للحاكم السياسي هذا من جهة ومن جهة اخرى فإن قيام السلطة الدينية في مدينة معينة اغرى البابوات ان تكون سلطاتهم ليست دينية فقط وإنما دنيوية كذلك ولهذا نرى البابا بونيفاس الثامن يمسك في كلتا يديه بسيفين ويصرخ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦.
(٢) سورة الغاشية الآيتان ٢١ و٢٢.
(٣) سورة الرعد الآية ٤٠.
(٤) سورة البقرة الآية ٧٩.
(٥) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٦) سورة الحج الآية ٧٨.
(٧) روبنسون ص ٥٨٨.
(٨) تومسن تاريخ العالم ص ١٦٨.

قائلاً : هذا سيف الدين وهذا سيف الدنيا انا بابا وانا امبراطور[1] والاسلام تقدم وسبق المسيحية في فهم هذه الحقيقة البعيدة فركز السلطتين صراحة ودون لف أو دوران في الخلفاء. فهم رؤساء دين وهم رؤساء دنيا معاً اقراراً لطبيعة البشر التي تنتهي قسراً الى هذا الوضع الفطري. وليقيم ويسكن هذا الرئيس المزدوج اي الخليفة اينما يشاء كما فعل سيدنا محمد ﷺ نفسه من قبل فلينزل في أي مدينة ترضيه ويفضلها وتعجبه فالحرية كما قلت من اسس الاسلام يقول سبحانه ﴿ **لا اكراه في الدين** ﴾[2] ولهذا لا نجد مدينة واحدة دينية في الاسلام وإنما هناك مدن (بالجمع) متعددة لها هذه الصفة وفي اكثر من بلد واحد لأن السلطة في النهاية ليست للبشر الزائلين وانما لله وحده جلت قدرته وقال سبحانه « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً »، فالدنيا كلها هي مدينة الله المقدسة في الاسلام.

أما بعد :

فإن الاستشراق بالوضع المتقدم ذكره انه يسير ويتبع الاستعمار اينما سار ويحترم اهدافه الغاشمة الاستغلالية ومبادئه غير الانسانية ويعمد مثله الى اضطهاد المسلمين في تاريخهم وفي ثقافتهم وخفض معالم حضارتهم. والمستشرقون يبثون الكراهية ضدهم بالاقلال من قيمهم الذاتية ويساعدون المستعمر في حرية ضدهم بطبع المنشورات المغرضة لارهابهم ونشر الرعب في صفوفهم. كل هذا ليس من المسيحية الحقة في شيء ويسيء الى المسيحية ومبادئ المسيح السامية عليه السلام قبل الاساءة الى الاسلام والمسلمين ذلك لأن المسيح في انجيل لوقا ٢ و ٦

(١) هيرد ص ٣٤٤ و ٣٤٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

دعا الى التسامح وقال بالمحبة حتى محبة الاعداء — واراد سيادة السلام على الأرض.

ان الاستعمار هو السبب الأول لفساد التبشير والاستشراق وهو اسس البلاء في انحرافهما واتخاذهما صورته الباغية وان يصبحا مرآة عاكسة له بكل ما له من صفات الغدر والتعصب واعمال التوحش والبربرية غير الانسانية ويقول في هذا شيخ المستشرقين الانجليزي الاستاذ الاشهر العلامة جب ما نصه : ليس لنا معشر ابناء الغرب ان نعجب من دعوة زعماء الشرق للرجوع الى القيم الشرقية الاصلية. اذا تذكرنا ما عليه بعض ابناء الغرب المتحضرين من بربرية وانحطاط خلقي، وليس هناك دولة شرقية واحدة لا تبدي سخطها — وهي في ذلك على حق — على الأعمال غير الانسانية وعلى حملات الابادة التي لم يقم بها الالمان والروس فحسب بل البريطانيون والأميركان كذلك ولن ينهض لاولئك او هؤلاء ما يدعون من ظروف الحرب القاهرة مبرراً لمثل هذه الوحشية الصارخة. ولكن الأمر بالنسبة للدول العربية قد اتخذ مظهراً عنيفاً وشخصياً بانتهاك حرمة الوطن الفلسطيني واغتصابه، لقد اتضح بكل جلاء ان المثالية الانسانية التي يبشر بها الغرب من أعمال لا تتفق مع المثالية أو القيم الانسانية. ولا شك ان لمثل هذا التناقض بين القول والفعل اثره في خلق روح من الشك العميق في كل ما يدعيه الغرب من خير فنظمه الاجتماعية او سلوكه الفردي، لا نريد ان ندعي للمستشرقين ودراساتهم اكثر مما لهم فهم لا يزالون الى اليوم عاجزين عن تحطيم الحواجز وازالة التوتر الذي يفرق بين الشرق والغرب وفي رأي هذا العدد القليل من العلماء الذين يشتغلون بالدراسات الشرقية من بين ابناء الغرب انهم يسيرون سيراً بطيئاً متعثراً »[1].

---

(١) جب في يتح ص ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٩.



الكلمة الأخيرة

هذه هي وجهة نظرنا في الموضوع الذي طرقته وتتلخص في ثلاث شعب: نظرية تختص بالاستعمار وهي انه بدعة من بدع بعض رجال الدين المسيحي نشأت في القرون الوسطى ضد الاسلام والمسلمين. ونزلت هذه البدعة في كثير من مظاهرها الى الاستعمار الحديث. فهو يتحرك تقريباً على الأسس نفسها وعلى النمط نفسه وعلى الأهداف نفسها وعلى الوسائل والاساليب نفسها. وان العقلية الصليبية عقدة نفسية دفينة لم يمكن للمسيحيين أن يتخلصوا منها أو يتحولوا عنها طوال هذه المدة الطويلة من الزمن. وانها لا تزال قائمة قوية ومتكررة ومستمرة. والنظرية الثانية هي ان التبشير من مستلزمات الاستعمار فتارة يتقدمه ويمهد له وتارة يتأخر ويستمر في خدمته. وتارة ثالثة ينقلب جهاراً الى استعمار مسلح كما ذكرنا في حالة قيام دولة الجزويت في الارجواي بأمريكا الجنوبية. والنظرية الثالثة هي ان الاستشراق ركيزة للاستعمار في تقويض اركان الاسلام وتعاليمه وتحقير لمظاهر ثقافته ومعالم حضارته. والحط من نظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية الجمالية وكل مظاهر الحياة في المجتمع الاسلامي. وان من رجال الاستشراق رجال دين مسيحيين ورجال سياسة استعمارية ومستعمرين عسكريين كما رأينا

اي : خدام للحكومة الاستعمارية المستغلة الناهبة لخيرات بلاد الاسلام والمحقرة والمشنعة على أهله من المسلمين.

وان ما يفعله الاستعمار والتبشير والاستشراق ضد الاسلام والمسلمين لا يتفق اطلاقاً مع مبادئ المسيحية الحقة لأنها تنادي وتقول كما قدمت بالمحبة — حتى محبة الأعداء — وبالاحسان وبالامل وبسيادة السلام والمسرة في الأرض. وهي فضائل قيمة وثابتة في انجيل لوقا ٦ و ٩ و ١٢ — كما قدمنا تفصيلياً — ولكنها تنسى ولا تحترم عند أهل هذه الفئات الثلاث ويأتون بعكسها تماماً. وهذا افتراء على الاسلام والمسيحية على السواء.

وبهذا يمتاز كتابنا باتجاه واضح في نواحي نظرياته الثلاث هو الاتجاه الديني. وهذا هو الهدف من البحث والدراسة السليمة لأن التخصص في ناحية معينة تعمق ودقة، وان تعدد التخصصات في مؤلف واحد مظهر للتخلف الفكري، ولكنه حميد لو كانت في مؤلفات مختلفة ومتفرقة لان كل مؤلف في هذه الحالة سيتعمق ويدقق في ناحية محدودة بالذات وهذا هو التقدم والارتقاء في البحث والدراسة العلمية. ويمتاز كذلك بأن المؤلفين والكتاب الذين رجعنا اليهم بعضهم اعضاء في اكبر هيئة علمية في فرنسا وهي الاكاديمية الفرنسية كالحال في العلامة جيزو وجيو وبيزان وبرثران وغيرهم. وان بعض المؤلفات توجتها الاكاديمية الفرنسية بتقديرها مثل كتاب الاستاذ الكبير لويس برهيبة عن الحروب الصليبية الذي اشرنا اليه وكتاب الكنيسة للقساوسة ركييه وكومب. وان بعضهم اساتذة اجلاء رغم اتجاهاتهم المعادية ورغم ان علمهم ذو لون معين مؤذٍ ومفترٍ كالاستاذ كازانوفا دونميين والأب لاماناس وغيرهم. وان بعضها ذخيرة نادرة ومنبع لا ينضب بالمراجع الاساسية مثل الكتاب المئوي والجمعية الاسيوية الشهيرة في الاستشراق بفرنسا من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٩٢٢. وهو كتاب غير موجود الان افخر ان يكون ضمن

مكتبتي الخاصة. هذا بجانب المراجع الانجليزية المحترمة مثل كتاب روبنسون في التطور الحضاري والمراجع الأمريكية ككتاب لوكاس في الحضارة نفسها.

ولكن ما هي الأسباب التي دعت المستعمرين والمبشرين والمستشرقين ينقمون ويتعصبون ضد الاسلام والمسلمين مع ان الاسلام كما قدمنا يكرم المسيحية والمسيحيين. وفي نظري تتلخص هذه الأسباب باختصار تام بالنسبة لضيق خاتمة الكتاب وصغر حجمها في النقاط المقتضبة الآتية :

١ ــ منع الاسلام المسيحية من الانتشار في بعض البلاد مثلاً شبه الجزيرة العربية.

٢ ــ دخل الاسلام واستولى على بلاد مسيحية مثل صقلية واسبانيا وجنوب فرنسا وغيرها.

٣ ــ عندما دخل الاسلام في البلاد المسيحية استقر فيها واستمر فيها مدة طويلة جداً كالحال في الاندلس فقد عاش فيها نحو ثمانية قرون متتالية.

٤ ــ للاسلام كتاب كريم كله الاعجاز والبلاغة والخلود على مر العصور وبنفس المستوى العالي.

٥ ــ ان كتاب الاسلام الكريم لم يكتبه كغيره الرسول او من هم حول الرسول وانما هو منزل من رب العالمين مباشرة وسجل اولاً تسجيلاً دقيقاً ثم جمع وروجع بكل انتباه حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٦ ــ ان الاسلام انتشر في وقت قصير وبسرعة فائقة غلبت سرعة انتشار المسيحية وبطرق انسانية لم تثقل على كاهل اهل البلاد المفتوحة وانما حببتهم فيه.

٧ ــ ان الاسلام لا يقول بقيام كنيسة بين العبد وربه وانما للمؤمن ان يتصل مباشرة بالله رب العالمين ولا حجاب بينهما.

٨ ــ هزم الاسلام المسيحية في حروب القرون الوسطى الصليبية.

٩ ــ ان الاسلام كان استاذ المسيحيين ومعلمهم الأول ابان القرون الوسطى واوائل العصور الحديثة بفضل حركات الترجمة من اللغة العربية الى اللغات الأوربية.

١٠ ــ يبنى الاسلام على الاقناع والاقتناع ولا حرج في الدين ولهذا يتعمق ويستقر في نفوس متبعيه ويجد المسيحيون من المبشرين صعوبات كبرى في تنصير المسلمين وتحويلهم بعيداً عن دينهم.

١١ ــ ان الاسلام دين الديمقراطية التي يتشدق بها المسيحيون وانها من صنعهم ابان القرن الثامن عشر بفضل قيام الثورة الفرنسية وانما الاسلام سبقهم بقرون بالمناداة بالحرية والاخاء والمساواة.

١٢ ــ ان الاسلام حسب دعوة السيد الرئيس محمد انور السادات هو دين العلم والايمان فهو دين الفضائل الكبرى وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ودين الفضائل القصوى وهي محبة العلوم بأنواعها المختلفة والإقبال عليها مع وجود تنفيذها بالسعي والمودة والجهاد فالدين لا يتعارض مع العلم والاجتهاد وانما يؤيده ويدعو اليه.

١٣ ــ ان الاسلام لا يعادي اصحاب الاديان الاخرى وانما هو يهادنها ولا يتعصب ضدها ولا ينقم عليها. وانما يرى الاديان وبخاصة المنزلة متممة لبعضها بعضاً ويدعو الى احترامها ومنها المسيحية وعدم الاعتداء على أهلها وهذا منتهى الاخلاق الفاضلة ورغم هذا يسيء اليه كثيراً اتباع الاديان الاخرى بالاستعمار والتبشير والاستشراق.

١٤ ــ لم يحدث بتاريخ الاسلام كله ان تحول رجل الدين فيه عما

كرسوا له حياتهم العادية. ولم يخرجوا عن حدودهم الى درجة ان ينقلبوا الى رجال حرب ويكونون فرقاً عسكرية مسلحة تحارب اعداء الدين حرباً لا هوادة فيها يسودها القتل وسفك الدماء كما حدث في المسيحية ابان الحروب الصليبية عندما تكونت منهم طائفة استبارية (هسبيتاترز) ــ والطائفة الثانية هي طائفة الداوية وهم فرسان الهيكل (تماز).

١٥ ــ كذلك لم يحدث اطلاقاً في تاريخ الاسلام كما حدث في تاريخ المسيحية من انقلاب رجال الدين الى مستعمرين صراحة وعلانية يقودون الجيوش المحاربة ويهتمون بتكوين دولة دينية مستقلة لهم خاصة بهم يحكمونها ويصرفون شئونها كسائر الدول السياسية كما حدث للجزويت في بلاد اوروجواي في امريكا الجنوبية مما يدل على ان الدين في نظرهم وسيلة لا غاية.

١٦ ــ ان الاسلام لما دخل اسبانيا وحكم الاندلس لم ينشئ فيها للمسيحيين محاكم التفتيش تأمر بقطع اعضاء ابدانهم وتعذيبهم شر العذاب الجسمي كما فعلوا هم عندما اخرجوا المسلمين بعد ذلك منها وانما عاملوهم بالحسنى ولهذا أمكنهم الاستمرار هناك وكما ذكرت ثمانمائة سنة. وهذه المدة الطويلة هي التي تحز في نفوسهم.

١٧ ــ الاسلام لا يعتقد في قتل المسيح عليه السلام ولا في صلبه ولا في اهدار دمه. وان هذا من محض التهيئات لانه رفع الى السماء .. وهذه كبيرة من الكبائر في نظر المسيحيين. لان دم المسيح يجب أن ينتقم له ويتعصب ضد من شارك في ذلك واصبح اللون الأحمر من مميزات المسيحية في الحروب الصليبية وغيرها. وان يكون طابعاً خاصاً ضمن ملابس الكرادلة وعندما زار الأب مكاريوس حاكم قبرص الأزهر الشريف وقع في سجل الزيارات بالحبر الأحمر وهذه شكليات ورموز نأخذ بها المسيحية وتؤمن بها بالنسبة لاعدائها ولكن البابا الحالي في الفاتيكان وقع تحت ضغط اليهود وتأثير نفوذهم واذعن لهم واصدر

مجمع الفاتيكان بموافقته فيوم ١٩٦٥/٢/١٩ قراراً يبرئ اليهود من دم المسيح عليه السلام. وجاء هذا الفهم متأخراً الف وتسعمائة خمسة وستين عاماً منذ ترك السيد المسيح عليه السلام لهذه الدنيا في حين سبق الاسلام المسيحية في هذا المفهوم منذ سنين طويلة وطويلة جداً اي منذ ١٣٨٥ سنة. يقول سبحانه وتعالى في هذا الصدد : ﴿ **وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[1].

١٨ — ان المسيحيين يعتبرون المسيح عليه السلام ابن الله (انجيل لوقا ٣ « ٢٢ »)، في حين أن الاسلام والمسلمين يرون الله سبحانه بأنه ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾[2] .. وانه فقط رسول كغيره من الرسل الذين سبقوه وهو ادمي مثلهم يقول سبحانه في سورة المائدة ﴿ **ما المسيح ابن مريم الا رسول خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يوفكون** ﴾[3] « فهو ليس ابن الله ولا الله نفسه ... يقول سبحانه : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم** ﴾[4] وأنه لم يبعث للناس كافة كسيدنا محمد ﷺ وانما لبني اسرائيل فقط يقول سبحانه ﴿ **وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار** ﴾[5] .. ووجد من رجال الدين المسيحي من انكر الصفة الالهية للمسيح واعتبروه كالاسلام نبياً فقط اي ايدوا الناحية البشرية فيه لا غير امثال القساوسة المشارفة تيودور هوبسوست وتيودور الصوري وايباس الرهاوي[6].

---

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٧ و١٥٨.
(٢) سورة الإخلاص الآية ٢.
(٣) سورة المائدة الآية ٧٥.
(٤) سورة المائدة في الآيتين ١٧ و٧٢.
(٥) سورة المائدة الآية ٧٢.
(٦) جينبرت ص ٤٣.

ولكن كيف نقاوم هذا التعصب[1] ونتحدى هذا التحامل الذي دفعت اليه الاسباب الثمانية عشر سابقة الذكر وغيرها ؟

نعتقد ان السبيل الى هذا يكون بتنشئة المسلم الجديد في اواخر القرن العشرين تنشئة حربية وجهادية في كل مراحل التعليم واي نشأة اخرى توضع في المقدمة غيرها ربما يتحدثون عنها احياناً في الكتب أو في الندوات هي خرافة ووسيلة اكيدة لتأخر المسلم والمسلمين. وان المسلم الذي لا يحارب جبان ويؤدي جبنه الى ان يستعبده الاستعمار ويذله التبشير ويشهر به الاستشراق ظلماً. ان القوة العسكرية هي الحياة اليوم والحياة هي هذه القوة بالذات وهذا هو منطق ولغة العالم الذي نعيش فيه الآن فإن لم نرتفع الى مستوى فهمه هوينا الى الحضيض. يقول سبحانه وتعالى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين** ﴾[2] ويقول ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خُذوا حذركم فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعاً** ﴾[3] ويقول ﴿ **يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار** ﴾[4] ويقول عليه الصلاة والسلام « ان لكل امة سياحة وسياحة امتي الجهاد في سبيل الله ».. ويقول ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ».

ولحسن الحظ ان على رأس بلدنا قوماً يفهمون جيداً ما اقوله وفي الصدارة القائد المؤمن بطل سيناء السيد الرئيس محمد انور السادات الذي أحيا في الامة رجولتها. وأيقظ شجاعتها ورباها عسكرياً. وحركها الى الميدان. وانتهى بها الى النصر المبين بعد ٦ اكتوبر ١٩٧٣ العظيم. وهو اليوم الخالد في تاريخ مصر وفي تاريخ العرب والمسلمين اجمعين. ولا مانع من ان نقرن هذه النشأة الحربية بتربية دينية تهدف الى الجهاد

---

(١) بيراشا ــ ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

(٣) سورة النساء الآية ٧١.

(٤) سورة الأنفال الآية ١٥.

وبتربية في العلوم الوضعية كعلم الطبيعة والكيمياء والتكنولوجيا ترمي كذلك الى الحرب وخلق المكتشفات العلمية للتقدم العسكري. وكفانا في بلاد الاسلام دراسة النثر والشعر والقصة القصيرة والقصة الطويلة وغير ذلك من الخرافات الأدبية. وان الأدب يجب أن ينصب على الدراسات البيوجرافية وتراجم كبار القادة من أهل الحرب ومحرري الأوطان وشهداء الحرية وقيام الثورات الشعبية وتراجم ووقائع المجتمع وآلامه وآماله[1] .. ليكون كل ذلك وغيره مثلاً حافزاً يدفع الشباب في نضالهم ضد الاستعمار والتبشير والاستشراق وغير ذلك من الاوبئة التي تنخر في جسم الامة الاسلامية وتقوض دعائم الوطن الاسلامي.

ولكن لماذا التنشئة الحربية اولا وقبل كل تنشئة اخرى ؟ لان الاستعمار يعتمد على القوة العسكرية ولان التبشير روحه حربية ولا يتورع — كما رأينا — ان يلبس رجاله ملابس الميدان والحرب ولأن المستشرقين — كما ذكرنا — منهم العسكريون ومنهم من يتمسح ويحتمي بأمراء الحرب ويعتمد عليهم هذا من جهة. ومن جهة اخرى لأن الروح الحربية تسود العالم منذ القرن التاسع عشر الى الآن ولم تتوقف ابداً وإنما ازدادت على مر الايام وان كل محاولات السلام قد فشلت فشلاً ذريعاً ويتلخص ذلك فيما يأتي :

ان ما اثار الروح العسكرية والاهتمام بالحرب ابان القرن التاسع عشر هي الشكوك القوية والظنون الفعالة التي انتشرت ابانه بين القوى الاوربية الكبرى المتنافسة بين بعضها البعض وتحت اثر الحسد والغيرة المتوارثة فيما بينها. وبجانب ذلك كان هناك تقدم الوسائل الحربية والاختراعات العسكرية التي ظهرت نتيجة للتقدم الصناعي الآلي في اوربا وتقدم صناعة الآلات الحربية بالذات. كذلك مما قوى المنافسة اكثر واضرم الحقد بين

---

(١) لانسون — الادب الفرنسي يعالج الادب من ناحية الواقع الاجتماعي.

الدول الاوربية الصناعية درجات تفننهم في تموين جيوشهم بآخر وارقى المكتشفات العسكرية وآلات الدمار من هذه الالات البندقية التي اخترعها سنة ١٨٦٢ ريتشارد جالتنج الأمريكي الذي ولد سنة ١٨١٨ ومات سنة ١٩٠٣ وهو احد رجال الصناعة الذين امدوا حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بالاسلحة اثناء الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ الى سنة ١٨٦٥. وقد سميت باسم بندقية جالتنج واثرها كان قوياً وغريباً في ذلك الحين لأنها كانت تطلق رصاصها بمعدل ٣٥٠ طلقة في الدقيقة[١].

كذلك اخترعت فرنسا مدفعاً متقدماً في صناعته وكفايته استخدمته لاول مرة في الحرب الفرنسية البروسية. ولقد حسن ورقى في صناعته احد المهندسين الأمريكيين وهو هيرمان ماكسيم سنة ١٨٨٩ بحيث لم تأت سنة ١٩١٤ الا وكان كل جيش في اوربا حصل عليه واستخدمه بعد دقة صنعه. ثم جاء اختراع البارود الذي ينفجر بدون دخان. وكذلك ما سمي ببندقية القطن ثم تعددت بعد ذلك المنشآت التي تصنع آلات الحرب في البلاد الاوربية واهمها مؤسسة كولت وديبون وريمنجتون في الولايات المتحدة الاميريكية وكروب في المانيا وسكودا في النمسا وشنيدر في فرنسا. وارمسترونج وفيكرز في انجلترا. ومنذ سنة ١٩٠٦ اخذت الحكومة الالمانية في صنع الغواصات البحرية. ثم أن اختراع الطائرات الحربية غير تماماً في اساليب الحرب والقتال وخططه حتى لم تأت سنة ١٩١٤ الا وكان يستعملها اغلب الجيوش الاوربية.

وأنه منذ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر كان من التقاليد فرض الخدمة العسكرية الاجبارية لتدريب الرجال الاشداء وتعليمهم اساليب القتال المختلفة واستدعائهم عند اللزوم عندما تتحرج الظروف هذا النظام نجده بوجه خاص في فرنسا والمانيا. في حين نجد نظام التطوع هو

---

(١) لوكاس ص ٨٢٢.

السائد في انجلترا والولايات المتحدة. ثم اصبح الاهتمام بالحرب جزءاً لا يتجزأ من الانتاج الوطني. وخصصت لذلك مبالغ كبيرة باهظة من النقود لدعم هذا الاتجاه العسكري(١).

رغم هذا الاتجاه الحربي القوي كان هناك في نفس الوقت اتجاه فاشل هو الاتجاه نحو السلام : والذي كان يمثله بوجه خاص اندرو كارتجي في امريكا وليو تولستوي في اوربا وهو من الكتاب الروسيين الشهيرين ونورمان آنجل في انجلترا وغيرهم كذلك من الكتاب الاشتراكيين الذين يرون ان عبء الحرب يقع بالفعل على طبقة العمال وضارة بهم فهم لا يقرونها. وكان هناك اتجاهات نحو الاقلال من المنافسات العسكرية والبحرية بين الدول وذلك عن طريق الدعوة الى مؤتمرات دولية لنزع السلاح وتحديده. ولهذا اجتمع اول مؤتمر للسلام في مدينة لاهاي بهولاندة تحت رعاية واهتمام كل من نقولا الثاني قيصر روسيا والملكة ولهلينا ملكة هولاندة. واستجابت لدعوتهما ٢٦ دولة ارسلت من يمثلها الى هناك. ولكن المجتمعين فشلوا كل الفشل في الوصول الى اتفاق لتحديد السلاح. ولكنهم اوصوا فقط بانشاء محكمة عليا لتفصل فيما بين خلافاتهم ومنازعاتهم وكان هذا في سنة ١٨٩٩. وفي سنة ١٩٠٧ اجتمع المؤتمر الدولي الثاني للسلام الذي اجتمع في المدينة نفسها .. (لاهاي بهولاندة) وفشل كذلك في هذه المرة الثانية للحد من الاسلحة ولكن اتخذ القرارات التي تجعل الحرب اكثر انسانية وعدم استعمال الغازات السامة القاتلة شر قتلة في الحروب. وفي سنة ١٩١٥ انعقد المؤتمر الثالث للسلام ونجح بعض الشيء ولكن النتيجة الفعلية العملية انه كذلك فشل لأنه لم يمكنه وقف الحرب العالمية الاولى التي ابتدأت في سنة ١٩١٤ واستمرت حتى ١٩١٨/١١/١١ ثم عقد

---

(١) لوكاس ــ ص ٨٢٣.

مؤتمر السلام في باريس على اساس الـ ١٤ نقطة التي وضعها الرئيس ودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩١٨/٦/٨ — ولكنه فشل. فعقد مؤتمر فرساي للصلح في سنة ١٩١٩ ولكنه فشل كذلك لأنه كان عبارة عن مؤامرة كبرى تعقد ضد المانيا وحليفاتها. وبوصفه مؤتمراً لتوزيع الغنائم والاسلاب على انجلترا وفرنسا وباقي الحلفاء. وانشأوا عصبة الامم في جنيف لتقيم السلام فيما بينهم ولكنها فشلت بدورها لأن المانيا وايطاليا وغيرها من الدول قوت نفسها حربياً لتنتقم من هزيمة الحرب العالمية الاولى. فقامت الحرب العالمية الثانية ثم نشأت هيئة الامم المتحدة[١] بعد ذلك لنشر السلام ولكنها ليست أقل فشلاً من اختها عصبة الامم وهي عاجزة عن اقرار السلام[٢] في العالم بدليل مادي الحروب التي قامت ضدنا وهي حرب ١٩٥٦ — وانتصرنا فيها في بور سعيد — وحرب سنة ١٩٦٧ والتي هزمنا فيها للأسف الشديد ثم حرب السادس من اكتوبر سنة ١٩٧٣ والتي انتصرنا فيها انتصاراً باهراً بفضل قيادة البطل المؤمن محمد انور السادات وهذه ليست آخر حرب ضدنا وضد المسلمين لانه طالما اسرائيل قائمة فلن تسكت عن التوسع. فهي قامت لتمتد من النيل الى الفرات او كما قال قائد جيشها في ١٩٥١/١١/١٧ — ما نصه في قوله الذي يجب أن نعرفه جيداً ونتدبره كثيراً لانه يمثل الحقيقة بعينها صريحة لا خفاء فيها « ان دولة يحيط الأعداء بحدودها لمضطرة الى خلق شعب قوي محارب فيها. واعتبار كل قادر على حمل السلاح من ذكر أو انثى حتى سن الخمسين جندياً في الميدان ».

فالروح الحربية[٣] والقوة العسكرية هي طابع العصر الذي نعيش فيه

---

(١) لوكاس ص ٨٢٤ و ٨٢٥.

(٢) لوكاس ص ٨٢٧ و ٨٢٨.

(٣) قال سبحانه « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ».

وهي لا يمكن ان تنقطع لأن الحرب بطبيعتها ظاهرة اجتماعية عامة وملزمة. ومن لا يفهم من المسلمين هذه العمومية وهذا الالزام اي ضرورتها وانها لا بد واقعة يوماً ما ولا يمكن إلغاؤها اطلاقاً من المجتمعات البشرية سيخضع لها ويقاسي من نتائجها المؤلمة كالاستعمار والتبشير والاستشراق والفقر والجهل والمرض وغير ذلك. وان الحرب تحيط بالمسلمين وبنا في منطقتنا من كل جانب وجربناها بالهزيمة لأننا لم نستعد لها ولم نفهم ضرورة التنشئة العسكرية الصادقة التي اقول بها. وجربناها كذلك بالنصر المبين عندما كتب الله لنا ان يولي علينا قائداً مؤمناً يعرف جيداً اهمية الروح العسكرية والتربية الحربية لأنه وطني مناضل نابه وقائد قد كتب الله لنا على يديه النصر المبين وفقه الله دائماً الى ما فيه صالح الامة كلها امة الاسلام والمسلمين .. يقول السيد : الرئيس ما نصه في كتابه القاعدة الشعبية صفحة ١٦ ما نصه : « لا بد لنا من جيش قوي. جيش يدفع عنا اي عدوان وفي الوقت ذاته يشعرنا بكرامتنا وبعزتنا فلا نحتاج الى احد غريب لكي يدافع عنا. وانما نحن الذين ندافع عن انفسنا .. لا بد ان يوجد لنا جيش قوي لكي ندافع عن ارضنا وعن سيادتنا وعن ارادتنا ومن غير هذا الجيش لن نستطيع ان نمارس الحرية او الديمقراطية .. لا بد ان يوجد لنا جيش قوي يدافع عن حريتنا وعن ارادتنا وعن استقلالنا وعن حقنا في ان نقرر مصيرنا بأنفسنا ».

ثم ان كتابنا هذا يتمشى تماماً مع ما وضعه السيد / الرئيس محمد أنور السادات من أسس للمستقبل في ورقة اكتوبر للعمل وبخاصة فيما يمت الى الفقرة الثامنة التي تنصب على التقدم الحضاري استناداً الى العلم والايمان — فلا يقاوم العلوم في الشرق الاسلامي غير الاستشراق وقد بينا مساوئه — ولا يفسد الايمان غير التبشير وقد كشفنا الغطاء عن مؤامراته. وكذلك فيما يتصل بالفقرة التاسعة الخاصة بالمجتمع المفتوح لرياح الحرية لأن لا يضطهد الحريات ويقاومها ويقضي عليها غير

الاستعمار الغاشم بقواه العسكرية المستبدة. وقد بينا في وضوح مضاره واخطاره والطرق الفعالة والكفيلة بمقاومته هو واعوانه كالتبشير والاستشراق فهم جميعاً اعداء البناء والتقدم في الدول الحديثة والمجتمعات العصرية الناهضة.

وان ما نقوله عن ضرورة واهمية التربية الحربية الصادقة للنشء في كل مراحل التعليم صحيح تماماً بالنسبة للمستقبل.

وكذلك ملحقاتها من التربية الدينية الاخلاقية والتربية العلمية الوضعية. لان السيد الرئيس يذكر في ورقة اكتوبر للعمل ما نصه « ان معركتنا لم تنته بعد ... اننا ازاء مرحلة من ادق مراحل النضال السياسي والعسكري الحافلة بكل الاحتمالات .. مرحلة علينا ان نواجهها بكل ما واجهنا به قرار الحرب والاعداد له مما ذكرته من حساب دقيق .. اننا لا يمكن أن نزرع العلم في بيئة غير علمية ولا ان نقطف ثمار البحث في جو يضيق بحرية الباحثين .. اننا لا بد ان نتمسك بقيمنا الروحية والاخلاقية .. لان تلك القيم هي من السمات الاصيلة لحضارتنا »..



فهرس